روايـــــــــــــــة

صعاليك الأنفـــــــــــــوشى

سعيـــد ســـالم

إهـــــــــــــــــــداء

الى مجذوب البحـــر: عباس حسين ، بطل روايتى ، الذى أمدنى بمعلومات وحقائق عن مدينتى كنت أجهلها، والذى أفنى عمره فى عشق البحر، فمنحه البحر بعضا من أسراره واتخذه نديما وأنيسا وصفيا.

مجذوب البحـــــــر

****

● أنـــــــــــــــــــا:

كنت فى حوالى الرابعة من العمر عندما ألمت بى نوبة سعال مستعصية، جربت أمى رحمها الله معى جميع الأعشاب التى نصحتها بها نساء الحى . رجعت من دكان ماضى العطار بزقاق الدقاقين محملة بقراطيس عديدة تحوى ما يؤكل وما يستنشق وما يغتسل به من أعشاب وجربتها دون جدوى. اهتدت أخيرا الى طبيب ألمانى يدعى مدريوس. كانت عيادته بشارع اسماعيل صبرى.. فحصنى الطبيب ذو الطلعة المهيبة والمنظار الفضى والذقن البيضاء القصيرة ، ثم وصف لى القليل من الأدوية ونصح أمى أن تحملنى الى شاطئ الميناء الشرقية عند الفجر كل يوم ، كى أستنشق يود البحر العليل. ورغم مرضها فقد اصطحبتنى فجرا الى الميناء الشرقية التى كانت لاتزال بكرا.. مياه زرقاء صافية وقاع شفاف رائق ونسيم عليل وعشرات من فلايك الصيد تطفو نعسانة كحلم هائم.انطلقت أجرى على رمال الشاطىء القليلة آنذاك. أمرح فى جنون وأدفع قبضتى الصغيرة فى الماء محاولا الإمساك بالأسماك السابحة.. وتمتلئ رئتاى باليود ونسيم البحر النقى الصافى.

لم أكن أدرى أننى أبدأ فى هذه اللحظات قصة عشق فريد بين صبى ضعيف وبين البحر والنوارس والأمواج المتدافعة . جذبنى البحر ، بل اختارنى له صفيا وصاحبا ونديما، ودمغ قلبى الصغير بحبه وعشقه والهيام به . كلما مضى عام من عمرى ازددت تعلقا به والالتصاق بشواطئه خاصة شواطىء رأس التين والأنفوشى والحجارى والسيالة. لم أشارك أقرانى ألعابهم المعهودة كثيرا، وانما تمكنت من أن أنقل عدوى حبى للبحر الى الكثير منهم . كنت أميل الى أن أكتب رسائل ذات تهويمات رومانسية مبكرة ، أودعها فى قارورة وألقى بها الى الأمواج لتحملها الى المجهول . قلدنى كثير من أصدقائى وهم مبهورين بهذا الفعل الغريب.

عندما وعيت وقرأت وفهمت ، ملت كثيرا الى فكرة تناسخ الأرواح .تخيلت أننى كنت ابن صياد فقير فى قرية راقودة ، أعاونه فى الصيد ، عندما حطت بشاطئنا قافلة الاسكندر الاكبر . كان مشهد الامبراطور محاطا بجنده وقواده وغلمانه ومحظياته ورايات انتصاره المرفرفة يخطف عقلى وقلبى معا.

كان الفتى المقدونى يلقى بتعليماته لمهندسه دينوقراطيس. وهو يبنى له مدينة تاريخية تحمل اسمه وتخلده . قربنى الاسكندر منه . ربت على كتفى وهو يقول لى :

- اننى أبني هذه المدينة لك ولأقرانك ، فلا تضيعها أبدا !!

عندما رويت لأصدقائى ماكنت أحلم به، أطلقوا علىّ من يومها لقب "مجذوب البحر"، لكن البعض منهم انجذب مثلى دون أن يدرى ليصبح هو الآخر من مجاذيبه وعشاقه. تضخم عشقى للبحر والنوارس فصار عشقا كبيرا شاملا لمدينتى الجميلة ومعشوقتى الساحرة:الاسكندرية.

عندما أتحدث إذن عنها ، فأنا أتحدث عن رأس التين والسيالة والأنفوشى وغواصة وحودة تمنتاشر وزنقة الستات وكوم الناضورة والمتحف البطلمى والشلالات وعمود الصوارى . الناس والأماكن والبحر والتاريخ انصهروا عندى فى بوتقة واحدة اسمها الاسكندرية.

جرت الأيام مسرعة ، ومجذوب البحر – أنا - يزداد انجذابا وعشقا واندماجا وجنونا وانصهارا بمعشوقه. لكنى كنت أميل الى أن أسمى نفسى "صعلوك البحر" حتى أشعر بضآلتى أمام هذ الحنون المتجبر. نعم أنا صعلوك البحر ، لكنى

أرى فى نفسى مجذوبا من أحب مجاذيبه اليه ، ولا زلت حتى الآن وأذا أنهى رحلة العمر الصعلوك العاشق ، مجذوب البحر.

****

• اسكندريـــــــــــــة:

لكل مدينة مفرداتها وأبجديتها التى تحل رموزها وتكشف أسرارها وتحكى تاريخها الا أنت يا اسكندرية. أيتها الغامضة المفعمة بالألغاز. تختصرين تاريخك كله فى غيومك الرمادية الحبيبة ..عباءة تطرحينها فوق الناس والبحر والمبانى والطرقات كتومة لاتبين ولا تفصح، كوجه عذراء يطل فى استحياء على الكون الفسيح . رغم ذلك فتقاطيع وجهك الجميل كتقاطيع وجه رجل عجوز تنبئ بالحكمة وخبرات السنين.

غيومك يامدينتى ليست كأى غيوم. تتجمع وتتجهم وتتمخض ، فيهمى غيثها مطرا مدرارا .. غيومك أسرار وأحاجى ورسائل موحية تبشر بأن التاريخ لن يقسو عليك أبدا، فهو ممتن لك ويحفظ فضلك، فأنت التى صنعته وزينت حواشيه بالأصالة والرقى والضياء . لن أندم يوما على أننى أنفقت عمرا فى حبك، وأننى جعلت زادى من حسنك ومداد كلماتى من عطائك ، وأبليت أيامى هائما فى طرقاتك أستنطقها وأحاورها وأجادلها فتقبل على أحيانا وتدير لى ظهرها عابسة عازفة عن البوح أحيانا أخرى. واذا كان الجنون هو انفصال عن الواقع، فأنا مجنون بعشقك وأزهو بجنونى هذا مستغنيا عن الواقع المرير، وكل أمنياتى أن تضمى عظامى فى ثراك دون حتى أن تلهجى بإسمى أو أن تخلدى ذكراى.

غيومك يا مدينتى ليست كأى غيوم .. غلالة شفافة من الشجن الدفين تلف الشوارع والمبانى والوجوه. غيوم خريفية رمادية بشارة من الشتاء القادم. على أجنحة الخيال أسير فى طرقاتها فأعانق الحجارة والحوائط والبيوت. أنشر جناحى وأحلق فوق البحر. أصاحب النوارس فى بحثها عن الرزق اليسير، ولكنها تتركنى فى المساء عندما تؤوب الى أعشاشها المجهولة. مدينتى تسكن فى أعماقى قبل أن أسكن فيها، وتسرى فى عروقى وتشكل أحلامى. تشهد طرقاتها كم مشيت عليها أجرى فى حبور وأهرول فى شوق ، وأمشى متثاقل الخطوات أطرق أبواب الماضى وأغنى لها أغنيه الحنين. مدينتى صفاء ،أيامها رخاء، وماضيها يسكن فى نخاعى. عشت هذا الماضى منذ أن صاحبت الفتى المقدونى وهو يتأمل شواطئها فى عشق ويقول لى :

- هنا سأبنيها ساحرة معطرة الأريج تسطع بالجمال والرقى والحضاره .. وستولد فيها وتحبو على أرضها وترضع من عبقريتها وتنتشى بسحرها ولن تستطيع منها فكاكا.. لاتبحث عن مدن أخرى ولا تفكر بالرحيل عنها، فإنها ستسكن داخلك أينما حللت، فلا تفلت يداك من قيودها، وتمسك بها الى أن يضمك ثراها.

مدينتى والغيوم أسطورة فى كتاب دفين ونبوءة عراف مقدونى عجوز تقول:

- من أحبها فلن يموت، وسيحيا حجارة فى طريقها، أو غيمة فى سمائها، أو موجة فى بحرها.

أنا الآن أجهز أكفانى وأخط السطور الاخيرة فى كتاب أيامى التى تقول:

"هنا عاش رجل هام عشقا بمدينته، واختطلت دماؤه بذرات ترابها ، ولذلك فهى تحبه، وربما تزهو بين المدائن وتقول: هذا وليدى الذى عشقنى وأفنى أيامه فى جنباتى، وأنا سأذكره فى كتابى : كتاب العشق والهوى والجمال".

****

● **صايع بحـــــر (1):**

يشكل حى بحرى شبه جزيرة يمتد لسانها حتى رأس التين . يحده من الشرق الميناء الشرقية، ومن الغرب الميناء الغربى، وتذخر شوارعه وحواريه بالعاملين إما كصيادين بالميناء الشرقيه والأنفوشى وراس التين ، واما العاملين بالحرف البحرية المختلفة مثل الشحن والتفريغ وصيانة السفن وخلافه بالميناء الغربى. لكن كانت هناك مهنة غير مشروعة امتهنها البعض من صعاليك بحرى أسماها كبار السن من سكان الحى مجازا " صايع بحر".

صايع البحر هو أصلا من الشباب العاطلين العابثين الذبن يتطلعون الى المكاسب السريعة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة بأقل مجهود يذكر. وفى حارة "مدوّره" الموازى لشارع الشمرلى الذى يفضى الى الميناء كان" حسن ظاظا" يسكن فى أحد البيوت القديمة ، وهو شاب فى الثلاثين من عمره. طويل القامة، متين البنيان، ذو شعر مفلفل وأنف كبير، وملامح تنطق بالشر.على خده الأيسر ندبة طويلة من أثر طعنة بمدية من غريمه "حنوكة شكل"، بعد شجارعنيف بينهما وهما يتقاسمان حصيلة احدى السرقات من الميناء .

لم يمتهن ظاظا مهنة ولا صنعة ولا حرفة ، الا أن يكون صايع بحر وصعلوك من صعاليك الميناء. فى البداية وقبل أن يصل الى العشرينات من عمره، كان يحمل بوصة طويلة مثبت بها شعر نايلون وصنارتين وغلق من الخوص، ويتوجه للصيد على شواطئ الميناء الشرقيه، فإذا وصلت حصيلته من الأسماك كمية مناسبة توجه بها الى سوق الميدان وفرشها على الأرض، فيتهافت عليها الزبائن لأنها طازجة وصيد صنارة - كما يطقلون عليها - ويرجع ظاظا لبيته فى نهاية اليوم وفى جيبه جنيهات قليلة.

ذات يوم وهو يجالس صديقه "حنوكة شكل" فى قهوة الكحكى، اقترح عليه شكل أن يعمل معه فى الميناء فقبل على الفور . كانا يتسللان فى الصباح الباكر من "باب واحد" أو "باب الوردات" للجمرك ، ويعسان فوق أرصفة الميناء وبين البواخر الراسية ، وفى مخازن الشحن والتفريغ ، حيث يكسران الصناديق الواردة من الخارج بأداة حديدية، ويسرقان المحتويات أيا كانت: قطع غيار أو كيماويات أواغذيه أو أجهزة كهربائية ، ثم يتسللان من الميناء الى الخارج بغنيمتهما كما دخلا ، ويبدآن فى تقسيم المسروقات.

ذات يوم ،وفى مقهى الكحكى ، عرّفه حنوكة شكل على "عطية البرنس" صاحب الكاديلاك المشهورة فى الحى كله ، فعرض عليه عرفه أن يشاركه مع شكل فى تهريب المخدرات من السفن الى خارج الميناء . نشط حسن ظاظا فى مهنته الجديدة، وقام بأكثر من عملية ، وتبدلت أحواله ، إذ ظهرت عليه علامات النعمة بشكل ملفت. اشتم رجال مباحث الميناء رائحة ظاظا ، وتتبعوا أخباره . نصبوا له كمينا وضبطوه متلبسا بأقتين من الحشيش وربع أقة من الكوكايين. أخيرا انتهى الأمر بظاظا خلف جدران سجن الحضرة بعد أن حكم عليه بالسجن المؤبد، وكان حنوكة شكل يحرص على زيارته من آن لآخر حاملا له الأكل و السجائر وما تيسر من الحشيش.

****

● **صايع بحـــــر (2):**

كانت ميناء الاسكندرية بمثابة مغارة على بابا ، أو منجم الذهب الخام للكثيريين من محترفى مهنة التخليص ، والفاسدين من رجال هيئة الميناء الذين يتلقون الرشاوى ، و تجار تموين السفن الذين يرشون ربابنة السفن الأجنبية حتى يقبلوا بضاعتهم الرديئة، والبمبوطية حرافيش الميناء.. وأخيراصعاليك البحر أو من يطلق عليهم "صياع البحر".

"شلضومه الاعور" هو نقيب صعاليك البحر بلا منازع. رجل فى الخمسينيات من عمره فقد احدى عينيه بطعنة مدية امتدت بطول خده حتى ذقنه، فى شجار مع مافيا الميناء، ودفعه آخر

من أعلى حاوية فوق الأرض، فأصابه بكسر مزدوج فى قدمه اليسرى، ترك له عاهة مستديمة. بعد أن أصيب بالعرج أصبح اسمه يتبدل بين شلضومه الاعور وشلضومه الاعرج. شلضومه ميت القلب جرئ الى حد الجنون ، قضى كل عمره فى الميناء وعرف خباياها وأسرارها ، ومن أين تؤكل الكتف من كل غنيمة.

لم يكتف شلضومه بسرقاته من داخل الميناء، ولا من تهريب الممنوعات والمخدرات، بل استعان بمجموعة من صيّع حارة البطاريه ، وهى النسخة الأخرى من حى الباطنية القاهرى فى تجارة المخدرات وتقع خلف مسجد ابن خلدون أمام باب 10 ، ومن الغريب أنها تحوى مسجد "ابو على"، أقدم مساجد الاسكندريه على الاطلاق. أسس شلضومه عصابته من الشباب والفتيات على السواء ، وكانت مهمتهم الرئيسيه التربص أمام أبواب الميناء حسب خطة موضوعة ، وعند خروج سيارات النقل من أبواب الميناء يقفز الشاب أو الفتاه فوق السيارة ، وباستخدام أداة صلبة تسمى الهوك وتشبه علامة الاستفهام بيد خشبية فى تسلق السيارات وفتح الصناديق المحملة على ظهرها ، ونهب محتوياتها والقفز من على ظهورها فى سرعة البرق. لم تسلم سيارة واحدة من سرقاتهم ، حتى وان كانت محملة بأجولة الغلال أو بالات القطن . لم تفلح جهود رجال الأمن فى تفكيك هذا التشكيل العصابى لأن شلضومه كان يغير خططه باستمرار. جنى شلضومه ثروة هائلة من نشاطه المشبوه: عقارات وعمارات، ثم تحول للعمل فى المقاولات ليغسل أمواله ، وصارمن راكبى المرسيدس ، كما سافر الى لبنان ليجرى جراحات تجميلية حتى يتناسب شكله مع نشاطه الجديد وليرتدى قناعا جديدا ملائما له.

● <u>شخرة اسكندرانى:</u>

الحمد لله أننى مازلت حيّا أرزق ، حتى يستطيع أى إنسان أن يواجهنى بما سأحكى وأروى لو ادعى أن به شيئا من الكذب او الاختلاق. حين أتحدث عن جلامبو أو خميس فلفل أو عبد الاله أو مصطفى درويش الشهير بسبرتو أو السيد طلبة ، فأنا أروى حياتهم على سبيل الحكى والتسلية من جهة ، ومن جهة أخرى فإنى أعشق فكرة تخليد ذكراهم ، مع إدراكى العميق أن الخلود لله وحده، لكن شدة حبى لهؤلاء الناس جعلتنى أريد امتدادا لأعمارهم فى المطلق طالما وضعت سيرهم بين ضفتى كتاب. كتاب يحكى عن صعاليك بحرى ويعرض لحيواتهم الغائمة الرائعة ، الجديرة بالتسجيل والتأمل والتفكر. لن أفرض رأيى أو وجهة نظرى على حياة أى منهم أو سلوكه تجاه موقف أو حدث مر بحياته. سأكتفى بالعرض ، وإن ألحت علىّ فكرة من بنات أفكارى حول أمر ما ، فسوف أعرضها فى حياد وبكل ذوق وأدب. بالطبع لن يمنعنى هذا أن أشخر أحيانا حين يستفزنى شخص أو موقف، فالشخرة السكندرية هى تعبير تلقائى عن الرفض والاعتراض السلميين ، ولا شىء أكثر من ذلك.

كما أننى أعطيت لنفسى الحرية أن أعبر عن شطحاتى الروحانية الخاصة من خلال صفحاتى المتناثرة عبر أحداث الرواية. قد يعتقد البعض أنه لا علاقة لهذه الشطحات بمضمون الرواية ، لكنى أرجوه أن يراجع نفسه ، فسوف يكتشف بعد قليل من التأمل أنها تضرب فى أعماقها بعمق وقوة.

هناك أمر شديد الأهمية لاينبغى إغفاله. ذلك أن سعيد سالم كاتب هذه الرواية قد جعلنى بطلا من أبطال روايته بناء على طلب صريح منى مسجل على صفحتى وصفحته بالفيس بوك بتاريخ 2017/3/27 أن أكون واحدا من صعاليك الرواية. إذ قلت له بالنص على صفحته بعد نشر فصل من روايته بجريدة القاهرة :

"أنت تفاجئنا بهذه الروائع يااستاذنا الجميل.. من يستطيع أن يجاريكم فى هذا الابداع الرائع .. الآن تمنيت أن أكون واحدا من هؤلاء الصعاليك فأنال شرف تواجدى بين كلماتك الخالده فهل أطمع فى كرمكم؟"..

وبعد أن استجاب لى نشرت تعقيبى التالى على حائطى بصفحة الفيس:

"كرمنى صاحب الفضل الرائع المتواضع الروائى المخضرم سعيد سالم بأن جعلنى واحدا من شخوص روايته الجديدة (صعاليك الأنفوشى) التى يعكف على كتابتها حاليا ، والتى نشر الجزء الاول منها بجريده القاهره بتاريخ28 مارس الحالى، وأنا هنا أبدى موافقتى التامة على كل مايكتبه الأستاذ الكبير عن شخصى المتواضع دون أدنى اعتراض ، وأعتبره وساماعلى صدرى..كل الشكر والامتنان لكاتبنا القدير ، أمد الله فى عمره".2017/3/29

لكنه تأدبا منه واحتراما لشخصى ، واستنادا الى دربته بالواقعية السحرية ، لم يعتبرنى مجرد صعلوك من صعاليك الأنفوشى كما تمنيت ، وإنما قرر أن يجعل منى "مايسترو" الرواية الذى يجمع شمل الأبطال جميعا ويقودهم فى سيمفونية متناغمة تعزف لحنا سكندريا بحريا انسانيا رائعا. فهذا الرجل ولوع بإنطاق الجماد فى كثير من رواياته ، إذ سبق أن جعل مقلب الزبالة يتكلم فى روايته"المقلب" ، وجعل الزمن – وهو أصعب من الجماد على الاستنطاق - يتكلم فى روايته"قصة حب مصرية". لذلك فهو – كما قال لى – يعتبر البحر هو المتكلم هنا فى هذه الرواية حين يتكلم مجذوب البحر ، فالاثنان قد امتزجا وصارا روحا واحدة وكيانا واحدا.

****

****

سماء الاسكندرية غائمة شاحبة حزينة، تتعانق سحبها الهائمة فى الفضاء مع صفحة البحر الساكنة ذات اللون الأزرق البللورى الساحر. راحت النوارس تحوم حول صخور الجزيرتين الصغيرة والكبيرة صائحة فى بهجة ، وقد بدأت نسمات الخريف الشجية تعلن عن وجودها المترع بالحزن النبيل ، وفاحت فى الجو رائحة حب متبادل بين السماء والسحب والبحر ونسمات الخريف. خفت حدة المصطافين كثيرا بعد دخول المدارس والجامعات، وبدا الشاطىء خاليا مهجورا الا من أصحاب المناشر الجالسين أمامها فى انتظار من يجىء من زبائن من أحياء الاسكندرية البعيدة عن بحرى للاصطياف.

منذ سنين عديدة ابتكر بعض الصيادين هذه المهنة حين كانت تمنعهم ظروفهم من النزول الى البحر للصيد، كأن تكون مراكبهم تحت الاصلاح، أو تكون شباكهم قد تمزقت فجلسوا يخيطونها ويجددون ما تلف منها. يتكون المنشر من أربعة أوتاد خشبية تغرز فى رمال الشاطىء على شكل مستطيل، ثم تربط فيها حبال طولية وعرضية يعلقون عليها"المايوهات" التى يستأجرها الغرباء لقاء قروش زهيدة، ثم يعيدونها الى صاحب المنشر بعد خروجهم من الماء وقبل مغادرة الشاطىء. يغيرون ملابسهم داخل صندوق خشبى مستطيل له باب أو شبه باب ، مكتوب عليه غرفة تغيير الملابس. كما تعلق على هذه الأوتاد عوامات مطاطية دائرية سوداء هى فى حقيقتها اطارات داخلية للسيارات وقد استهلكت ولم تعد صالحة لاستخدامها كأنبوب داخلى للإطار الخارجى . يحتوى المنشر أيضا على نصبة خشبية متواضعة يوضع بها موقد كيروسين وإبريق كبير لصنع الشاى، وبضعة أكواب مختلفة الأشكال والأحجام، وصناديق مختلفة بها زجاجات المياه الغازية. توضع كذلك مجموعة من"الشماسى" القديمة للحماية من الشمس ، وتستأجر هى الأخرى ومعها مقعدين أو ثلاثة- صنعت من نفايات خشب المراكب القديمة- لقاء مبالغ بسيطة.

وقد جرى العرف بين أصحاب المناشر ألا يتعدى أحد على منطقة الآخر، فالداخلون فى حيز منطقة كل منهم لايقوم على خدمتهم سوى صاحب المنشر بمفرده أحيانا وبمساعدة زوجته وأولاده أحيانا أخرى. يؤجرون لهم المايوهات والشماسى والمقاعد والعوامات ويحفظون لهم ودائعهم وملبوساتهم طيلة بقائهم بالشاطىء.

****

رفع الجميع رايات الاستسلام عدا المعلم"أبو جلامبو". أفرغ البوكسفورد محتوياته من عساكر المديرية على طول الشاطىء ابتداء من رأس التين وانتهاء بالسيالة ، مارا بالأنفوشى والحجارى..وبدأ الهجوم.

● <u>مصطفى درويش</u>:

عند بداية الشاطىء فى رأس التين، بالقرب من قصر الملك السابق فاروق الأول ملك مصر والسودان، يقبع العجوز الأسطورى مصطفى درويش – الملقب من صبية الحى بمصطفى سبرتو- فى عشته التى يقيم بها عن يسار منشره. العشة عبارة عن خيمة متهالكة صنعت من قطع مرقعة من قماش قلوع المراكب، يتوسطها وتد طويل يقيم صلبها.

مصطفى سبرتو هو معشوق النوارس. تحوم جماعاتها من حول موقعه وفوق رأسه وكتفيه محدثة ضجيجا مميزا بصرخاتها السعيدة وهو يلقى اليها بفتات الخبز على سطح الماء وفوق الصخور المتناثرة على الشاطىء أمام صومعته.

أطلق عليه الأولاد هذا اللقب لأنه فى المساء حين يخلو الشاطىء يخرج من صومعته. يجلس على الرصيف. باعة وجه قبلى الجائلين على عربات خشبية ذات عجلتين عليها رسوم شعبية بدائية، يمدونه بالترمس والحلبة. يظل يعب الكحول الأحمر الرخيص فى جوفه ، بينما يحكى لمن حوله فى ثقة واتزان عن مغامراته مع عساكر الانجليز أيام الاحتلال البريطانى، وكيف كانوا يخشون بأسه وبطشه، وكيف كان يرتزق من تهديدهم وسرقتهم. اضطر فى احدى المرات

أن يلوط بأحدهم تحت تهديد السلاح. لم يتنازل يومها عن حقه فى تقاضى ورقة صحيحة من فئة الجنيه مقابل المجهود الذى أجبر على بذله.

الويل كل الويل لمن يحاول معاكسته أو استفزازه من الصبية بذكر كلمة"سبرتو" ولو على سبيل المداعبة. تثيره هذه الكلمة بشدة فيسارع بكسر الزجاجة التى بيده على الفور ، سواء كانت زجاجة الكحول أو زجاجة المياه الغازية- فهو يمزجهما معا- ويظل يطارد غريمه فى سرعة فائقة حتى يلحق به ليصيبه ببقية الزجاجة فى أى مكان تطوله منه يده. أما اذا فشل فى مسعاه وسبقه الصبى فإنه يعود الى الرصيف يلعن شباب هذه الأيام"الخرع. عديم التربية". يظل يتحسس شعر ذقنه الطويل وهو يجتر عبارات الندم على سنواته الثمانين التى يمضى اليوم خواتيمها بلا رفيقة لحياته الجرداء المجدبة.

رغم كبر سنه فإنه نحيف نشيط كله حيوية وذكاء. نظرات عينيه شديدة الايحاء بالقسوة والطيبة فى آن واحد. كرمشات جلد وجهه ورقبته تشبه شباك صيد البرغوث الصغير ذات الفتحات الضيقة. يخترق بعينيه وخبرته أعماق محدثه على الفور فيدرك معدنه وغرضه ويتعامل معه حسب مقتضى الحال. كبار رجال الحى لايعترضون على سلوكه لأنه لايؤذى من لايسىء اليه ، بل إن بعضهم يتعاطفون معه ويتسامرون فى المساء ويمدونه بالسجائر والنقود.

اعتاد الولد الشقى سمير بن الحاج احمد أن يستبقى معه العوامة لفترة طويلة بعد انتهاء الوقت المحدد للاستئجار وهو نصف ساعة مقابل نصف قرش. يناديه مصطفى من موقعه على الشاطىء بلطف وهوادة مرة ومرتين وثلاث:

- يابنى هات العوامة

فلا يستجيب له سمير وانما يظل يحوم أمامه متراقصا فى الماء بالعوامة متعمدا عناده وإغاظته. يكرر مصطفى النداء:

- ياحبيبى هات العوامة

يواصل سمير السخرية من مصطفى وهو يقهقه ضاحكا، فهو يعلم أن مصطفى لو أراد استرداد العوامة لاضطر الى النزول فى الماء بملابسه. ثم يأتى الانذار الأخير:

- لو مارجعت العوامة حالا يابن الكلب حانزل اطلّع خاخان أمك

بالطبع يسارع سمير بإلقاء العوامة الى الشاطىء والهرب فى البحر لحد البراميل ليكون بعيدا عن متناول يد مصطفى.

لم أعرف حتى اليوم معنى كلمة خاخان ، لكنى سأحاول . المهم أنه يقسم بأغلظ الإيمان ألا يؤجر لسمير عوامة مرة أخرى ، لكنه فى كل مرة ينسى أو يتناسى ويؤجر له لتتكرر نفس القصة.

فى مواسم أخرى معينة غير مرتبطة بشىء سوى مزاج مصطفى ، كان يؤجر للصبية وسائل ركوب متنوعة يلهون بها فى الأزقة مثل العجل والكرنكات والمستعجلات ، وكلها وسائل حركة بدائية يتهافت الصبية على استئجارها لقاء قروش قليلة.

أتأمل تنقله الدائم بين تلك المهن الغريبة المختلفة وأرقبه بالمزيد من الفضول والتعجب والإعجاب بقدرته الفائقة على التحايل على الحياة فى هذا السن المتقدم. يزداد تعاطفى معه كما تزداد شفقتى عليه مع دخول الخريف. أراه ينتظر قبيل الفجر أمام البيوت المواجهة لشاطىء البحر ليستقبل السمان المهاجر من الشمال منهكا مرهقا من طول السفر وقد ضعفت عنده حاسة الابصار فيصطدم بالبيوت والجدران ويتهاوى الى الأرض حيث يلتقطه مصطفى بسرعة ومهارة فائقتين. يلقى بنفسه بقوة شاب فوق السمان الدائخ كما يلقى حارس مرمى كرة القدم بنفسه على الأرض ليلتقط الكرة. لايعبأ حين يصاب رأسه لو اصطدم بطوبة أو جدار فيسيل منه الدم. يتولى جمع السمان وربطه بحبل رفيع من الرجلين ويعود به الى عشته.

يقوم بتنظيفه كست بيت متدربة. لايحرم نفسه من مذاقه فيشوى لنفسه سمانتين أو ثلاث على الخشب ، ويبيع الباقى لعابرى طريق الشاطىء.

أحيانا يعمل فى جدل حبال السفن على رصيف طابية قايتباى الطويل باستخدام ماكينة خاصة ذات تروس لهذا الغرض. يسمح طول الرصيف بتغليظ الحبال للدرجة التى تمكنها من سحب السفن الكبيرة، ولا بأس أن يستريح قليلا عند الغروب فيشعل سيجارة حشيش ويضطجع على طريقته متأملا لحظة الغروب الساحرة باهتمام شديد حين يسقط قرص الشمس وسط الأمواج.

فى السابعة من عمرى اصطدت يوما سمكتين كبيرتين أثارتا دهشة الصيادين من حولى. لم أكن أعرف أننى حين أكبر سوف أخوض تجربتين فى الحب وأنصهر فى أتونهما الملتهب ، حتى يتبين لى فى النهاية أن كل شىء الى زوال ان لم يلحق به التغيير فى دنيا الأغيار. توجهت بالسمكتين الى درويش الصعلكة وأحد أهم أعلام المنطقة. كان كعادته يشرب صوت الموج والريح والكحول الأحمر ويأكل الخيار والترمس. أعطيتهما له ليشويهما ويأكلهما. على وجهه كانت تتجسد آيات غضب أسطورى من الوجود والعدم معا فى ابتسامة غامضة مستقرة لاتفارق وجهه. كل الصبية يخافونه ولا يجرؤون على الاقتراب منه فيما عداى. كنت أستشعر فيه معنى كبيرا غامضا وإن كنت لا أدركه. قال لى بحنان أبوى:

- أيوووووه ..عفارم عليك ياولد. أنا ميت من الجوع

فى المساء أعطتنى أمى بعض الملابس القديمة. قدمتها له حتى يستبدلها بملابسه الممزقة وسألته فى براءة:

- لماذا لاتحلق ذقنك ياعم مصطفى؟

أجابنى بهدوء وبنفس البراءة:

- ولماذا أحلقها ؟!

وبينما نجلس سويا قال لى كلاما كثيرا غير مترابط عن الدنيا والآخرة ، أكاد أذكره جيدا رغم أننى لم أفهمه فى حينه. قال ان معظم الناس مؤذيين، وإن الانسان مخلوق شرير بطبعه. صمت قليلا ثم قال:

- أنا لا أريد شيئا من أحد، ولا أريد أن أعرف أحدا . أنا غنى عن البشر بالله والبحر رغم صداقتى للملك فاروق الذى لايبعد قصره كثيرا عن موقع خيمتى ومنشرى.

سألته فى دهشة:

- وما شأنك بالملك فاروق وما شأنه بك؟

أجاب فى ثقة:

- ألا تعرف أنه صديقى ؟
- نعم لا أعرف
- لقد مرّ بى أكثر من مرة وهو يتنزه بقاربه البخارى وحيانى بحرارة
- معقول؟!.. الملك فاروق نفسه؟!
- نعم ، وآخر مرة بعث الى بطبق كبير ملىء باللحم المشوى وزجاجتين من النبيذ المستورد. أنا مازلت محتفظا بالطبق. تحب تشوفه؟
- لا ياعم مصطفى أنا أصدقك بالطبع
- هذا الرجل يحب مصر
- لابد أنك تحبه كثيرا
- قلت لك إننى لا أحب أحدا غير الله وبحره الواسع
- ومصر..ألا تحبها؟
- لو كانت أحبتنى لأحببتها

كنت معجبا بغرابته وتناقضاته، خاصة حين أسمعه يرتل القرآن بصوت أجش ، لكنه خاشع ومنغم بلا نشاز..أو يغنى تواشيح قديمة متغزلا فى الحبيبة أحيانا ومادحا للنبى "محمد" أحيانا أخرى.

لم يكن الهجوم متوقعا. فوجىء مصطفى بالعسكر يهدمون مملكته ويحيلونها فى لمح البصر الى حطام حقير مبعثر. لم تسعفه قريحته الا بكلمات استعطاف كاذبة وجهها الى الضابط:

- حرام عليك يابيه. حرام عليكم ياناس. عاوزين نربى عيالنا

تاريخ مصطفى الطويل مع الحياة ماهو الا سلسلة متعاقبة من الهزائم لم تتخللها انتصارات تذكر، سواء على الناس أو الزمن أو الأقدار. كان يستقبل هزائمه بنفس الابتسامة الساخرة الهازئة الغامضة ولسان حاله يقول لكل شيء فى الحياة: طــظ!!

لم يكن يوما بليدا أو كسولا. هو كتلة من النشاط.كافح وسعى وتنقل من عمل الى عمل. لم يستطع الاستقرار فى عمل واحد أو الركون الى حرفة بعينها. عم مصطفى سباك ونقاش ونجار ، وقبل ذلك كله فهو صياد ماهر، غير أنه بعد كل هذا العمر لايمتلك قاربا ، اذ يكتفى بالصيد بالبوصة أحيانا أو بشبكته الصغيرة البالية أحيانا أخرى. طول عمره ينفق كل ما يكسبه أولا بأول وفى أقصر وقت ممكن.

لم يعبأ الضابط بتوسلاته وقد أيقن بفطرته انه كاذب وانه ليس لديه عيال يخشى على تربيتهم. قال له:

- ولا كلمة. إمش من قدامى أحسن لك بدلا من أن أبهدلك. أنا سبق وحذرتك

شعر مصطفى بالإذلال. تغاضى عن مشاعره ومصالحه مخاطبا الضابط بلهجة شديدة الغضب:

- يابنى ده خوفو نفسه كان يقابل الشعب فى مكتبه ويستمع الى شكواه.تقوم انت ياملازم تعاملنى بهذا الشكل؟
- وانت ايش عرفك بخوفو يابو جهل؟
- كفاية اهانة ياباشا وخل بالك سأشتكيك الى جلالة الملك
- خوفو؟!!!
- لا ياحبيبى..فاروق!
- صح النوم ياعم سبرتو. الملك مشى من زمان. ألم تسمع عن حاجة اسمها الثورة؟

تجاهله مصطفى فجأة. تركه يتكلم كما لو كان يخاطب شخصا غيره. بادله الاحتقار باحتقار أشد. ترك حطام منشره وتوجه الى صديقه وجاره المعلم أبو جبل الشهير ب"ابو جلامبو" صاحب منشر الأنفوشى.

راح يشكو ماحدث لرفيقه وهو يشخر شخراته الاسكندرانية المتعاقبة بلا توقف بين كل جملة وجملة. لم يكن يدرى ماذا سيفعل"ابو جلامبو" حين تداهمه حملة الإزالة التى تنفذها البلدية بمعاونة الشرطة ويقودها ذلك الضابط المغرور. لكنه كان واثقا أنه وولديه حمدى وحسن سوف يقاومون هدم منشرهم قدر استطاعتهم.

لم ينكر مصطفى أن هذا الضابط قد سبق أن تعامل معه بالحسنى قبل حملة الإزالة بعدة أيام حين أشفق على حاله فنبهه الى ضرورة التصرف بممتلكاته الأساسية كالشماسى والكراسى والعوامات والأكواب والمايوهات وصناديق المياه الغازية قبل أن تضيع عليه حين تلقى فى عربة الإزالة التى سوف تأتى بعد عدة أيام ، فما يلقى فى هذه العربة لايعود أبدا. لكن مصطفى لم يعبأ بإنذاره. قال له بثقة زادت عن الحد:

- لا أحد يقدر على انتزاع مملكتى منى. أنا هنا فى حماية الملك. يعيش فاروق

كان مصطفى يتحدث بنبرة تفيض بالندم المخفى وراء كبرياء زائف ، فقد تجاهله الضابط وهدم منشره فى دقائق . لم يكن أمامه الا أن يستسلم لقرار "الحكومة" الصريح بتطهير الشاطىء من المناشر والأكشاك والعشش لأسباب سياحية وأخلاقية.

ويخلى موقع مصطفى درويش، ويطوى تاريخه صفحة من صفحات التمرد على البؤس والضياع، حين يفرغ مصطفى كوبا كاملا من مشروبه الرخيص فى جوفه دفعة واحدة ثم يصيح فى ثقة وعناد:

- ورحمة أمى لأرجع الى هنا غصبا عن الحكومة. بكرة تشوف ياحضرة الضابط

يجلس "سبرتو"على رمال الشاطىء وأمامه بقايا حطام منشره ونصبته وبعض من بقايا عصى شماسيه وأشياء أخرى لاتنفع ولا تضر. لم يتوسل الى عمال وجنود الازالة أن يتركوا له بعض أشيائه مثلما يفعل كل الباعة الجوالين عند تعرضهم لمثل ذلك الموقف ، حتى ينقذوا ما

يمكن إنقاذه من ممتلكاتهم المهددة. تركهم يهدمون مملكته وقد استبد به كبرياء لايعرف مصدره. قرر ألا يغادر موقعه ، فليس له بيت غير خيمته التى ضاعت. لم يبق له من أمل فى الحياة إلا أن ينتظر مرور الملك ب "اللانش" من أمامه ليشكو له الحكومة التى دمرت وطنه. هو يعلم أنه مالم يمر الملك بالصدفة أمام منشره فلن يستطيع مقابلته فى القصر الذى لايبعد كثيرا عن موقعه، لكن من عاشر المستحيلات أن تخطو قدماه داخله ليلتقى بصديقه الطيب الحنون الذى لايكف عن الضحك بأعلى صوت حين يلقاه ويحاوره.

يفيق مصطفى من لطشة الكحول حين يؤكد له "أبو جلامبو" و"السيد طلبة"النجار أن فاروق قد طرد من مصر بعد قيام ثورة يولية التى شهد بعينيه دباباتها ومصفحاتها وهى متجهة من أمامه الى القصر يوم26 يوليه. كما شاهد مجموعة الشباب من الضباط الذين قاموا بالثورة وهم فى عرباتهم الجيب . كانت النساء تتغزل فى جمالهم، خاصة حسين الشافعى وكمال الدين حسين. اذن فلن تكون هناك معجزة، ولن يستطيع الانتصار على الحكومة مهما فعل ، والعوض على الله فى العشة والمنشر والنصبة.

لم يبق أمامه الا أن يجتر لقاءه الأخير بالملك ويترحم على أيامه. كان قد روى لى يوما تفاصيل هذا اللقاء وهو فى غيبوبة السكر قبل رحيل فاروق بأشهر قليلة:

"فاروق ولد جدع.يحب شعبه. قعد جانبى على هذه الطوبة. قال لى بعضمة لسانه ان هناك بعض الخونة يحملونه مسئولية حريق القاهرة ليتخلص من وزارة النحاس باشا بعد الغائه المعاهدة. أقسم لى ان الاخوان المسلمين كان لهم الدور الأكبر من بين كل من ساهموا فى اشعال هذه الحرائق. طول عمرهم دمويين مجرمين. وبعد دقيقة من الصمت الحزين قال لى:

- **يا مصطفى أنا أشعر أن نهايتى قد اقتربت**
- **كيف يامولانا؟**
- **الكل ضدى ، والشعب الذى أحببته لايقف معى رغم أننى تبرعت بأموالى الخاصة للفقراء والجمعيات الخيرية وأنشأت الكلية الجوية ومصرت قيادات الجيش وألغيت الامتيازات الأجنبية وأنشأت خزان جبل الأولياء فى السودان، كما انشأت وزارة خاصة لصحة الشعب وكذلك جامعة فاروق الأول ووزارة الشئون الاجتماعية وقناطر الدلتا وأسيوط ووزارة التموين التى كان أول وزير لها هو صليب باشا سامى.**
- **معك حق يا مولانا. شعبنا فعلا قليل الأصل**
- **أنا الذى انشأت مطعم فاروق الخيرى لصرف وجبات مجانية للفقراء من الخاصة الملكية ، وأنا الذى أنشأ نقابة المهن التمثيلية والمعهد العالى للفنون المسرحية ورفعت أجور الموظفين وأصدرت قانون استقلال القضاء وأسست الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وأنشأت مجلس الدولة ومصلحة الشهر العقارى والكلية البحرية ومشروع كهربة خزان أسوان ومصلحة الأرصاد الجوية.**
- **كل هذا يامولانا لم يطمر فينا. نحن نستحق الحرق بجاز وسخ**
- **ولا يهمك يادرش. أنا نازل هنا**
- **معقول يا مولانا؟!..أين لباس البحر؟**
- **سأنزل بملابسى يامغفل وأعود باللانش الى القصر..وسأبعث اليك بلحم وفراخ ونبيذ**
- **ربنا يخليك يامولانا..وهل أعيد الأطباق أم لست بحاجة اليهم؟**

وينفجر الملك فى الضحك وهو يغوص فى الماء بكامل ملابسه مقهقها:

- **لايا مصطفى خذهم..حلال عليك**

****

●<u>خميـــس فلفل</u>:

ذات يوم أسود كئيب صاح "خميس فلفل" فى صبية زاوية خطاب بنبرة ساخرة تفيض بالحزن والمرارة ، وقد أذهلته الصدمة:

- نزّل الأعور يابنى انت وهو..ممكن نلاقيه قدامنا هنا بعد كم ساعة!!

نزع المطواة من مؤخرة الدمية التى تمثل موشى ديان. سحبها من الحبل الذى علقه بيديه فى عرض شارع زاوية خطاب برأس التين منذ بداية الحرب ، حين صاح أحمد سعيد مذيع محطة صوت العرب معلنا أننا "أسقطنا مائة طائرة اسرائيلية حتى الآن"!!..ألقى بها على الأرض فى حسرة وغضب. داسها بقدميه فى غل مكتوم. بصق عليها بشدة، ثم عاد بجبروته المنسحق الى منشره وهو يجهش بالبكاء دون سيطرة على نفسه.

فى بداية المعركة كان يوزع الشربات بالمجان على كل رواد "قهوة عرفة" وقهوة "أنّح" المواجهتين لشاطىء رأس التين مباشرة حيث يرقد الجنود برشاشاتهم وبنادقهم على الرمال فى وضع الاستعداد لمواجهة أى اسقاط مظلى محتمل للعدو. يقدم السجائر من علبته للجميع. يدخن بلا وعى والسعادة تغمره وتطغى على أحاسيسه وأفعاله.."ساعات قليلة ونصل الى تل أبيب"!!.. يصيح بجنون وعصبية:

- الله اكبر. ربنا ينصرك ويحميك ويحرسك ياجمال يا كايدهم

وإذا بجمال عبد الناصر يخيب ظنه فيلقى خطاب النكسة الشهير الذى ظهر فيه على شاشة التلفزيون كالفأر المسلوخ وقد مزقت الهزيمة روحه وأطفأت نور عينيه البراق وأدمت نبرات صوته الغارق فى الحزن.

عم الصياح والصراخ الأزقة والحوارى والشوارع ، وسمع صوت البكاء والنشيج فى البيوت والشوارع وعلى المقاهى وأمام الدكاكين والمقاهى. شعب بأكمله يسيطر عليه الذهول ولا يريد أن يصدق ما حدث له!.

يعود خميس الى تماسكه. يقول بصوت هادىء مترع بمرارة الهزيمة غير المنتظرة:

- يا جماعة الرجل انكسر..لازم أن نقف معه

يعمل خميس فلفل شيالا بميناء الاسكندرية الغربى شتاء. فى الصيف يعود الى منشره المحاط برايات عديدة تمثل بعضها دولا مختلفة ، والبعض الآخر بلا هوية. يقول عنه حساده إنه"صايع بحر". لايعنيه ذلك فى شىء فهو يثق فى أنه رجل محترم. يكفيه أنه يجالس شباب رأس التين والأنفوشى المثقفين ويتبادل معهم الحديث فى السياسة أثناء لعب الطاولة أمام النصبة، متباهيا بأمجاده العسكرية فى حرب 1956، معتزا بوطنيته فى تعصب عنيف، متفاخرا بولائه المطلق لجمال عبد الناصر. يصرخ مهللا بفرحة هستيرية عندما يمر موكبه بشارع الكورنيش ويظل يجرى خلف عربته المكشوفة حتى ينقطع نفسه. عندما نجح فى مصافحته يوما لفّ على أبناء الحى بأكملهم ليخبرهم بهذا النبأ.لايطيق سماع كلمة ضده من أى مخلوق. مرة انتقده يونانى من جيراننا المقيمين برأس التين لسبب لست أذكره. أمسك برقبته وكاد يخنقه لولا أن خلصه منه رواد المقهى. قال له بعد أن أبعدوه عنه:

- نحن نشتمه على كيفنا لكن أى حد تانى لا..

تقوم زوجته القصيرة السوداء العجفاء على خدمة الزبائن بجدية ونشاط ، بينما يكتفى هو بإصدار تعليماته وتو جيهاته اليها. يقول إنه يحبها حبا شديدا بالرغم من دمامتها ، وهو صاحب الوجه الجميل والجسم الفتى الذى طالما قاوم فتنة النساء وإغرائهن تمسكا منه بزوجته اللاتى يحسدنها عليه بشدة. يقسم بأغلظ الايمان أن هذه المرأة لايمكن أن تخونه ، وتلك عنده ذروة السعادة.

بوغت خميس بالهجوم هو الآخر. سقط قلبه بين جنبيه وقد هاله أن يرى شبح التشرد يخيم على حياته طيلة الأشهر الستة التى يقضيها بعيدا عن الميناء فى كل عام. كان قد عاهد نفسه أمام الله ألا يقترف معصية فى سبيل لقمة العيش مهما جاع. تمالك أعصابه كعادته فى المواقف الحرجة. توجه فى ثبات الى الضابط تاركا الجنود يقومون بإزالة المنشر كما لو كان الأمر لايعنيه فى شىء.

- ليه ياباشا ؟ هل قطع العيش يرضى جمال عبد الناصر؟
- أسكت ياخميس

- عض قلبى ولا تعض رغيفى يابرنس..حرام عليكم
- الأوامر شىء والحلال والحرام شىء ثان يامعلم

ثم بنبرة تهديدية ساخطة:

- طيب. ابقوا حاسبوا على الشقق والمحلات من هنا للشتاء ان شاء الله
- قصدك ايه ياخميس؟
- سعادتك فاهم طبعا
- يعنى ناوى ترجع للسرقة؟
- من حقنا نعيش زى بقية الخلق. هه!!

قبل انقطاع الحوار كان الموقع الثانى قد تم اخلاؤه من كل شىء الا خميس فلفل وزوجته وأمل باهت فى الغد المجهول. لم ينس خميس أن يطلب فى هدوء من الضابط السماح له بالاحتفاظ بالراية الخضراء ذات الهلال والنجوم التى تمثل علم مصر القديم. سأله الضابط فى دهشة:

- تعمل بها ايه؟
- أصلها عزيزة علىّ جدا
- لكنها تغيرت من زمان
- أعرف لكن "ماعليهش" سيبها لى

مط الضابط شفتيه وترك له الراية فى لامبالاة. بهدوء وثبات اتجه خميس الى أرض منشره التى باتت خالية من رأسماله. غرس علم مصر القديم فى منتصفها بعنف. أصدر أمرا حاسما لزوجته:

- حضّرى لنا الشكشوكة ياوليّه

****

●<u>طيـــــــــطه:</u>

أما منشر "طيطه" بالحجارى فقد سقط موقعه دون أدنى مقاومة من صاحبه أو أعوانه ، وذلك لأسباب غامضة لم أتوصل اليها حتى الآن.

بعد انتهاء الحملة قال طيطة لأحد أصدقائه:

- أيووووه ياعالم على الظلم . ربنا على المفترى
- لكنك استسلمت دون مقاومة يامعلم..أين الشهامة والجدعنة؟
- اعمل معروفا اسكت.لو قاومت الحكومة سيضربونى ويهينونى فأحتقر نفسى فوق احتقار الحكومة لى ولأمثالى. هذه ليست بلدنا.

****

● <u>جـــــــــلامبو:</u>

هنا منشر المعلم أبو جبل الشهير ب"أبو جلامبو". هنا السطوة والطبيعة الفطرية مجتمعتان معا فى تآلف مع رائحة البحر وندى الصباح. مع أسماك المرمار والشرغوش وأخشاب الفلايك وشباك الصيادين وأصداف الجندوفلى وأم الخلول. هنا الإصرار العنيد والمقاومة المستميتة للدفاع عن الأرض والحفاظ على مصدر الرزق وكفاح العمر وسنوات التحايل الانتحارى على العيش.

- لن يهدم المنشر الا على جثتى
- لاداعى للمشاغبة يا"ابوجلامبو" ولا فائدة من المقاومة

كعملاق يقف. منتصب القامة راسخ البنيان. قبضة يده تهدد وتتوعد من يجسر على الاقتراب من أرضه. قيل له من قبل إن الزمن قد تغير وإن الحكومة قد كبرت. رغم ذلك ازداد اصرارا على موقفه ، وبدأت المعركة. أبو جلامبو بمفرده يواجه مجموعة من الجنود المسلحين بالعصى الغليظة. أدواته القتالية هى عصى الشماسى وأكواب الشاى وأوتاد النصبة وقطع الأخشاب و الطوب المتناثرة حول موقعه. انضم اليه صبية المناشر المجاورة لمساندته اعجابا منهم ب"جدعنته" وتقديرا لجسارته. انهالوا على الجنود قذفا بالحجارة والزلط. يقذفون

ويتراجعون هاربين الى الخلف ثم يعاودون الكرّة من جديد، وأبو جلامبو يضرب ويتلقى الضربات ولا يستسلم. انهالت عليه العصى الغليظة واللكمات العنيفة. سالت الدماء على وجهه حتى غطت جزءا كبيرا منه. يصيح بصوت عنيد:

- أنا قتيلكم يا كلاب ..يا أنا يا انتم

اتسع نطاق المعركة بتدخل جمهور السيالة. هرع صيادو الحلقة تاركين مقهى "حميدو" فتوة السيالة الراحل – حيث يتجمعون دوما - متجهين الى الشاطىء لمساندة زميلهم الصامد. استنجد الضابط بقوة اضافية. قال أحد المتفرجين:

- الكثرة تغلب الشجاعة

وقال آخر فى ذهول:

- ياه!!..صحيح الحكومة كبرت ياجدعان

تلقيت ضربة عصا قوية على رأسى من أحد الجنود. سقطت على الأرض. غبت لحظات عن الوعى ثم عدت لمساندة أبى قدر استطاعتى بعد أن تمالكت نفسى. بعد مضى وقت ليس بالقليل حسمت المعركة لصالح الحكومة ، وشهد سكان السيالة والأنفوشى ورأس التين منظرا فريدا لم يشهدوا مثيلا له من قبل بطول أعمارهم:

المنشر مهدم وقد تحول الى حطام. قذفوا بمعظم محتوياته داخل العربة"البوكسفورد".. أبو جلامبو متعلق بكلتى يديه بمؤخرة العربة وجسده لصيق الأرض مسحولا يمسح الطريق بسرعة العربة. بعد بضع مئات من المتار تتخاذل قبضتاه فيسقط وسط الطريق مضرجا بدمائه. يمسك به جندى ليسلمه الى قسم البوليس. الأطفال يطاردون العربة بالشتائم والسباب والحجارة. مصطفى درويش والسيد طلبه ينتزعون"ابوجلامبو" من قبضة الجندى الذى يخاف منهما فيقفز عائدا الى العربة. يحملانه الى موقعه. يرفض استدعاء الاسعاف. السيد طلبة يجفف الجروح المتناثرة على وجه أبى وجسده بكمية كبيرة من البن لست أدرى من أين جاء بها.

راح مصطفى درويش والسيد طلبة يواسيانه قدر استطاعتهما وهما يشاركانه الشعور بالقهر والعجز عن مقاومة الحكومة الغاشمة ، بينما كان كل منهما يفكر فى وسيلته الخاصة للانتقام واستعادة الكرامة المفقودة.

- ولا يهمك يابو حمدى ربك كبير
- ربنا على الظالم والمفترى..والضابط ده وحياة أمه ما أناعاتقه
- أنا عارف بيته

جلست أمامه فى صمت وخشوع. أذكر جيدا أننى لم أبك رغم كل ما رأيت من هول. كان وجهى جامدا. قلت له بكل ما أوتيت من قدرة على رفع معنوياته:

- هون عليك يابا..بكرة نعمل منشرا غيره..ولا يهمك
- خلاص يابنى. لافائدة. لامفر من النزول الى البحر

استمعت الى قراره النهائى الحاسم وقلبى يرتجف حزنا على نظرات اليأس التى أراها فى عينيه لأول مرة وقد لازمته منذ طفولتى كظله.

استسلم المعلم إذن!!. أصبح شأنه كشأن مصطفى سبرتو وخميس فلفل وطيطة وبقية المستسلمين. لم أصدق أن يستسلم أبى بهذه البساطة، فهو يعنى مايقول بشأن العودة الى مركب الصيد وليالى البحر العاصفة القاسية ، رغم أن الروماتيزم قد أكل عظامه. معظم الآخرين سيعودون بالضرورة الى نهب المساكن والمحلات وإثارة المعارك والمشاكل مع طوب الأرض.

لم يفارق ذاكرتى مشهد أبى وهو متشبث بجسده وروحه فى مؤخرة العربة والدماء تنزف منه..ولما كبرت قررت أن أبحث بين كتب الأديان والفلسفة والالحاد عن الوسيلة التى تكفل لكل انسان ألا يتأذى بصره وتتحطم انسانيته وتسحق كرامته بالتعرض لمثل ذلك المشهد البغيض.

درست سائر الديانات المنزلة وغير المنزلة وقرأت آراء أساطين الفكر والمعرفة علنى أهتدى يوما الى هذه الوسيلة.
كنت فى ذلك الحين فى الثامنة من عمرى وكان شقيقى الدكتور حسن يكبرنى بحوالى عشرة أعوام.
اللحظة عششت بكامل أحداثها فى ذهنى ولم تبرحه أبدا ، وقد امتزج فيها الألم بالدم، بينما كان صديقى أحمد ابن السيد طلبة النجار يحاول إفاقتى من الإغماء برش الماء على وجهى.
استطاع حسن أن يجد لنفسه طريقا تمكن من خلاله أن يمحو من ذاكرته مشهد دماء أبيه السائلة على الطريق وهو معلق بالعربة متشبث بنهايتها. التحق بجماعة الاخوان المسلمين. قوة يستطيع أن يستند اليها. هو الآن فى السجن. طريقى لايمكن أن يكون طريقه. اطلعت على كثير من مذكراته التى لم تصل اليها أيدى رجال المباحث الذين هاجموا البيت بغوغائية كريهة وكأنهم يريدون أن تكتمل فى ذهنى الصورة المهزوزة التى التقطتها للوطن. لم تنفذ كلمات حسن وأفكاره الى قلبى رغم تحديدها القاطع. رفضت أن أحمل مشعله، فأنا لا أحب هذه الجماعة التى تستند الى الدين فى استخدام العنف لتحقيق أهدافها الخفية وهى السيطرة على حكم البلاد وإشاعة الظلام و الفكر السلفى المتخلف بين أرجائها.
سوف أحمل مشعل أبى لكن لامفر من البحث عن طريق آخر ، واللعنة على عربة حكومية مسرعة تجر فى أثرها حطام انسان دام ينتظره جندى ليسوقه الى مقر الشرطة.
بينما كنت أضع الثلج المبشور على رأس أبى وجروحه ، كنت أحكى له عن"شاخورة" الذى ضبط وهو يسرق شقة مدير الأمن فى حى الميناء الشرقى الذى يعتبر من أحياء بحرى الراقية، وعن البضاعة التى سرقت من الجمرك وعثرت عليها الشرطة فى موقع الريس عبد الاله مخفاة بين أخشاب المراكب التى يجرى تجهيزها لنزول البحر.فوجئت بعم عيد يجىء مرتديا مريلته البيضاء التى يقف بها أمام عربته، وقد أخفى شيئا فى قبضته ، دسه فى يد أبى بحرص حتى لا أراه. بضعة جنيهات – لاشك - كمساهمة فى مواجهة الأزمة يقدمها هذا العجوز الفقير الذى تجاوز التسعين عاما. عم عيد مشهور بين صبيان زاوية خطاب ومدرسة أبى شوشة الأولية لتحفيظ القرآن ومدرسة تراندیل هانم مظلوم بساندوتشات الحلبة التى كان يبيعها لهم. دائما يتحرك فمه أثناء إعداد رغيف الحلبة ، كما لو كان يجتر شيئا بينما يخلو فمه من الطعام، مرددا"عيش و حلبة بتعريفة" بنغمة يحفظها الصبية جيدا. لكنه يحذف الياء من نطقه بحيث جعلنى أعتقد أن هناك شيئا اسمه"عشو"حلبة.لو كان بإمكانى أن أطلق لعواطفى العنان بلا حساب لظللت أبكى طوال اليوم على مشهد تلاقى القبضتين فى حنو انسانى نادر. مات فى زاوية بكير فى نفس الليلة بعد صلاة العشاء مباشرة ، وماتت معه أشياء جميلة فى حياة كل أبناء رأس التين.

****

أحمد طلبة

****

القاهرة فى--/-/1975 شركة حسين فتحى للصناعات الكيماوية
السيد الكيمائى/ احمد السيد طلبة
شارع الموازينى- بوابة مورو- رقم 8
حى الجمرك- بحرى- الاسكندرية

بعد التحية...

بناء على الطلب المقدم منكم لشغل وظيفة كيمائى الانتاج بأحد مصانعنا فى شبرا أو الاسكندرية، نرجو التكرم بالحضور الى مقر الادارة العامة للشركة فى الساعة الواحدة من بعد ظهر السبت الموافق --/-/1975 بالاسكندرية.

هذا ونرجو عدم التخلف ، مع الإحاطة بأن هذا الخطاب لايعتبر ارتباطا من جانبنا تجاهكم.
وتقبلوا تحياتنا.

المدير العام
حسين فتحى

****

الخطاب وأنا ، وأشياء كثيرة أخرى. المواجهة مكشوفة: أعمل عند فرد أم مع جماعة؟.."عند" أم "مع"؟.."مع الاحاطة بأن هذا الخطاب لايعتبر ارتباطا من جانبنا تجاهكم"!!..
لم تختتم وزارة الصناعة خطاب تعيينى بمثل هذه العبارة اللزجة ، وإنما ختمتها بتهنئة بيروقراطية ،لكنها رقيقة.

الحق أننى ظللت أنتظر هذا الخطاب لعامين كاملين بلا عمل، حتى أننى كرهت لحظة وصوله المرتقبة، لكنه كان موجها الى من الوزارة، والوزارة يرأسها رجل ينفذ ارادة الناس الذين أقعدوه الى مكتبه ليعمل فى خدمتهم، ثم يتقاضى منهم راتبه.

وماذا لو لم يكن الخطاب ارتباطا من جانبك يا صاحب السعادة مدير الشركة وصاحبها؟..لأجل هذه الكلمات المسوسة لن ترى وجهى، رغم أن هذا لايهمك فى شىء. لن تقوم قيامتى ولن تشرق الشمس من المغرب. أعمل "مع" وليس"عند". لكم أنا آسف أن جعلت من نفسى واحدا من مئات المتهافتين الذين بعثوا اليك آملين أن يحظوا بالقبول لديك والمثول بين يديك.

- **كم تتقاضى من شركتك الحكومية؟**
- **أربعون جنيها**
- **ستحصل عندى على أكثر من مائة!**

"باسم الأمـــة"..

وأتقاضى فوق المائة ، ثم تزيدهم الى مائتين وثلاثمائة و..و.. وتبدأ جغرافية نفسى فى التحول السرطانى غير المرئى. أبيعك أياها بالجنيهات.تمتلىء معدتك الممتلئة. تنتفخ بطنك المنتفخة. توالى تجديد عرباتك الخاصة. يفرح أبى وتفرح أمى. تزدان شقيقتى بملابس جديدة زاهية، وأستلهم الثقة والشجاعة لممارسة كسرة من فتات حياتك المتخمة بالخير ولكن فى صورة منشرخة مقعرة. أنت رجل أنيق. ثقافتك أوروبية ذات طابع أرستقراطى خاص.ذكى. ماكر. أساليبك فى التعامل راقية مهذبة. أنت ناعم جذاب، تفوح منك رائحة عطرة. تزداد سحرا فى المساء ومن حولك الموسيقا والنساء. لماذا هذا الفارق الكبير؟...

أعمل عندك أم أعمل معهم؟..طيبون حسنو النية. لايميزون سوى الأبيض والأسود. لايعرفون الرمادية التى تسود قوانين التعامل بين البشر. جلودهم خشنة لونها أسمر برونزى جذاب. عروقهم نافرة بارزة نبضاتها. فى المساء يهجعون بعد أن يمارسوا سلواهم المجانية الوحيدة مع زوجاتهم. الجنس فقط هو أرخص تكلفة لتمضية لياليهم الطويلة. يمتزج عرق النهار بعرق الليل فيستحمون بالكوز المعدنى العتيق. يأكلون الطعمية والمشّ والبصل بشراهة

وشهية فائقتين. يتجشئون دون أن يتحرجوا من إطلاق الصوت بلا تحفظ ، متبوعة بعبارات الحمد والشكر لله على النعمة وطلب حفظها من الزوال. أقصى ما يمكن أن يصل اليه طموح المتعلمين منهم فى أحلام يقظتهم هو مكتب فاخر عليه أكثر من تليفون، ومجموعة من الموظفين والموظفات تعمل تحت إمرتهم وتخضع لنزعاتهم ونوازعهم، ثم يتقاضون من المجموعة التى- شاءوا أو أبوا – هم منها ، راتبا شهريا عاليا يسمح بفائض يكفى للشعور ببحبوحة العيش والتحليق فى عالم المتعة بلا حدود . فى المساء لايألون جهدا فى تقليدك. لا أقول كلهم، فمنهم عرفت بعض الأقوياء المحصنة نفوسهم من داء التحول السرطانى اللعين غير المرئى.

من الآخر: لن أعمل عندك يا حسين يافتحى. غدا أقول لابنتك الغالية إننى أرفض. أرفض.أرفض!

****

- متى تكف عن ترددك؟
- أنا لا أتردد. أنا أرفض
- هل هذا هو ما اتفقنا عليه حين كتبت لك طلب الاستخدام بخط يدى؟!

أناملك تقطر رقة وجاذبية. يا ربنا كيف سويتها؟!..انحناءتك على المكتب وأنت تخطين بها الطلب المزعوم تخطف بصرى عفويا الى بؤرة صدرك. تتسلل عيناى النهمتان تلتهمان ما انحسرت عنه فتحة قميصك الوردى الرقيق من حواشى مزركشة، تخفى من خلفها كنزك النفيس العزيز، الذى يخفى فى أعماقه سر الحياة.

- المواجهة بينى وبين الخطاب أنهت اتفاقنا
- كيف؟
- تأملى العبارة الأخيرة جيدا
- اذا كانت تلك العبارة قد أغضبتك ، فلا مانع من أن يرسل أبى خطابا آخر اليك يخلو منها ، أو لاداعى لخطابات اطلاقا. انه مجرد روتين لفظى متبع فى مراسلات الشركة مع كل مستخدميها قبل التعيين.
- وأنا لن أستطيع أن أكون مستخدما عند أبيك ياسلوى
- هف!!..لماذا؟!!
- ولاتقولين اننى مجنون؟
- لن أقول
- شعرت بغصة بمجرد أن فضضت المظروف المحتوى على الرسالة!
- اعقل يا احمد..فيه إيه؟!
- تأكدت ساعتها أننى حين أترك العمل بالقطاع العام فإنى ألقى بنفسى الى مصير غامض ، أغلب ظنى أن نهايته التهلكة
- أتعبتنى.لافائدة معك. لقد تعودت على العمل فى جو من الفوضى ، واستمرأت الرضا بالقليل

معك حق يابنت العز والأبهة يامن ليس للاكتفاء عندكم سقف. صحيح هناك فوضى وفساد فى القطاع العام. هناك أناس تعمل وأناس تسرق. قوانين العمل تنصف العامل المهمل والبلطجى وتعجز عن فصله. مئات من الموظفين يحضرون الى مكاتبهم لمجرد التوقيع ثم الانصراف.عطلات رسمية لاحصر لها ولامعنى ... مثالب يعرفها الجميع لكنهم يسكتون أمامها بحكم التعود ، حتى باتت مظاهر طبيعية فى هذا المجتمع لامجال للاعتراض عليها. لكن ياشاطرة هناك آلاف من الشرفاء على جميع المستويات. هناك كوادر فنية اكتسبت خبرة دولية فى تخصصها واشتهرت عالميا، وكل أصحابها من أبناء القطاع العام الذى أسسه عبد الناصر، والذين تعلموا مجانيا فى عصره.

أنا لم أخضع لعادة التعود حتى اليوم، ولست أحب الفوضى التى تقصدينها ، بل إنى أحزن بشدة على سريانها فى كيان المجتمع كله كسريان خبيث الداء فى الدم، ابتداء من التسلل بخلاياه المجهرية وانتهاء بصاحبه الى الختام المأساوى المرتقب. لو انتهى القطاع العام سيجوع هذا الشعب ويكتوى بنار الغلاء ، وأنا لن أساهم يوما فى ذلك الجرم!

- ولم لاتتركين هذه الفوضى وتعملين فى شركة أبيك؟
- أنا قاعدة هنا على قلبك. والله ما انا ماشية

أيعقل يا أحمد ياسيد أن يكون لبقائها سبب متعلق بشخصك؟..

- من هذه الناحية فأنا أحسد قلبى على قعادك عليه
- ولم لا تسمع كلامى وفيه كل الخير لك؟
- لأنى أحبك
- هف!!..إنسان عجيب!

****

صباح مشرق وسماء صافية وموجات صغيرة تتهامس على سطح البحر فى نغم فريد متخم برائحة الحياة، مترع بعطر الحب والموسيقا والزهور. هزتنى نشوة الشباب وغمرنى الفرح. البحر عندى هو الخير العميم بكل تناقضاته وغموضه. مثلى هو دائم التقلب.هادىء عاصف. ساكن صاخب. كريم بخيل. لين قاس. هو أمان وخوف. أحبه بكل ما فيه من مخلوقات لاتختلف طباعها كثيرا عن طباع البشر. صيادو بحرى يعرفونه ويدركون الكثير من أسراره العميقة أكثر منى. يعرفون أنه غادر بقدر وفائه. ناعم بقدر جبروته. أحبه مثلما أحب الحياة والحب والموسيقا والأغانى.

الحديث معـــــــــــاد...

على شاطىء أبى قير التقيت بماجدة. خطيبتى. الحديث معاد. يضع بين أفكارنا حائلا ضبابيا بلون الجليد. ميولنا "الأخرى" يجمع بينها تجاذب فطرى ملتهب بنار الرغبة. ماجده وهبها الله جمالا أخاذا. الوجه مستدير يتيه فى لون خمرى مائل الى سمرة ذات لون متفرد متفجر بالغواية. العينان زرقاوان فى صفاء البحر وعمقه. أنفها كأنف طفلة فى العاشرة. حين تحدثنى تتأمل عيناى كرمشات شفتيها الدسمتين فى عشق حنون. تختلج كل خلية من خلايا جسدى أمام جاذبية قوامها الساحر وفتنتها القاتلة.

تحدثنى كثيرا عن أبيها"الشيخ عبد القوى" إمام زاوية بكير الراحل. كان يتقاضى فى الشهرجنيهان من وزارة الأوقاف..مات مريضا بالأنيميا. كانت أمنيته الوحيدة فى الحياة أن يموت مستورا. لست متأكدا تماما فربما كانت تلك الأمنية أن يعيش مستورا.

رائحة الأسماك المقلية والمشوية تداعب أنفى بقوة وإصرار. أشمها وتشمنى بإلحاح متبادل. تهف طلائعها من نوافذ المطعم الشهير الذى تصطف أمامه العربات الملاكى فى موجات متعاقبة. بعضها ملاكى الاسكندرية وأغلبها ملاكى القاهرة وبعض المدن الأخرى. أراقب فى تطفل خائب كل من نزلوا من أبوابها. محمرو الوجنات. الكبرياء يتساقط من أنوفهم. العظمة المتعاظمة تتعالى فى أصوات آمرة ناهية للخدم والسائقين وسيّاس العربات. هناك من يمسح العربة ومن يصطحب الأولاد ومن يحرس الكلب ومن..ومن..ومن.. لكن الإبنة الوحيدة لعم عبد القوى ، هى فاتنة الحى والدنيا بما فيها من أثرياء وفقراء. هى محط أنظار أبناء الموازينى وزاوية الأعرج وبحرى كلها. هناك من يطمع فى امتلاك جسدها الطرى المرعب بالحق الشرعى. هناك أيضا من يحلم بسرقته وتوسد ليونته وطراوته وسخونته ونعومته ولو للحظة من العمر هانئة. وهناك من يكتفى بإمتاع نظره وهو يقول:

- اللهم صل على جمال النبى..أحب الياسمين!

خالد فقط هو الذى يتعمد ألا يبدى نحوها أى اهتمام. مشاعره لاترتج بارتجاج مؤخرتها المستديرة ولا ارتجاجات لحمها المكتنز المتناسق فى كسوته المحبوكة. صديق طفولتى. مدرس

ثانوى. استقبل نبأ خطبتى لها بنظرة ريب غامضة لفتت نظرى. لابأس ياصديقى فأنا أدرك أن تكوينك النمطى يرهب فتنة النساء ويرتعد خوفا من اقتحام نعومتهن الفاجرة.

ساخرا ، عرضت عليها ذات يوم فكرة أن يقترن أبى بأمها الأرملة. استنكرت ذلك.

- لماذا يا ماجده؟
- أحيييييه!!..أبوك رجل صاحب كيف ومزاجنجى بالجامد
- وماله؟
- الصنف ده من الرجال ماله أمان. كل يوم فى حال
- بالعكس. كل الرجال الجدعان أصحاب مزاج. صدقينى يا بت
- يارجل!
- المثل الشعبى يقول:"دماغ بلا كيف تستاهل ضرب السيف".
- عيب يا رجل يا مثقف
- على الأقل يتسليان معا ويؤنسان بعضهما فى الأيام الباقية لهما
- التسلية لاتنقص أبوك. فهو إما قاعد في كشك امرأة الشحتوف يتفرج على النسوان فى حديقة راس التين، وإما سهران بالليل فى غرزة أم الشحات بالمتحف بين المساخيط.

****

زمنه خمسون عاما. يفوق حبه لى حب كل الآباء لبنيهم. لست أعرف لماذا. هو رفيق عمرى الذى يفوق علمه بالدنيا أضعاف علمى وتتضاءل معرفتى أمام تجربته الطويلة العريضة العميقة فى الحياة. قبل أن أرى النور كان يعمل منادايا للعربات بميدان محطة الرمل. يركن العربات ويمسحها وينظم دخولها وانصرافها دون أن يفرض نفسه على صاحب العربة طمعا فى مزيد من القروش. يلقط رزقه قافزا بنشاط بين موقف ترام الرمل الأسطورى العتيق ذى الطابقين ، وشارع الكورنيش ، والشارع الفاصل بينهما حيث مقاهى الاسكندرية الشهيرة ..مطعم وكافتريا أتينيوس العتيق الذى لم يكن يرتاده قديما غير طبقة الارستقراطيين والباشوات، ومقهى وبار إمبريال، ومقهى الوادى، ومقهى النيل، ومقهى القاهرة، وحلوانى وكافتريا ديليس. على نهاية نفس الرصيف يقع مقهى وكازينو المونسينيور الذى كان الملك فاروق يسهر فيه أحيانا مع بعض من خاصة أصدقائه ويلعب مع بائعى الفستق "جوز والا فرد" كأى فرد من عامة الشعب. على الرصيف التالى يقع مقهى ميرامار التى كتب عنها نجيب محفوظ احدى رواياته الرائعة. معظم رواد هذه الأماكن يعرفون السيد طلبة ويحبونه ويتعاملون معه بكل احترام .

ذات مساء أغبر نهره صاحب عربة دون سبب مقبول. كان ذو عنجهية وتسلط واستعلاء فى الأرض. حاول السيد طلبه أن يدافع عن نفسه ويحتج على الإهانة غير المبررة، فسخر منه الرجل وأمعن فى السخرية وتمادى فى إهانته. فى البداية تماسك السيد وضبط نفسه وصبر حتى أقصى قدرته فطلب من الرجل أن يتركه ويذهب لحاله.صفعه الرجل على وجهه.

ينهال السيد طلبة – منادى العربات – على الباشا صاحب العربة الطويلة ذات الأرقام الثلاثة المعروفة فى المدينة بأسرها ضربا مبرحا أسكنه المستشفى لعدة أسابيع، ثم تحول بطبيعة ماحدث الى ماسح لبلاط قسم الشرطة لعدة أشهر حتى أخلى سبيله. كان ضابط الشرطة متعاطفا معه لأسباب لم يظهرها له. ربما كان يكره تعاظم ذلك الرجل وغروره.ربما كان معجبا بجرأة أبى وثأره لكرامته. عموما فقد أدى موقف الضابط الى نجاة أبى من حتمية تحويله الى النيابة وخضوعه لحكم القضاء.

فى طفولتى كان يصطاد الجندوفلى والجلجولّة من الميناء الشرقى ناحية السيالة. يأخذ نفسا عميقا قبل أن يغوص بسنواته وجلده المشدود الى الأعماق. يغيب عن يقين الزمن لفترة تحت الماء كاتما أنفاسه، ثم يطفو ويداه ممتلئتان بالطين والرمل والأعشاب، تتخللهما أصداف الجندوفلى الممتلئة بلحم ينبض بالحيوية والجمال ، ويعكس بياضه الناصع أشعة لامعة حين تشق السكين أو الأظافر الحادة ما بين غطائيها المتماسكين بقوة البقاء.

أما الجلجولّة فكان ينزعها من بين الصخور المتناثرة بجوار الجزيرة وأعشابها. لحمها به مرارة لكنها لذيذة وشهية لمن يحبها. بنهاية لحم القوقع توجد قشرة خشنة تنزع عند الأكل. كل صبية بحرى يأكلونها نيئة .

فى النهار يبيع كومة الجندوفلى بقرشين لنساء الحى، وفى الليل يتجول على البارات والكازينوهات والملاهى الليلية المنتشرة بطول الكورنيش مثل كاليثيا والمونسنيور. يبيعها بالدستة لشاربى الخمور بهذه الأماكن فى أطباق صغيرة جدا ذات طابع فنى أنيق متميز بعد أن يفتحها أمامهم بمطواته للتأكيد على طزاجتها ، إذ كلما صعب فتحها كان هذا دليلا على أنها مازالت حية. يغسلها بعد ذلك بماء يحتفظ به فى جردل صغير، ويعصر عليها الليمون ليسيل لها لعاب سمار الليل وعشاق الحياة..جندوفلى حىّ. المزة والليمون. الطبق بشلن يابهوات.

لما التهبت أعصابه وأوجعته عظامه من شدة البرد ولطول الغياب تحت الماء لاستخراج الجندوفلى والريتسة، أو بين الصخور لاستخراج الجلجولة وبلح البحر، قرر على مضض أن يعمل مساعدا لصديقه المعلم "بيضه" تاجر الأسماك لحين شفائه حتى يستقر فى عمل حر من جديد ، لايتلقى فيه تعليمات من أحد ولا حتى من نفسه!!

لم تفته سهرة من سهرات عرب ميزو ، مهما كانت نوعية العمل الذى يمارسه بالنهار. عرب ميزو يجيد العزف على الربابة ويحفظ الكثير من المواويل الشعبية السكندرية ذات الفواجع الميلودرامية المحبوبة، والتى غالبا ماكان يرقص عليها "السيد حلال عليه" أشهر راقصى الاسكندرية فى ذلك الوقت. عندما أراد مخرج فيلم"أبو أحمد" أن يعرض نموذجا للرقص السكندرى الأصيل لم يجد سوى سيد حلال عليه الذى أدى هذه المهمة بنجاح تام. أما الموشحات الغنائية القديمة المترعة بالطرب والسلطنة فإنها من اختصاص "الشريدى" المكوجى وعازف العود القديرالذى لايحضر من تلك السهرات سوى يوم الخميس. أغلب ظنى أن الشريدى وسامعيه من المساطيل لم يكونوا يفقهون معانى قصيدة ابن الفارض التى كانت تصدح بين جدران المعبد، والتى كان الشريدى نفسه ينشدها ويعزف لحنها:

أخفى الهوى ومدامعى تبديه/ وأميته وصبابتى تحييه
ومعذبى حلو الشمائل أهيف/ قد جمعت كل المحاسن فيه
فكأنه بالحسن صورة يوسف/ وكأننى بالحزن مثل أبيه

السيد طلبة يدخن المعسل. يشرب البيرة ، وأحيانا العرقى . تهتز رأسه بالنشوة يمينا ويسارا على أنغام ربابة عرب وأحيانا على عود الشريدى . يزداد حماسه أحيانا حين تلطش البيرة دماغه فيهب معانقا صديقه ويعطله عن مواصلة العزف والطرب بين ضجيج المجموعة واستحسانها ، فيقوم ويرقص بأسلوب متفرد ينثر البهجة على الجميع. كان آخر عهده بالمعلم بيضة حين قال له:

- السمك عفن ياسيد ياطلبة
- وأنا مالى به؟
- وانت مالك؟!!..ومن يدفع لك يوميتك ياسيد؟
- ربنا هو الرازق يا أخى
- لكن الثلج لم يختف من البلد يارجل
- الثلج موجود صحيح، لكنك تعرف أنى أشيل"بلانص" ولا أشيل بلاطة ثلج
- خلّ الواد على يشيل بدلا منك
- على بقى عنده ستين سنة. لازم يكون عندك رحمة ياجدع انت
- خلاص. ارحمه انت وهات الثلج بدلا منه
- أقول لك..ولا ثلج ولا دياولو..سلام عليكم!

جرى المعلم بيضة وراءه محاولا استرضائه. كان يعد طعاما جاءه ساخنا من بيته ليأكله مع صديقه الحميم.

- ياسيد..تعال ياسيد. نأكل لقمة مع بعض الأول وبعدين نتفاهم
- لقمتك لا تقبلها نفسى .
- السمك سخن ياجدع
- كل انت واشبع ياصاحبى..سلام.

****

لايدانى عشقه للبحر إلا عشقه للموسيقا والفن والفنانين والطرب.ترك المعلم بيضة وعمل ممثلا بفرقة مسرحية شعبية تتنقل بين القاهرة والاسكندرية وبعض الأقاليم الريفية القريبة. يجيد تشخيص الرجل الشهم الجدع، منقذ الضعفاء والمحتاجين. كانت حياته فى تلك الفترة سفرا دائما بين بوابة مورو بالموازينى ، وسويقة المناصرة بمحمد على، حتى نجحت أمى فى إقناعه بالعدول عن ممارسة هذه المهنة...ومع ماجدة ونحن نرقب تدافع الأمواج على شاطىء أبى قير..

- أحيييييه!! أترى هذه العربة؟
- نعم..مالها؟
- هايلة. لونها يجنن. كم تساوى؟
- لا أفهم فى ماركات العربات ولا أعرف أسعارها مادمت أعرف أننى لن أكون من أصحاب العربات فى يوم من الأيام
- شيفروليه..آخر موديل

تسألنى الساذجة عن ثمنها. ثمنها يا عزيزتى يساوى مجموع أعمار عشرات الموظفين، مضروبا فى فئاتهم الوظيفية، مضافا اليه مجموع مرتباتهم لحين بلوغ المعاش ، مطروحا منه بضع ذبحات صدرية ونوبات قلبية وتشنجات هيستيرية، مقسوما على معكوس عالم يخفيه الضباب ، وتطمس معالم حقيقته سيول حمراء ، وأطفال جوعى ، وليل كالح السواد لاينتظر من بعده نهار.

- أتشم رائحة شواء الجمبرى والكابوريا والدنيس فى المطعم؟

بل تكاد تذوب رائحتها فى خياشيمى يا بنت صريع الأنيميا..

- لا. أنا أشم فقط رائحة الفلافل المقلية بالدكان المجاور للمطعم
- موظف محترم مثلك..لم لايقدر أن يأكل فى مثل مطعم الأسماك هذا؟

ما أقبحك أيها التراب الأميرى الأغبر. انهم يعشقون التمرغ فى موتك..

- ماجدة حبيبتى. لى عندك رجاء
- تأمرنى ياحبيبى
- أسكتى

الحديث معـــــــــــــاد....

وعمل نجارا. أمضى عدة أعوام فى نجارة مراكب الصيد عند المعلم"ألمـــاظ". من العجيب أنه استمر يعمل معه – عنده – طوال هذه الأعوام – رغم قراره بالاستقلال - دون أن يقع بينهما مايكدر صفو علاقتهما الطيبة. عامله ألماظ كأخ شقيق له فقد كان يحبه جدا ويراعى خاطره. جمعت بينهما صداقة متينة لم أعرف لها فى البداية سببا محددا. كان يساهم فى إعداد "براطيم"الصيد الكبيرة، وكذلك فى ترميم "الكواتر" ذات القلوع وتصميم"الدناجل" ذات المجاديف. ولما عاجلت المنية المعلم ألماظ ، أبى أن يعمل تحت إمرة ولده المتعجرف، وأنشأ دكانا صغيرا داخل القبو فى ركن بوابة مورو الداخلى المظلم، أسفل المنزل مباشرة، مازال قائما حتى الآن وكأنه يتحدى الأزمنة.

اكتشفت بعد ذلك سر الصداقة غير العادية بين الرجلين. كان أبى يجلس ساعة الأصيل بين الفلايك والأشجار المعدة للقطع بالمنشار الآلى الكبير، على رمال شاطىء السيالة بصحبة المعلم ألماظ والشيخ عبد القوى والمعلم أبو جبل الشهير ب"أبو جلامبو"وخميس فلفل والمعلم "طيطه" يتبادلون الحديث فى السياسة باهتمام شديد:

- "بولتاجين" هددهم بالصواريخ يا خميس ياخويا
- "بولجانين" ..اسمه بولجانين
- والله ما تفرق معى. المهم ربنا بعث لهم من يربيهم يا اسطى سيد
- الغرب ماله أمان ياشيخ عبد القوى.. هو من بدع قلة الأصل فى العالم
- بصراحة ضربة الكنال كانت كبيرة عليهم يامعلم ألماظ
- من كان يصدق أن يعملها جمال؟
- أهو عملها وربنا ينصره ان شاء الله

غالبا ما كان الشيخ عبد القوى يحبذ انتقال المجلس الى غرزة المتحف البطلمى بحديقة قصر رأس التين فى المساء، حتى يضمن أنفاسا مجانية من الممنوع. أم الشحات تعد الشاى الثقيل كالحبر.زوجها يعد الفحم المخصوص من فروع أشجار الجوافة الذى يشتعل بسهولة و لايصدر عن احتراقه دخان خانق.ولده يعمر الجوزة ويمر بها عليهم الواحد يلى الآخر، والخفير يحرس باب المتحف حرصا على الآثار التى بداخله من السرقة، والمعلم ألماظ يدفع بسخاء.

وتحلو السهرة لاسيما ان كان الشيخ عبد القوى عائدا من مأتم ومعنوياته مرتفعة ، حيث يكثر من الصلاة على النبى وقراءة سورة الفلق.

- نقرأ الفاتحة ياشيخ عبد القوى
- وماله ياسيد ياطلبة..نقرأ

"بسم الله الرحمن الرحيم.....صدق الله العظيم."

- ماجده لأحمد طلبه ، وأحمد طلبه لماجدة
- وانا وانت

فى صمت الليل يأتى الى الصحبة هسيس الموج مع النسمات الحبلى برائحة اليود، ويعبق المكان بالدخان الأزرق . تتصاعد القهقهات السعيدة ، ويخيم جو من الفرح على الجميع، حيث ينسى الكل همومه ولا يخشى غدر الحياة.

...والحديث معـــــــــــــــاد..

أبدا لاتكف عن تطلعاتها الساذجة!!

- ثم تشترى لى عربة؟
- لن يحصل
- لم؟
- لأننى موظف محدود الدخل
- يعنى ابن المعلم ألماظ الجاهل أحسن منك؟

وأغرق فى سيل من التفكير المرتبك. هل يرجى النجاح لزيجة أقرها مسطولان فى غرزة وكان شهودها مقابرالبطالمة بالأنفوشى؟

****

..الفجوة بين العقليتين واسعة ،لكن عشقى لجمالها يشعل النار فى عقلى حتى يحترق فيحيله الى رماد خامل، وتبقى الرغبة فى قلبى وجسدى متأججة..دائما متأججة!.

"الجرافة" تستعد لتفريغ شحنتها من حصيلة الصيد. الأطفال والصبية يتجمعون حول الصيادين وهم يسحبون الشبكة الكبيرة من البحر بأذرعهم المفتولة و يرددون نداءات منغمة لتوحيد الحركة:

هيلا هيلا...صلى عالنبى
وصلى صلى... صلى
عالنبى صلى... صلى

تتشبث أقدامهم برمال الشاطيء الخشنة تحت اصرار جذب للحبال المعروقة لايلين. تبرز عروق نافرة. ترسم خطوطا متشابكة على سيقان تنوء بحدة التصلب والاشتداد وثقل محتويات الشبكة من رزق الله. بعض النسوة تتجمعن حول القارب ممسكات بأوان مختلفة الحجوم، غالبا ما تكون مصفاة. هكذا جرت العادة دون سبب واضح، اللهم الا اذا كان الغرض من ذلك هو سهولة غسل السمك من الأتربة العالقة به ، بماء البحر قبل العودة الى منازلهن. يعبىء الصيادون حصيلة الجرافة فى "مشنات"مخصصة. لايعبأون بالنظر الى مفاتن النسوة الملتفات فى ملاءاتهن السوداء التى اشتهر بها نساء بحرى ، والتى يمكن أن تكشف عن أعالى هذه المفاتن وأسافلها فى يسر.

يتطلعون الى المصطافين الغرباء بعيون الرجاء والأمل لأنهم يدفعون أكثر من أهالى بحرى ولايفاصلون كثيرا مثلهم فى الثمن.

- شروة بطاطه وشراغيش حلوة يابيه
- لأجل خاطرك من غير فلوس
- هات ثمانية شلم واتكل على الله
- خذ ياوله. بع البسرية للنسوان وتعال لى على القهوة
- ولع!

فى خفة ودلال تتهادى ماجده بين النسوة كطفلة. تتطلع فى نشوة وابتهاج الى الأسماك وهى تتقافز مضطربة بالموت بعيدة عن موطنها. ترنو الىّ فى إعجاب مفعم بالخوف من المجهول وكأنها تدرك ما أعانيه من حيرة بشأنها.

- أحب أن أزورك فى الشركة
- لم؟
- لأرى زميلاتك المتعلمات
- لاتخافى ياماجده. أنا أحبك أنت

وأقول لنفسى: آه ياكذاب !

حديثى مع سلوى يختلف تماما...

تفيض سلوى فى الحديث عن أخيها"محمد" الذى حصل فى العام الماضى على بطولة الاسكندرية فى الملاكمة. تحدثنى عن لوحاته الفنية"الرائعة". عن أبحاثه العلمية فى العلوم الطبيعية التى ينشرها فى احدى الدوريات الهولندية المتخصصة. عن مهارته فى إدارة أعمال أبيها على خير وجه. هو فى عينيها اله!!..

تقول انه يشبهنى الى حد كبير. لهذا السبب – إضافة الى تقديرها لشخصى وثقافتى – فإنها تحبنى كما تحبه. أنا أعلم أنها كاذبة، فحبها لى يختلف عن حبها لأخيها محمد، مثلما يختلف عن حبها لزوجها فريد زين الدين. هو شعور آخر يختلف كثيرا ، لكنه مسكوت عنه.

سلوى لاتعد وفق مقاييسى الخاصة من الجميلات. إنما ينبعث سحر جمالها من روح متوهجة وبديهة حاضرة، ومما حببتها به الطبيعة من ابتسامة تقطر جاذبية ، ومن حياء أنثوى ساحر رغم أنه يفيض مكرا ودهاء.

فاحمة الشعر. عسلية العينين. أنفها يكبر كثيرا عن أنف ماجدة الشبيه بالملبّسة الصغيرة والذى لا يتجاوز حجم أنف طفلة. على ذقنها تنام"حسنة" بنية اللون أحبها كثيرا. هى نحيفة القوام رقيقة التكوين ،ورغم رقة مشاعرها فإنها تمشى مختالة كالطاووس وتتحدث فى كبرياء عفوى لايفهمه ويستوعبه الا القليلون.

حين تزوجت من الدكتور فريد كانت تدنو فى قلق من الثلاثين. الشاب وسيم ناجح ثرى من عائلة كبيرة. جاءها فى الوقت المناسب. كان لابد لها ولأسرتها أن يقبلوه كزوج "لقطة".

سلوى بحدة ذكائها واضطرام عواطفها، تحلم بحياة أخرى مختلفة تود لو تغترف من نعيمها وتسبح فى سماواتها ، وتعيش بهجتها طولا وعرضا وارتفاعا. تعيش بحنين جارف الى

ممارسة تجربة الحب وتذوّق حلاوتها وقساوتها. حب للحب. تحلم أن تعيش عذوبته وعذابه وروعته ولوعته. حنينه وأشواقه. خصامه ودلاله.

فى غمرة نشوتها بالعريس الجديد تخلت مبدئيا عن حاجتها لخوض غمار تلك التجربة التى تراها مثيرة لحد الجنون. كان فريد هو الرجل المنتظر حسبا ونسبا، لكن معاشرته التقليدية الباردة، أيقظت فى أعماقها رغبتها الجامحة فى ممارسة الحب الحقيقى بشوقه الحارق وأحلامه الوردية ، ولقاءاته الهائمة بين أحضان الطبيعة. انطوت تلك الرغبة بين جوانحها فى بداية الأمر، وإن باتت كالجذوة المشتعلة يخفيها رماد الزواج البارد.

مر عام كامل على زواجها من الدكتور فريد، وإذا بمكونات شخصها العاتية تبتلع كيانه ابتلاعا ساحقا. كانت هى الطرف الأقوى والأقدر. يجيبها فريد الى كل طلباتها بلا توان.يدللها ويطيعها. يتحمل نزواتها فى صبر.لم يقل لها يوما كلمة توحى بالمعارضة او الاعتراض على مشيئتها. لم يحتد عليها فى مناقشة. لم يصمم على رأى ويجبرها بذكورة متمكنة على تنفيذه. من هنا عاودها الحنين الى اطلاق رغبتها الكامنة الجارفة، المنطوية فى أعماقها من جديد ، بحثا عن رجل قوى عنيد تحبه وتخضع له.

خرج المارد من القمقم.انتفض بجبروته الى النور. عرفتها فى هذا التوقيت. بداية التعارف كان موقفا رافضا من جانبى . لم تستطع أن تفرض ارادتها علىّ. قبلت التحدى. ربحت الجولة الأولى. توالت جولاتى الرابحة فى مواقف عديدة حين بدأت فى الاستسلام على مضض محفوف بكبريائها المعهود. كانت تلك المواقف مرتبطة بظروف العمل الذى يجمعنا بالشركة. أعشق تمردها.هى الأنثى التى أروم. أنا مدرك لموطن ضعفها. تبحث عن الفردوس المفقود فى شخص الرجل الأقوى، الممسك بمفاتيح قهرها وإذلال سطوتها. الرجل الذى يجبرها على الانصياع لارادته بلا تردد. اعتادت منذ طفولتها على أن تأمر فتطاع ، وأن تطلب فتجاب. اليوم قد اختلف الحال تماما. حين يعتريها الضعف فى لحظة خضوع عابرة ، تصرح لى بأنها تحبنى مثلما تحب أخاها"محمد". روعة السحر التى تكمن فى روحها ، والتى تجذبنى اليها فى إصرار، إنما تنبع من ذلك الكبرياء العنيد الذى يستبد بكيانها ويسرى فى تضاعيفها ويطغى على سلوكها. حين يمتزج ذلك الكبرياء بضعفها فهى معبودتى، وحين أشعر باستسلامها المتمرد ، فأنا من تبحث عنه وتقدم له روحها عن طوع، لا عن حق شرعى تقرره أوراق حكومية موقع عليها بأسماء بعض"عواجيز" القوم.

أصر دائما على أن أؤكد لها أننى ابن السيد طلبة النجار، لأبرز لها عن عمد حقية ماهيتى ودرجتى الاجتماعية ، وطبيعة التضارب الذى يفصل بين كواهل مناخينا المتنافرين. أنا شاب أميل الى الفطرة حتى فى تكوينى الجسمانى البدائى. عريض الصدر نافر الشعر غزيره. غليظ التقاطيع. نظراتى هجومية متوجسة ، وعيناى سوداوان كبيرتان وسمرتى برونزية كادحة.

تتغافل سلوى عن طبيعتى الخشنة غير المهجنة بالإتيكيت والتصنع الأرستقراطى. تتجاهلها فى تواضع مريب تنسج ملامحه من خيوط عاطفة طاغية تلتف فى رفق حول نبضات قلبها العامر بحب لم تهبه لحبيب بعد ، وتخفى به حنينا جياشا لبدائيتى وغلظتى وبرونزيتى الموروثة.

يشبهها العمال فى المصنع بالليمونة فى بلد قرفان. تقول لى انه ما من قوة ستحول يوما دون استمرار حبنا الأخوى. بل وتذهب الى أبعد من ذلك بكثير، فتفاجئنى ذات يوم بفتح أحد أدراج مكتبها:

- ماهذا ياسلوى؟
- مصحف
- تنوين المشيخة؟
- أبدا ، لكنى لا أقوى على مفارقته
- الله عليك. لم أكن أعرف أنك....
- هات يدك

وأقسمنا معا ألا نفترق.وضعت يدى فوق يدها. أحسست بنعومة هادئة تتسلل الى روحى وتغمرنى بالاطمئنان. ركزت بصرى على أصابعها المدملجة وعلى أظافرها التى توليها كل العناية. قلت لها بعد القسم:

- أظافرك جميلة

قالت فى صبيانية ساحرة وهى تهب واقفة:

- أنظر. ان أصابع قدمى أجمل بكثير

كانت ترتدى حذاء مفتوحا من أمام. رؤيتى لأصابع قدميها الصغيرة بأظافرها المهذبة المنمقة ، لم تكن لتعادل رؤيتى لجسد فاتنة عارية. وددت لو احتضنتها بين ذراعى وقبلتها فى ذقنها على تلك "الحسنة" البنية التى تتصدرها فى خيلاء. فوجئت بها تخطف منى قبلة لم أكن أتوقعها فى جرأة أربكتنى ، ثم تعود الى مقعدها وكأن شيئا لم يكن!.

على سبيل المداعبة أخفيت حافظة مذكراتها التى غفلت عنها قليلا، وقلت انه بحسبى أن أحتفظ لنفسى بشىء من سلوى ولو لم ترغب فى ذلك.

****

مجذوب البحـــــــر

****

● **وصيـــة صياد عجوز:**

"قبل أن تبحر ، تفقد شباكك وقلاع مركبك وصواريها ، ولا تتخل عن بوصلتك ، ولا تهمل زاد بحارتك ومؤونتهم ، ولا تطرد فئران قاربك فهم نذر الخطر لك عندما يبدأون فى الفرار. استقبل الرياح النشطة بقلاعك العفية، وانشرها عاليا لتدفع قاربك ، ثم ارخها واطوها اذا زمجرت الرياح واهتاج البحر. تحقق من دفتك فهى دليل وجهتك وصمام أمانك، فإذا تحطمت لسوء قيادتك أسلمت نفسك للضياع. إحذر شيئين: غدر البحر وتمرد البحارة ، واحرص على شيئين قبل الإبحار والرحيل: سداد ديونك وكتابة وصيتك ، والأهم من ذلك كله ، أن تتوكل على الله وتقدم المشيئة".

****

● **وصيـــة نورس حكيم:**

قال لى النورس الحكيم ذات غروب:

"يخطىء من يظن أن صيحاتنا كلها متشابهة. فعندما يلملم الظلام جحافله ليرحل تاركا السماء والأرض لمواكب الضياء، ننطلق من أعشاشنا المجهولة فى زهو نشاط ، وتكون صيحاتنا فرحة ومبشرة بصباح جديد مفعم بالأمل. وعندما تضطرب الأمواج وتهب الرياح منذرة بعاصفة قريبة، نطلق صيحات الحذر من المجهول. وعندما نهوى من علياء الى ما تحت الأمواج، ونخرج برزقنا اليسير، نصيح مبتهجين شاكرين لواهب الأرزاق والنعم والخيرات ، وعندما تعم السكينة ويسود الهدوء، ننطلق مسبحين مهللين مكبرين لخالق الوجود العظيم. وعندما يلف البحر الغروب تكون صيحاتنا نداء بالرحيل. وعندما يحين الأجل نأوى الى صخور بعيدة ننتظر الأجل المحتوم ونسبح بحمد الرحمن الرحيم".

****

●**تهويمات عاشق النوارس:**

ما زال يتردد فى أعماقى صياح النوارس كلما خلوت الى نفسى. يتردد صداها مع موسيقا الأمواج بهديرها المحبب، فتجاوبها النوارس بصياحها ليمتزجان معا فى سيمفونية من الروعة والجمال. عندما عشقت البحر وأصبحت مجذوبا له ، أهدانى صداقة النوارس – مثلما أهداها الى مصطفى درويش – فأحببت حريتها المتمردة وغموضها الخفى وسعيها الدؤوب من أجل الرزق. لطالما تمنيت أن يكون لى مثل أجنحتها لأحلق بها عاليا فوق همومى وتعاستى الانسانية. عندما عجزت اكتفيت بمراقبتها وهى تعلو ثم تهوى كالسهم فوق صفحة الموج لتلتقط الأسماك الشاردة.

فى الأيام التى تكلل فيها الغيوم السماء فوق البحر ، يختلف صياح النوارس ، فيأتى مغلفا بالأسى والشجن .. ألست محقا فى أن أكون عاشقا للنوارس ، وأن يعيش فى ذاكرتى فى قرار مكين صوت صياحها وهى تفرد أجنحتها البيضاء، وتحلق ماشاء لها التحليق فوق الأمواج ، ويختلط صياحها بهدير أمواج البحر فى قرار وجواب، وكأنها سيمفونية تغلفها الأسرار يتردد صداها فى قلبى..

علمتنى النوارس كيف تكون الحرية والانطلاق ، وكيف تتكتم الأسرار، عندما بنت أعشاشها فى أماكن مجهولة تنطلق منها كل صباح مخلفة وراءها أفراخها وأسرارها لتعود فى المساء وتنعم بالسكينة والهدوء.

****

● **الاسكندريـــــــــــة: هذه المدينة علمتنا عشق الأمكنة ، وطعم الشجن ، وأن نكون أسرى لصباحاتها المعطرة بأريج البحر المنعش. علمتنا كيف يكون صدى خطواتنا فى طرقاتها**

كوجيب قلوبنا، وتنفس الأسرار فى أمسياتها كحنين ماضينا، كما منحتنا غيومها الرمادية فى نهار شتاء حزين بشارة قادمة بالغيث والنماء.
هذه المدينة انفكت من مجال الوصف والتصوير، وحلقت فى سحب الغموض والتكهن ، والابحار في عالمها السحرى الملغز بالأسرار، الغارق فى الإبهام.
هى مدينة أعطتنا كما لم نأخذ منها، وسلبتنا ليس بقدر ما منحناها، فهى المانح والعاطى ، وهى التى تسترد عطاياها من نبض القلوب وتردد الأنفاس.. هى القيود والانطلاق والسجن ونوافذ الحرية وصرخة الأبدية. هى العذراء المنتهك بكارتها، وهى الغانية التى أغوتنا . هى ليلانا فى أنشودة الحب العذرى العفيف، وهى الميلاد والبعث والمنتهى والفناء.
هذه المدينة قيد من حرير وأغلال من فروع شجرة العشق والمحبة. هى نور ونار وإفصاح وأسرار وأشواق وظلال.
هى بدايتى ومنتهاى .. أنا مجذوب البحـــر.

****

قال لى البحـــــــــــر:
سأقول لك كلمتى الأخيرة: ابق دوما بجوارى وعلى رمالى، متأملا من هنا ملكوت الله ، وحلق كيفما شئت ، وسأعيرك أجنحة نوارسى لتحلق بها عاليا. لكن ينبغى أن تتذكر أن المحلقون فى ملكوت الله يصحبهم التجرد والتهجد والذكر والتسبيح، فكن كما أراد الله لك لتنعم بالوصال.تجرد من أطماعك وخطاياك ، وتهجد فى الأسحار واذكر ولى النعم ، ثم حلق كيفما شئت فى الملكوت الرحيب وسوف يأتيك اليقين.

****

● **هوامش هامة لغير السكندريين:**
●الجـــرافة:
مركب صيد كبيرة مزودة بشبكة ضخمة يسحبها الصيادون عند الشاطىء بحبلين من الجانبين وهم يقفون فى صفين متوازيين حتى تصل الى الرمال فيفرغون محتوياتها من الأسماك فى مشنات ويبيعون منها للمطاعم والجمهور.
●الجندوفلى:
من أشهى وأشهر المحارات البحرية. يسمونه فى السويس"البكلاويز". كان يباع فى الأزمان السحيقة بقرشين للأقة ، والأقة تساوى حوالى كيلوجرام وربع. يباع اليوم بأربعين جنيها للكيلوجرام. الجندوفلى السكندرى يتراوح حجمه بين الصغير والمتوسط. أكلته مرة فى أمريكا. كان اسمه "oyster"على ما أذكر. حجمه كبير.طعمه ماسخ لايقارن بروعة طعم جندوفلى الميناء الشرقى عندنا بأى حال.
●الأخطبوط:
الاخطبوط أكلة يونانية مميزة ، يأكلها اليونانيون بشراهة كمزة مع شرابهم المفضل ouzo مما هدد هذا المخلوق بالانقراض ، حتى أن السلطات البيئية اضطرت الى تقنين اصطياده.
تنتشر المطاعم التى تقدم وجبة الأخطبوط فى كل الجزر اليونانية وتسمى Taverna ويقومون بتجفيفه بالهواء بعد تمليحه، ولهم طرقهم الخاصة فى طهيه . يؤكل أكثره مشويا على الفحم . كما أن له شعبية فى دول ساحلية أخرى، وهناك مدينة بأسبانيا اشتهرت بتقديمه واطلق عليها اسم مملكة الاخطبوط. أما فى اسكندريتنا الجميلة فيقوم الصيادون برزعه وضربه فى الأرض بشدة لمرات عديدة حتى تنحل قبضة عضلاته الشديدة القوة فيسهل طهيه. بعد ذلك يغلى على النار فى الماء لمدة طويلة حتى يطرى لحمه ، ثم يقطعه ويعصر عليه الليمون وزيت الزيتون والثوم المطحون وبعض الشطة والفلفل الاسود والكمون ، ليصبح مذاقه صعب المقاومة.
● **العجـــل** :(بفتح العين والجيم)هو التعبير الشعبى الدارج عن البيسكليت، والكرنك(بفتح الكاف والراء) هو عربة حديدية صغيرة مكشوفة ذات مقعد ومركب عليها عجلات أربع تدور

بتحريك بدالين الى الأمام والخلف فى تعاقب مستمر باستخدام القدمين، أما المستعجلة فهى عبارة عن قطعتين خشبيتين متعامدين حيث يمسك القائم الرأسى من مقبض عرضى وتركب تحت القائم الأفقى عجلتان حيث تستخدم القدمين بالاحتكاك المتتابع على الأرض لدفع المستعجلة الى الأمام.

● حلقة السمك:

تقع الحلقة في منطقة الجمرك بالأنفوشي، في مثلث عمراني مميز، بجوار قلعة قايتباي التاريخية، على بعد غير كبير من قصر رأس التين . وتعتبر معلما أثريا، حيث شيدت في عام 1834م، إلا أن مبناها لم يعد يحمل تاريخ إنشائها، فكثير من آثاره محيت نتيجة عوامل التعرية، لكن يمكن لأى عابر بالمنطقة أن يتعرف على مكانها قبل أن يصل إليها عبر رائحة الأسماك النفاذة التي أصبحت تميز المنطقة. . تحول المشنات الى حلقة السمك حيث ترص الأصناف المتشابهة كلّ فى صندوق خشبى طويل مفتوح لتعرض على الزبائن حيث تسمع نداءات :«ألا أونا.. ألا دوي.. ألا تري» مع بزوغ الفجر منبعثة من أشهر وأقدم سوق للأسماك بالمدينة، منادين على أسماكهم الطازجة بأشكالها وألوانها المتعددة والتي لم تفارقها رائحة البحر، فيما تتفرسها عيون عشاق المأكولات البحرية.

وتعتبر حلقة السمك جزءا لا يتجزأ من تاريخ الإسكندرية، فهي لم تبارح مكانها منذ قرابة مائتي عام. تبدأ الحلقة نشاطها من مطلع الفجر وتستمر حركة البيع والشراء فيها على مدار اليوم بلا انقطاع. جاءت تسميتها من وحي تجمع التجار والباعة الذي يأخذ شكل الحلقة حول طاولات الأسماك المعروضة من كل ما لذ وطاب من المأكولات البحرية. يتوافد عليها أفواج من السواح للاستمتاع بمشاهدة المزادات الساخنة فجرا، فعند مدخل بوابة الحلقة يوجد مكان يشبه الصالة، به فتحات تنفذ منها أشعة الشمس والهواء، تتراص فيها صناديق الأسماك بانتظام في انتظار من يزايد عليها.وتصل الأسماك باكرا في الرابعة صباحا، على شاحنات تضم حصيلة ما قام الصيادون بجمعه من مختلف السواحل السكندرية أو التي تأتي من الأقاليم المصرية، أو من البلاد المجاورة حيث يذهب أغلب الصيادين في رحلات صيد قرب الحدود مع ليبيا. يفتتح مزاد البيع. ينادي القائم على المزاد بسعر محدد للكيلو، لنوع ما من الأسماك، ومن يزايد بسعر أعلى تكون «الشروة» من نصيبه، ويكون المزاد في ذروته من الساعة الرابعة فجرا وحتى الثامنة صباحا، حيث يخلو المكان تدريجيا من الزحام حتى تباع الطاولات المتبقية من المزاد على الرصيف وحتى الخامسة مساء.

وحلقة السمك هي ثاني أقدم سوق سمك بالإسكندرية فقد كان بالمدينة سوق آخر بـ «المنشية» يعرف باسم سوق السمك القديم، والذي يعود تاريخه لأواخر القرن السابع عشر، لكن الحلقة التى تأسست قبل 200 سنة أصبحت هي السوق الرئيسي للسمك.

ومثل معظم الأماكن الأثرية بالإسكندرية ارتبطت الحلقة بالعديد من الخرافات، من أشهرها شرب دم الترسة، حيث كان مشهد الجموع المحتشدة حول بائعي الترسة البحرية مثيرا، فقد كان معظم أهالي الإسكندرية يعتقدون أن من يشرب دم الترسة يصبح أكثر خصوبة سواء كان ذكرا أو كانت أنثي، وأنها تشفي من فقر الدم أو الأنيميا.

وعندما كانت تجلب الترسة من البحر كان أهالي بحري يتزاحمون عليها حيث يتم ذبحها بطريقة لها طقوس معينة، تتطلب قلبها على ظهرها، ثم يتم صب دمها في أكواب وتشرب في رشفة واحدة. إلا أنه تم منع ذبح الترسة حفاظا عليها من الانقراض ومنعا لانتشار هذه العادة السيئة.

****

●مقابر البطالمة :

تقع تلك المقابر أمام مدخل رأس التين ، وهى خمسة مقابر، اثنين منهم تعتبران من أهم المقابر بالمنطقة ، وقد تم اكتشفها عام 1901 ويرجع تاريخها إلى العصر البطلمى فى القرن الثالث ق0م وتتميز المقبرتان بنقوشهما الجميلة وتصميمهما البنائى الفريد0وقد تم بناء هذه المقابر

في فناء مفتوح تحيط بها غرف تحتوي على أكثر من مكان للدفن ، وتوضح زخارف الجدران التفاعل بين الفن اليوناني والمصري والمعتقدات الدينية للمدينة القديمة. والناس الذين دفنوا في مقابر الأنفوشى يمثلون الصفوة ، إما لأجداد مختلطة أو للمتأثرين باليونانية من المصريين. لم يخطر ببال مساخيط البطالمة هؤلاء أن أحفادهم سيتخذون يوما من مقابرهم مأوى آمنا لتدخين الحشيش والاسترسال فى كلمات طائشة عن الحياة والموت.

****

●مصطلحات أهل بحرى:

● الشلم:
هكذا ينطق أهل بحرى "الشلن" والذى يعنى خمسة قروش وكان قديما من الفضة الحقيقية .
●المشنة:
قفص من الخوص الطرى منسوج بطريقة تسمح بتصفية الماء منه ، وهو مصنوع من حجوم مختلفة.
●البياصة:
ساحة متسعة تتوسط عدة أزقة أو شوارع.

****

ليلى الاسكندرانى

****

أجلس على " الكنبة"بجوار شباكى الخشبى المفضل ، أكتب خطابا الى حمدى أبوجبل. أرقب الطريق والناس والحياة. الطريق هنا مثل معظم طرقات بحرى مرصوف بالبازلت الأسود العتيق الذى لايخضع لفعل الزمن أوالتضاريس الجوية. رأيته فى طفولتى ،ومازلت أراه كما هو حتى اليوم، صحيحا يتحدى فعل الأيام والأزمنة. عشقى لأزقة رأس التين لا أعرف له مبررا واضحا. أحب بيوت رأس التين القديمة التى لاترتفع كثيرا عن الأرض، والتى يتميز معظمها بالأبواب الخشبية المنقوشة والمطعمة بمقبض حديدى على شكل قبضة اليد. أحب البحر بتقلباته. أحب الصيادين وأصحاب المناشر والباعة الجائلين.أحفظ نداءاتهم ومصطلحاتهم ، وأرددها أحيانا مع نفسى بنفس النغمات التى ينادون بها على الأسماك والخضروات. لدى شعور متأصل بأن كل شباب رأس التين إخوتى ، وكل سيدات رأس التين أخواتى وأمهاتى، وكل رجالها الكبار آبائى. نجحت بالفطرة دون جهد كبير من جانبى فى أن أخلق لنفسى عالما من الحب والتوازن النفسى أدركه وأقدر قيمته،مهما كان متوهما.

من هذه المنطلقات بدأت أكتب:

أستـــاذ حمدى:

"لم أجد بدا من الكتابة اليك،فمن الصعب على أن أتجاهل سبعة خطابات متتالية يرسلها الىّ انسان لايفصل بين مسكنى ومسكنه سوى زقاق قصير..يؤكد لى فيها إنه يحبنى.يريدنى.يتمنى لقائى..الى آخر تلك الأحلام الوردية التى تعد فى نظرى ترفا لست أهلا له وليس من حقى أن أنعم به.

أستاذ حمدى:

يبدو لى من كتاباتك أنك شديد التناقض، ولايفوتنى أن أذكر أننى أحسست بلمحات ذكية تبرز فى اصرار بين سطور كلماتك النابضة بالشوق، وربما كان هذا دافعى الأول للكتابة اليك ، فأنا أكره الغباء والأغبياء.

لقد تعلمت ياعزيزى من تجاربى المحدودة وقراءاتى المتواضعة ونومى بدون عشاء فى بعض الأحيان، ألا أنتظر شيئا من الناس..لا أنتظر منهم شيئا على الاطلاق. إن حب الشىء لاينقطع الا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا ، وأنا قد اعتدت ذلك وانتهى الأمر.

ماذا فعلوا حين قتل أبى على الشاطىء، واختفى شبح الشاهد الوحيد على بشاعة المأساة ، وقيدت الجناية ضد مجهول؟.. ماذا فعلوا حين لم أجد عملا شريفا أقتات منه وإخوتى الصغار وأمى الشابة الطيبة ؟.. لقد استراحت نفسى لهذا المنطق العنيد ، فلست أنتظر شيئا من أحد. نعم..لست أنتظر شيئا!!..

تحدثنى عن الحب والأمل والمستقبل. أى حب ياعزيزى وأى أمل وأى مستقبل؟..تلك رفاهية من السذاجة أن نسمح لها باقتحام أفكارنا نحن الفقراء بلا سبب سوى أننا ولدنا فقراء ، ومهما تحدثت عن تفاؤل مشرق وعن أمل وردى باسم، فأنا لست أرى أمامى سوى واقع رمادى باهت لاحياة فيه ولا روح. لست أرى أمامى سوى أب قتل فى ظروف مريبة، وحاجة ملحّة أعانى وأسرتى من قسوتها الحقيرة، وذئاب شرسة تعوى من حولنا فى ضراوة وضيعة، وكلمات جوفاء تحيط بنا لها طنين الذباب حين يعف على الحلوى العارية.

هذه هى ليلى – ياعزيزى المحامى- التى تشغل فكرك ووجدانك. ليست اذن ملاكا يرفرف فى سماء الحب بأجنحة السعادة والرضا. ليست البسمة الهانئة الوديعة التى تحيل فى وهمك الخراب الى عمار والموت الى حياة ، فأجبنى ، هل مازلت عند رأيك؟أمستعد أن تحب هذه"الليلى" على حقيقتها التى أوضحتها لك؟..أشك فى ذلك. وبالرغم من ثقتى فى هذا الشك فإنى أحب أن أضع لك النقط فوق الحروف. لاتشغل نفسك بأمرى أيها الرجل الطيب ، فإننى

لست على استعداد ، وليست عندى المقدرة على أن أبادلك الحب ، أنت أو غيرك، ولا أحسبك تجهل أن فاقد الشيء لايعطيه ، ولقد مات عندى ذلك الاحساس من زمن بعيد ، فحتى حبى لأمى وإخوتى ينتابه المرض وتضنيه العلة من حين لحين، ولتنصرف الى الاهتمام بمستقبلك والتخطيط له بعد أن نعمت بالحصول على شهادة جامعية هى بمثابة رخصة معتمدة فى بلادنا تنتشلك ببساطة من المجتمع الذى يضم الملايين من أمثالى الى مجتمع آخر قد يعلو عنه بضع درجات طبقية.

الأب – كما تعلم – صاحب"منشر مايوهات"على شاطىء شعبى، ثم صياد معدم، أما الابن فمحام !..ألست معى فى أنها ظاهرة تسترعى الانتباه قبل أن تدعو الى الفخر والمباهاة؟..ثم اننى أقترح عليك ياسيدى – وهذا مجرد رأى – أن تغلق مكتبك الذى استدنت ثمن تأثيثه من وغد لايستحق الحياة ، وتلتحق بإحدى المؤسسات الحكومية لتضمن لنفسك راتبا ثابتا، وتكتفى بالتحقيق مع العمال حين يضيق بهم الحال فيضربون بعضهم البعض بأيدى"المكانس" وبالآلات الحادة أحيانا.

صدقنى إن فكرتى رائعة، أم أنك تحلم بالمجد يا ابن المعلم"أبوجلامبو"؟..تحلم بالجاه والشهرة مثل فلان بك وفلان باشا ممن توارثوا المهنة عن آبائهم وأجدادهم كما توارثوا قصورهم وأطيانهم..تحلم بالنجاح الساحق فى الحصول على الثروة والسلطة ، وتتمنى فى خطاباتك أن تحظى بحب فتاة فقيرة لم تتم تعليمها الجامعى حتى تتكفل بإطعام أسرتها.

دعنا نعبر معا جسر الزمان ياعزيزى ونزوجك لهذه الفتاة التعسة شهرا او شهرين أو ثلاثة، ثم ماذا؟..يبدأ الخواء والجدب والملل."غبية.فقيرة الفكر. تفكيرها متخلف. لم تعد تصلح كزوجة لى.ليتنى لم أرتكب هذا الخطأ".. ألن تدور بخاطرك تلك الأفكار والمعانى بصورة أو بأخرى ، ربما لم تسعفنى العبارة بحسن التعبير عنها.. عموما دعنا من مستقبلك المأمول ومن القبو الذى يأوينا ونحنى جباهنا وقاماتنا حين ندخله أو لكى ندخله، ولنتحدث قليلا عن"لولا" جارتنا الجميلة.

لقد راقبتك كثيرا أيها الثعلب. رأيتك تزورها مرارا فى غيبة زوجها العجوز. ما من مرة رأيتك تزورها فى أوقات تواجده بالمنزل. أتحب أن تستمع الى نصيحتى بدلا من أن تحبنى وتطالبنى بمطارحتك الغرام؟..ابتعد عن هذه المرأة حرصا على كرامتها وكرامتك، وإن شئت أن تحب فيمكنك أن تفكر فى ابنتها الكبرى"نادية"، فهى فى نظرى يمكن أن تكون خير شريكة لك فى مؤسسة اقتصادية فاشلة تنشئونها معا اسمها الزواج. يمكنكما معا أن تضعوا حدا لتطلعات محكوم عليها مقدما بأن تنجبا العديد من الأطفال ، وتنضمان بعد ذلك الى قائمة المنتظرين أمام طوابير الجمعية الاستهلاكية لتحصلا على السمك المجمد واللحم الرخيص..آه أيتها الحياة اللعينة. كم أكره قسوتك. أيها الرجال الأقوياء المنافقون، لم قتلتم أبى؟ ألأنه كان شاهد الاثبات على جريمتكم؟..ومن أدراكم أنه الشاهد الوحيد؟..ومن الذى أوحى اليكم بأنه سيخونكم؟..لماذا لم تنتظروا قليلا حتى تتأكدوا من نواياه الحقيقية؟.. انتصر الشر وسيطر المال المتدفق بغير حساب، فأصبح القاتل مجهولا وأثبت ذلك فى دفاتر الحكومة واختفى شبح الشاهد المجهول فى الظلام لحظة ارتكاب الجريمة. أقول لك يارجل، ان شئت أن تحب فليس لك فى قلبى مكان، وإن شئت أن تلهو فإننى لم أنحدر بعد الى ذلك الدرك المهين حتى أستطيع أن أرحب بك، ويمكنك أن تنزل ضيفا بالقاهرة على السيدة التى تعرفها جيدا. تستطيع شقيقتها الطيبة"لولا" أن تدلك على عنوانها.

سيدى المحامى

أرجو ألا تحيطنى برعايتك أو اهتمامك مرة أخرى وترسل لى خطابات جديدة لأننى لن أتسلمها. ثق من ذلك. واسمح لى أن أعبر لك عن تمنياتى الطيبة".

****

شعرت وأنا أكتب هذا الخطاب أن هناك شيئا من التناقض بين قناعاتى المستقرة فى حب مدينتى والحى الشعبى الذى أعيش فيه ، وبوابة مورو بناسها وبيوتها وطرقاتها، وبين

الكلمات القاسية التى وجدت نفسى أتعمد كتابتها لحمدى حتى أضمن أن يبتعد عن طريقى بصفة نهائية، فأنا من الأصل لاتربطنى به أية مشاعر عاطفية ، فضلا عن أن ملاحظتى لسلوكياته أظهرت لى أنه يتيه فى كبرياء زائف أجوف لمجرد أنه حصل على شهادة جامعية. أشعر بإشفاق عليه وأنا أراه يتصرف كما لو كان من سلالة عائلة ارستقراطية لاتعرف الحوارى والأزقة التى نعيش فيها. تنطبق عليه المقولة الشعبية:"محدث نعمة". إنى أرى فى هذا الصنف من الشباب مصدر خطر شديد على مستقبله ومستقبل من تفكر فى الارتباط به. تطلعه الجامح الى حياة الطبقات العليا من المجتمع قد لاتتواءم مع قدراته العلمية والثقافية والمادية، كما يقتضى التطور الطبيعى لأى انسان سوىّ. مناقشاتى السابقة معه – وإن كانت محدودة – كشفت لى عن هذا الجانب المظلم من خوائه النفسى. هذا النوع من الرجال ربما يبيع نفسه لقاء الحصول على ثروة أو سلطة ، ويقينى انه لا أمان فى معاشرة من مثله أو الاطمئنان الى حبه أو حتى صداقته.

بعثت اليه بالخطاب مع أحد صبيان الحارة ، وظللت جالسة بجوار الشباك حتى حل الظلام. أتأمل فى حياتنا نحن أبناء الفقراء الكادحين، وكيف كتب علينا أن نمضى أعمارنا فى شح وعوز واحتياج. ايمانى بقضية الرزق لاحدود له، لكنى رغم ذلك أشعر بقدر من الأسى على هذا المصير الحياتى الذى لم يكن بيدى أو يد أبى أو أمى أن يغيروه الى الأفضل. لذلك آثرت الاستسلام.

****

ليس من السهل أبدا أن يتسلل النوم الى جفون إنسان متوتر يسكن فى بوابة مورو. مظاهر الحياة لاتتوقف حتى مطلع الفجر لتعاود نفسها من جديد. من الطبيعى أن يسمع بين الحين والآخر هتافات ونداءات عديدة مختلفة، كصرخة امرأة يضربها زوجها بعنف ممزقة سكون الليل وهو يصيح:

- لم لم تعملى ماطلبته منك؟ تعصين أمرى يا مرة؟!

أو كفحيح شيخ فى السبعين يختلط نداؤه بصوت المؤذن عند الفجر. ينادى بنبرة نعسانة وجفون مسهدة:

- الفول اللوز

أو كخرير المياه تنساب فى إصرار من ماسورة غليظة صدئة على ناصية الطريق الخلفى للبوابة. تمتصها الحشائش الشيطانية ليرتع فى مستنقعاتها المعمرة أطفال البوابة ، وترتع معهم أسراب الذباب فى الصباح ، والناموس والصراصير فى المساء.

تقع البوابة فى بداية شارع الموازينى العتيق عند بداية تقاطعه مع امتداد شارع رأس التين، أى بعد تقاطعه مع مدخل زاوية الاعرج بأمتار قليلة. عن اليمين تبدو البوابة كأثر فرعونى اسلامى رومانى شديد القدم. مدخلها قوس كبير أحجاره جيرية متآكلة. بداخلها ومن حولها تتناثر بيوت صغيرة واطئة هى أقرب الى العشش منها الى البيوت. ويأتى صياح السابلة كأصداء تتردد بين جنباتها، تمتص بعض ترددداتها الأحجار المتراكمة التى أنهكتها الشيخوخة، والأخشاب المتناثرة فى كل مكان، وتنبعث بقيتها مخترقة الآذان فى إلحاح حتى تقودنا الى مركز القبو ، حيث يعيش السيد طلبة النجار. الرجل الطيب الذى يحبه الجميع ويلجأون اليه لحل مشاكلهم التى لاتنتهى، حيث يجتمع بهم فى المقهى الكائن على ناصية الشارع الضيق.

أرنو الى البيوت الواطئة ذات الشرفات الخشبية المسوسة الباهتة اللون والمفصلات الحديدية الصدئة بفعل رطوبة البحر المالحة ، والنوافذ الطويلة المتلاصقة وقد رصت على حوافها صوان معدنية قديمة ، تتوسدها قلل وأباريق فخارية ذات أشكال وألوان وأحجام مختلفة.

حين ينتابنى القلق – وكثيرا ما يحدث ذلك – أخترق فناء البوابة العريض متمهلة على البلاط الجرانيتى المستطيل، الذى يرتفع وينخفض مستواه – مع القدم – عن سطح الأرض كيفما اتفق منذ عشرات أو مئات السنين ، يعلم الله.

أتجه بحكم العادة الى البحر. الشيء الوحيد الذى يمكنه أن يمتص قلقى من الحياة وشكى الدائم فى الناس. أنا انسانة غير مستقرة الوجدان. طفولتى المعذبة تركت آثارا وجروحا لايستطيع غير البحر مداواتها وكيّها وعلاجها ، بعد أن يكشف عنها أمام وعيى حتى أتمكن من مواجهتها. أقصده ملهوفة للقائه لأرتشف من ريق حبه الجارف ، وهو يضم أسرارى وانفعالاتى وهواجسى وآمالى وأحلامى المحدودة. تشاركه فى مواساتى نوارس البحر الوديعة التى أرى فيها أطفالا أنجبتهم من رحمى. أصواتها تصدح فى أذنى كموسيقا صاخبة تحوى أسرار الحياة. أرى فيها الحرية مجسدة أمامى بمفهومها الحقيقى ، مثلما أرى الزمن فى البحر وهو يتقلب من حال الى حال.

أحيانا أغادر رأس التين والأنفوشى والحجارى والسيالة متجهة الى الميناء الشرقى. أمضيت عمرى أحلم بالسكن فى هذه المنطقة الراقية. كنت أعلم يقينا باستحالة تحقيق هذا الحلم، إذ كنت أرى فى سكان هذه المنطقة طبقة اجتماعية بعيدة المنال عن خواطرى وأحلامى.

يمتزج أريج البحر باصطفاق أجنحة النوارس بوجيب قلبى الخائف دوما من الدنيا ، فأهيم فى عالم سحرى من الجمال يدفع بالطمأنينة الى نفسى.

حمدى يخشى المواجهة المباشرة فيكتب لى خطابا يبثنى فيه غرامه غير الناضج. عندما تجمع بيننا مصادفة أراه يتعثر أمامى خجلا وارتباكا. أتعجب حين أراه يحوم حول بعض نساء الحى من المطلقات والأرامل، أو حين أراه مصطحبا احدى الساقطات الى حيث لا أعرف، أو حين يتردد على "أبنجايه" قوادة السيالة الشهيرة. فى المرات القليلة التى تحدثنا فيها معا على الشاطىء، كان حديثه الوحيد الذى امتلك عليه قلبه ولسانه وكل عواطفه، عن مشهد مهين يتفنن فى وصفه والألم يقطر من روحه. مازال المشهد ساريا فى دمائه منذ أن رآه طفلا غض المشاعر أخضر القلب. يقول:

" ما حدث لأبى جعلنى أكره هذا البلد من قلبى وأفتقد الانتماء اليه كلية. إننى وأبى ومن هم على شاكلتنا أغراب عن البلد مغتربين فيه ، بينما ننام على أرضه. وكيف أنتمى الى وطن لاينتمى الىّ؟.. كرامة أبى تمرغت على أسفلت الطريق أمامى مع دمائه السائلة على الأرض ، وعربة البوكسفورد تسحبه وتسحله وهو متشبث بها لست أدرى لماذا.. اللحظة التى سقط فيها على الأرض حين تخلت يده عن العربة رغما عنه، هى نفس اللحظة التى سقط فيها إيمانى بمعنى الوطنية بمفهومها المحلى والعالمى. لو حدث هذا فى غيابى لاختلف الأمر معى كثيرا، لكنه حدث أمامى فآلم أبى أكثر مما آلمنى. استطاع أبى تجاوز الأزمة بعد حين، أما أنا فلم أستطع ، ولن أستطيع لأننى لست أريد ذلك".

رغم تعاطفى الشديد معه إلا أننى أرفض الكثير مما يبوح به من أفكار حادة متطرفة ، لست أعرف من أين جاء بها. كان ينتظر منى مشاطرته المأساة ، لكن القدر شاء أن يمر"حنتر" فى هذه اللحظة ليثير ضحكى رغما عنى ، فأبدو أمامه غير مكترثة بهمه دون أن أقصد.

"حنتر" فى حوالى الخمسين من العمر. عملاق بالغ الطول والعرض. رأسه المفرغة من أى فكر تشبه – فى الشكل فقط - رأس برناردشو الذى تعلمت على يديه معنى الاشتراكية والرأسمالية والشيوعية ، حين قرأت له كتابا كبيرا مستعملا ، اشتريته بخمسة قروش من إحدى العربات. كان عنوانه:"دليل المراة الذكية". أجاب فيه عن سؤال لسيدة عن الفرق بين هذه المذاهب الثلاثة، فأشار لها الى رأسه التى كانت غزيرة الشعر فى جوانبها، صلعاء تماما فى منتصفها، مدللا على الفارق بين المذهبين بسوء توزيع الشعر على رأسه توزيعا غير عادل ،يمثل فى نظره الرأسمالية حيث الغزارة فى الانتاج وانعدام العدالة فى التوزيع، على عكس الاشتراكية حين ينبغى أن يكسو الشعر الرأس بأكملها فتكون الغزارة فى الانتاج مصحوبة بالعدالة فى التوزيع.

كلما رأيت "حنتر" تذكرت برناردشو. لكن حنتر يتفلسف بأسلوب مختلف، فهو يحمل فى يمناه مبخرة مشتعلة يتصاعد منها دخان البخور الذى يجدد وضعه فيها فوق قطع الفحم المشتعلة من حين لآخر. كما يحمل على كتفه الأيسر قطة لاتفارقه أينما ذهب، وعندما ماتت

استبدل بها نسناسا صغيرا. يسير – فى وقار وجدية شديدين- حاملا كل هذه الأشياء متوازنا بغير اهتزاز كما لو كان لايحمل شيئا. المهم أنه لا يكتفى بالمرور على دكاكين الأزقة ماشيا ليجمع مايجود به عليه أصحابها من عطايا، وإنما يصر على ممارسة رياضة غريبة فينزل الى الأرض ثانيا ركبتيه ثم يعاود الوقوف، وهكذا فى حركات دورية متعاقبة منتظمة دون أن تسقط مبخرته أو يسقط قطه أو نسناسه. وقد اعتدنا أن نرى من خلفه جماعات من الصبية المعجبين به والمبهورين بما يفعل. وأثناء إجراء انتخابات مجلس الأمة قرر حنتر أن يرشح نفسه دون أن يخوض الاجراءات الرسمية المتبعة فى هذا الشأن. اكتفى بأن أعلن ترشيحه شفاهيا لسكان المنطقة. منذ ذلك الحين صار يتجول فى أحياء بحرى كما يفعل المرشحون الآخرون، ومن خلفه تسير زرافات من صبية الحى تردد الهتاف من خلفه:

- انتخبوا مين؟
- حـــــــــــــــــــــانتر
- أبوكم مين؟
- حـــــــــــــــــــــانتر

وذات يوم اقتحم دكان أنور الحلاق المعروف بجبنه الشديد ، والذى كان يخشى حنتر ويعمل له ألف حساب وحساب. أنزل حنتر القطة من على كتفه وقال بوقار شديد لأنور:

- احلق للقطة يا أنور يافرع الهمبكة

كان أنور يحلق لزبون جالس على المقعد وقد وضع الفوطة حول رقبته وحلق مايقرب من نصف ذقنه. على الفور ترك أنور الزبون دون حتى أن يستأذنه أو يعتذر له . وضع القطة على مقعد آخر وراح يحلق لها وهو يرتعد خوفا من بطش حنتر.

وبينما أضحك ، ينظر اليه حمدى فى ضيق شديد. يقول بنبرة غاضبة:

- أنا أحسد هذا الحيوان على حاله
- كيف؟
- لا تسأليني كيف. المهم أنه أسعد حالا منى بكثير
- ومن أدراك ؟
- لأنه ليس مجنونا أو مجذوبا كما يدعى. هو كذاب كحكامنا وضباطنا..ويبدو أن عينى حمدى قد حسدتا حنتر ، الذى قرر مؤخرا أن يمارس هوايته فى الثنى والمد على ساقيه وهو حامل مايحمل، ولكن على سلم ترام بحرى العتيقة وهى تسير متجهة من رأس التين الى المنشية ومحطة الرمل محدثة صوتها المميز. حاول كثير من الكمسارية إثنائه عن عزمه دون جدوى لأنه يعوق صعود الركاب ونزولهم. أثناء ثنيه ومده كان يردد عبارته الشهيرة الموجهة للجميع:

- آه يافرع همبكة يا اولاد ال...

لاحظ أن دخله من ركاب الترام يفوق بكثير دخله من أصحاب المحلات"البخلاء" ، فاستمر فى لعبته الخطرة حتى اختل توازنه يوما فسقط تحت العجلات وكانت نهايته. غير أن البعض ينفى هذه الشائعة. يقولون انه راهن رجلا – على نصف فرنك - أن يضع يديه على قضيب الترام أثناء سيره دون أن يحدث له شىء. فلما فعل ذلك بترت يداه ومات.

حديث حمدى يثير فى ذهنى قضية الانتماء التى تعلمت من قراءاتى المتنوعة أنها قضية محسومة تبدأ بانتماء الطفل الى ثدى أمه ثم تمر بانتمائه الى أبيه وأسرته ومدرسته ومكان عمله وحيه الذى يسكن فيه ومدينته التى يقيم بها فوطنه الكبير ، يعقبه الكون العظيم ثم ينتهى ذلك الانتماء بالخالق الأعظم. أما الانتماء للوطن فإنه لايتحقق الا بتبادل التوقيع بين الوطن والمواطن على وثيقة تعاقدية هى وثيقة الانتماء، فإذا لم يوقع أحد الطرفين أصبحت الوثيقة لاغية والعقد باطلا."كرار" العجوز العنيد. أحد معالم حارة الحدينى. انتماؤه للملك فاروق. كلما يمر موكب عربات رجال الثورة فى اتجاههم الى قصر رأس التين لاستقبال ضيف أجنبى ، يعترض كرار الموكب مخترقا الصفوف صائحا فى حماس وإخلاص بأعلى صوته:

- عاش الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان

يحمله العساكر والمخبرون كذبيحة عفنة. يلقون به الى أقرب زقاق بعيدا عن طريق الموكب. يركلونه بضع ركلات ويسبونه كيفما شاءوا ثم يتركونه لحاله، دون أن يتوقف عن هتافه للملك. المصور مصطفى فهمى. انتماؤه وولاؤه لجماعة الاخوان المسلمين، مثل الدكتور حسن شقيق حمدى. كلما يمر الموكب إياه يهجم الزبانية عليه.يعتقلونه. يغلقون محله. يبيت فى التخشيبة. يظل يقرأ القرآن حتى الصباح. يتحمل بعض السباب والركلات.فى صباح اليوم التالى يطلقون سراحه. حاول مرة الاختباء فى "الاسطبل" المواجه للاستوديو المتواضع الذى يملكه. أراد حسن"بزو" و"ابو جاموس" صاحبا الاسطبل اغراء المخبرين برشوة مالية حتى يتركون مصطفى لحاله، لكن كبيرهم رفض قائلا:

- لانقدر يا معلمين. نحن ننفذ التعليمات.

حظيرة أو "اسطبل" رأس التين معلم هام من معالم المنطقة. خادمه الأساسى هو السايس"غواصة" ذو الساق ونصف. كان يشكو من ضغط العمل عليه إذ يقوم بغسل الأحصنة وإطعامهم وتنظيف آثار مخلفاتهم، فضلا عن اعداد الشاى والقهوة عشرات المرات طول النهار والليل للمعلمين. أسعده الحظ بقدوم فاروق الغربى(بضم الغين)هاربا من أهله بإحدى القرى من ضواحى طنطا. لم يعرف أحد سبب طفشانه من أهله ووطنه الى الاسكندرية بالذات. من هنا أطلق عليه حسن بزو لقب الغربى ، بمعنى الغريب عن البلد. كلما أراد منه شيئا يناديه نداء ثابتا لايتغير فى جميع الأحوال :

- ياوله يافاروق. ياغربى يابن الكلب. قم ياوله اعمل لنا اتنين شاى
- ياوله يافاروق. ياغربى يابن الكلب. قم ياوله اغسل لك حصانين

وهكذا...

هناك سبب محدد أو أسباب مؤكدة تلك التى دفعت بفاروق الى التخلى عن انتمائه لأهله وقريته فجاء يبحث عن موطن انتماء جديد، وجده فى الاسطبل بين الخيول والحمير. ساعة العصر يغنى فاروق بصوت أجش أغان لم نسمع عنها فى أى مكان وقد انتهى من واجباته وتحرر من نداءات حسن بزو المزعجة. أغانيه تفيض حزنا وشجنا على أشياء كثيرة مفقودة يحن اليها ويتمنى أن تعود اليه أو يعود اليها. يشرب الشاى محدثا صوتا مزعجا أقوى من أزيز طائرة ، ويتمطى على الأرض واضعا ساقا فوق ساق.

أحبه أبو جاموس كما أحبه حسن بزو، مثلما أحبهما هو الآخر وأحب الخيول والحمير والناس، أما الاسكندرية فقد بلغ حبه لها مبلغ العشق. تعاطفت معه نساء الزقاق فصرن يبعثن اليه بالطبيخ واللحم والفاكهة. لا لأنه يخدمهن ولكن لأنه – كما يقول عنه حسن – "غربى".

يستأذن من معلميه للصعود الى بيتنا أحيانا أو بيوت بعض الجيران، ليشترى لهم الخضروات من "الشنطورى" أحيانا ومن"فلوطة" أحيانا أخرى حسب مزاجه اللحظى . الشنطورى وفلوطة ملتصقان بالزقاق منذ عشرات السنين. الخضروات والطماطم موضوعة فى أقفاص على الرصيف. كل منهما يختص بزاوية، فلا دكان ولا أرفف ولكن كل شىء على الأرض فى تجاور حميم، لايعرفان من خلاله تنافسا أو غيرة أو رغبة فى التميز أو مزيدا من الكسب. غير أن فلوطة متحرك يتحاور مع الزبائن ويناقشهم ويتحمل فصالهم فى السعر ، أما الشنطورى فيجلس مسترخيا على مقعده يدخن الشيشة تاركا الزبائن ينتقون خضرواتهم ويزنونها على الميزان بمعرفتهم كما لو كانوا مفوضين من قبله بذلك ، ثم يدفعون له ثمن المشتروات دون أن يتبادل معهم كلمة. لو شاء أحدهم أن يسرقه لتمكن من ذلك بسهولة شديدة دون أن ينتبه اليه.

اعتاد فاروق أن يشترى السمك لنساء الحارة من "الحمزاوى" أطول وأعرض عملاق فى زاوية خطاب، وأطيب إنسان على وجه الأرض. فاروق يحبه ولايشترى من أحد غيره. لما أصابه المرض العضال وقفت مكانه زوجته"روحية" رائعة الجمال. جمالها وحشى فطرى لايعرف التزين أو التجمل. تستقبل السمك من الحلقة وتبيعه بالتجزئة للجمهور ببراعة تحسد عليها. سألت كيف ولماذا اختارها الحمزاوى كزوجة له وهو الذى كان معروفا بأنه زير نساء ،

لايستقر عند أنثى بعينها. تعجبت كيف استمرت تعاشره كزوجة مخلصة دون أن يحدث بينهما ما يكدر صفو حياتهما الزوجية ، وهو محط أنظار نساء بحرى وإعجابهن بقوته وفتوته وفحولته. عرفت أنه ذات يوم تكالب عليه بعض التجار وحاولوا تكتيفه وانهالوا عليه ضربا بالأيادى والعصى والأقدام. راح يقاومهم بضراوة. تصادف أن كانت روحية فى تلك اللحظات واقفة فى شباك بيتها المواجه للواقعة . استفزها بشدة جبن هؤلاء الرجال المجتمعين على رجل واحد. نزلت على الفور وراحت تضرب معه مهاجميه بالروسية والنبوت حتى تمكن من التغلب عليهم بفضل عونها غير المنتظر له وهو لايعرفها جيدا. فى اليوم التالى تزوجها وعاش معها قصة حب تتحاكى بها نسوة الحى فى إعجاب شديد.

كل هؤلاء أحبائى. جزء منى مثلما أنا جزء من أحلامهم وكفاحهم وطيبتهم وأمانتهم.انتمائى اليهم هو نبع حياتى ومصبها. يسميهم حمدى بالصعاليك متناسيا أنه منهم. الفارق الوحيد بينه وبينهم أنه حفظ بعض الكتب فحصل على شهادة جامعية صارت من ممتلكاته لا من سبله ووسائله لتحقيق حياة أفضل وفكر أرقى وكينونة متحضرة.

هؤلاء أنفسهم هم الذين أسماهم السادة المؤرخون بصعاليك وعوام وحرافيش الاسكندرية.. أجدادهم هم الذين خرجوا مع السيد محمد كريم يصدون هجمة نابليون بونابرت عام1798 على الاسكندرية والعجمى وأبى قير..الذين وقفوا مع احمد عرابى عام1882 يدافعون عن مدينتهم ضد الغزو الانجليزى عندما أمر"أفندينا!!" الخديوى توفيق بحرق الاسكندرية..الذين ساندوا سعد زغلول عام1919 وأقاموا المتاريس فى المنشية واللبان واصطادوا العشرات من جنود الانجليز..الذين خرجوا يوم السبت26 يوليو عام1952 ليشهدوا خروج الملك فاروق مطرودا من قصر رأس التين. ليتك تدرك ياحمدى أنك نشأت من نبت عرقهم ونضال شعبهم ومن أعمق أعماق أزقتهم ورمال شواطئهم.

كل ما استطعته هو أن لجأت الى الريس عبد الاله الذى أظن أنه وراء مقتل أبى، لتستدين منه ثمن تأثيث مكتب لك تمارس فيه مهنة المحاماة. أنت لاتحبه وتصرح بذلك للقريبين منك. بل إنك قلت لى بالنص إنك تكرهه إذ استغل الصيادين واغتنى من دمائهم. لكن الغاية عندك تبرر الوسيلة، فلا بأس عندك أن تقف أمامه موقف الأسير حتى تحصل على بضعة مئات من الجنيهات تصنع بهم مظهرا انت تعلم انه كاذب ومشكوك فى استمراره وديمومته.

****

حمدى أبو جبل

****

فى طفولتى أطلقوا على لقب "جلامبو" باعتبارى ابن"أبو جلامبو" – اسم الشهرة لأبى – وقد تعمدت اسقاط هذا اللقب من اسمى لدى الجميع. أصبحت الأستاذ حمدى المحامى الذى ما أن تفتح قلبه للحياة حتى وقع فى حب أقوى وأهم وأجمل فتاة فى الأنفوشى.

ما أعرفه ويعرفه غيرى عن ليلى أنها فتاة عاقلة متزنة عالية الفكر والثقافة رغم أنها لم تكمل تعليمها الجامعى. ربما يكون ذلك قد تسبب لها فى عقدة ما تجاه الجامعيين. الشباب يخشون معاكستها أو حتى الاقتراب منها. هى التى تنتقى من تخاطبه منهم وتتحدث معه علانية وعلى الملأ ولو فى قارعة الطريق، دون خشية أحد .

****

أن تنزل ليلى عن ترفعها وتكتب لى خطابا فذلك فى حد ذاته معجزة ما كنت أتصورها. اختلطت مشاعرى بين الدهشة والفرحة والمفاجأة. من أين أتت بتلك المقدرة الفائقة على التعامل مع أسرار هذه الأمور ودقائقها الخطيرة ، وصياغتها بهذا الأسلوب البليغ؟..

قد يكون ذلك من تأثير قراءاتها التى لاتتوقف، وهى التى تنكب لساعات طوال على ماكينة الخياطة العتيقة.. أم أن هناك ماردا من الجن أملى عليها ما كتبته كلمة بكلمة؟.. كدت أحفظ ما جاء بالخطاب من كلمات لكثرة ما أعدت قراءته، مرة فى تأن وأخرى على عجل. أقربه من أنفى وعينى. أحاول استيعاب كل ما يمت الى تلك الأوراق بعلاقة مادية أو روحية. لون الورقة. عدد أسطرها. رائحتها المفقودة.الفراغات بين الأسطر.الخط. لون المداد. حتى الألياف التى صنعت منها بنسيج غير مرئى..وأخيرا تلك الكلمات الصاخبة بما توحيه من دلالات تنوء بالقسوة على النفس.

أفقت من شرودى على صوت متحشرج ينادينى. الخالة "ثريا" تسأل عن "حسن". لم أخبرها بحقيقة ماحدث له تكاسلا منى فى اخراج الكلمات من فمى. صممت أذنى عما تلوكه العجوز من كلمات متناثرة بلا معنى.. الأمل لم يبرق سناه. لامعنى اليوم لأخ فى المعتقل يدفع ثمن مبادئه المشكوك فى صحتها، ولا لرجل عنيد متشبث بروحه وجسده بمؤخرة عربة "الحكومة"، ولا لأم لاتعرف الطريق الى محطة الرمل، ولا لدين ثقيل ينبغى أن يسدد لصاحبه، ولا لقضايا ثلاث تافهة. لا معنى اليوم لأى شىء سوى الأمل فى انتشال ليلى من جحيم مأساة زائفة تتفنن فى الالقاء بنفسها بين أتونها بلا هوادة.

قررت بلا تردد أن أذهب اليها ، وليكن ما يكون. استقبلتنى أمها بحنان زائد وطيبة فطرية لاحد لعذوبتها.

- تفضل يابنى..البيت بيتك

كانت عيناها متجهتين فى حذر الى ابنتها لحظة قدومها، كما لو كانت تنتظر منها الإذن لتسمح لى بالدخول. من الواضح أن ليلى هى حاكم المنزل بلاجدال. انسحبت الأم فى وداعة متعللة بإعداد الشاى.

- زيارة عزيزة يا أستاذ حمدى

كانت عبارات الترحيب أشبه عندى بطلقات مدفع.لم تأخذها المفاجأة ، بل لم تهتز حتى تعابير وجهها الوسيم لزيارتى المفاجئة والأولى فى الوقت ذاته. خيل الى انها ستكون الأخيرة أيضا.

جلست أمامى.وضعت ساقا فوق الأخرى ، وقد ارتدت فستانا شعبيا متواضعا لكنه كان غاية فى الأناقة والنظافة. استطعت بصعوبة بالغة – رغم حبى لها- أن أمنع نفسى من النظر الى ساقيها العاريتين المخروطتين فى جرأة واثقة.

- خير يا استاذ حمدى؟ ألم تقرأ خطابى؟
- بل قرأته جيدا
- لماذا جئت اذن؟

- أهكذا يكون استقبال الكرماء للضيف؟
- الكرم ياسيدى مرتبط بالخير حين يزيد عن الحاجة ، وذلك شىء نفتقده هنا تماما
- ستفسدين حياتك بهذه العقلية
- لكنى مقتنعة تماما بها.. ما رأيك؟
- ان كنت تريدين الاستماع الى رأيى ، فهو انك انسانة شديدة القسوة على نفسها ، تحمل الأمور فوق ما تحتمل
- أرجو أن تدعنى وشأنى فلست على استعداد لتحمل المزيد من المتاعب
- ليلى.اننى أحبك. ألا تفهمين؟

كانت نظراتها الساخرة تقول لى صراحة: "اتلم المتعوس على خايب الرجا".

- يمكننا أن نخلق معا حياة جديدة. أنا واثق أننا نستطيع أن نفعل شيئا
- لست أحب الشعراء ومدمنى الخيال
- أرجو أن تتيحى لنفسك ولى فرصة نخلق فيها تفهما عميقا من أجل سعادتنا المشتركة
- سعادتى لن أحصل عليها الا بين ذراعى تعس مثلى لايستطيع أن يكسب أكثر من قوت يومه
- هذا هو الجنون نفسه
- ولكنها حقيقتى كما أعرفها
- ان آرائك المتطرفة تثير فزعى وتجلب لى الحسرة
- لاشأن لى بفزعك أو حسرتك. ألم تقل انك قرأت خطابى
- قلت لك اننى كدت أحفظه
- اذن فماذا تريد منى الان؟
- أناقشك فيما جاء به من اتهامات باطلة ونصائح زائفة
- يبدو أننى اخطأت إذ سمحت لنفسى بالكتابة اليك

تثيرنى ثقتها الزائدة بنفسها الى درجة الغرور ، رغم أن الحزن يتقاطر من مفرداتها ومع نبرات صوتها. لست أدرى كيف استطاعت تلك الأفكار السوداوية المتشائمة أن تتمكن من روحها الى هذا الحد. واصلت تحديها العنيد قائلة:

- أرجو أن تكف عن الحديث فى هذا الموضوع.
- فيم نتحدث إذن؟
- الحق أننى لست أرغب فى مواصلة الحديث معك
- هكذا؟!!!
- تماما..وأرجو ألا تشرفنا بزيارة ثانية فالأمر هنا يختلف كثيرا عن زياراتك الأخرى التى تعرفها جيدا

كانت صدمتى أعنف من أن تحتمل. طرد وإذلال. توجهت على الفور الى الشاطىء. خلعت ملابسى واندفعت الى البحر ملاذى الوحيد. أسبح الى بعيد حتى أصرخ فلا يسمعنى أحد، وأبكى فلا يرانى أحد. آه لو تعلمين ياحبيبتى. آه لو شاء حظك العثر أن تقع عيناك الخضراوتان الحالمتان على جسد محبك التعس فى لباسه الداخلى المرتق. أنت أكثر واقعية من الواقع. جعلتنى أشك فى ان كان من حقى أن أحب أم لا. أيعقل أن يعيش اسمى أو تعيش صورتى ولو للحظة عابرة فى خيال ليلى؟ أم أتجاسر وأشتط فى جموحى فأجدها فى يوم من الأيام تبادلنى الحب؟..ياجسدى المكدود. اغتسل جيدا فى هذا الماء المالح الطهور، فإزالة أوساخك أمر هين. لكن كيف يمكن للماء أن يغسل مرارة النفس ولوعة الفؤاد. من كلية الحقوق الى حارة ابن الفرات سيرا على الأقدام.ما يقرب من عشرين كيلومترا. ضريبة يومية أدفعها للأمل المجهول ، حتى لا تنزف الدماء من جديد خلف عربة مسرعة يسمونها عربة الحكومة..وتفرز معدتى أحماضها الكاوية تسحق فى ساعات قليلة رغيفا أسود وطبقا من الفول كل يوم. كل يوم. وعلى طبقة الشحم التى علمونا انها تقع تحت الجلد مباشرة، أن تتحمل بعد كل ذلك صقيع الشتاء على

شاطىء الأنفوشى بين هياكل السفن والمراكب المبعثرة على الرمال وبقايا شباك الصيد المتآكلة والحديد الصدىء. كل يوم. ويا أملا أنسف بك جدار الخوف الأصم ، ربما يشرق فى الغد شعاع من شمس السعادة المفتقدة وسط هذه الظلمة الحالكة.

بعد أن جف جسدى بفعل الشمس دون منشفة ، هاجمنى شعور مرير بالوحدة. بدأت فى ارتداء ملابسى. كنت بحاجة ماسة الى انسان أتحدث اليه أو حتى أراه ويرانى دون أن أتفوه بكلمة واحدة أخاطبه بها.. أبى..أووووه.لقد أصابنى الضجر من عودتى الدائمة اليه. مات ياحمدى فماذا بعد؟.. لتمت ان شئت حتى تظفر بلقائه والتحدث اليه، لكن عودتك الى الحياة بعد ذلك ليست مضمونة. أنت مجنون بحياة فيها ليلى. ليلى ماء شاطئك ورماله وأمواجه. طردتك من منزلها. فى استبدادها غباء لايليق بمحبوبتى. تحدد لى من أحب ومع من أغامر..حسن؟..بين جدران أربعة يقبع الآن فى صمت جامد الوجه صفرى الحركة يجتر فى ذهنه أفكار السلف الحالمين بعودة الخلافة المتخلفة.."لولا"؟..لعله الاختيار الأقرب للصواب..أمى؟..لم أعد أطيق احتمال المزيد من الحنان الغريزى ، مثلما لا أطيق آهات الألم الصادرة عن شقيقتها المسكينة التى شلت حركتها حين تلقت نبأ غرق زوجها وابنها الوحيد فى ليلة صيد عاصفة..لكن الصورة تلح. تلد من رحمها صورة حسن يحكى لى باعتزاز شديد عن المعلم "أبو جلامبو" وعربة الحكومة.

لاتفجر آلامى من جديد يا حسن. لقد شهدت المأساة بعينى معك. صحيح أننى كنت صغيرا، لكنى شممت رائحة القهر وتذوقت طعمه المر. كنت أرى فى أبى جبلا عملاقا لن يزول الا بزوال الأرض ومن عليها يوم القيامة. لكنى صدمت صدمة العمر حين رأيت هزيمته وانكساره وانسحاقه.. كيف يسقط المعلم" أبو جلامبو" بهذه البساطة؟!..

جلست أمامه فى صمت وخشوع. أذكر تماما أننى لم أبك رغم كل ما رأيت من هول. كان وجهى جامدا تماما.قلت له بكل ما أوتيت من قدرة على رفع معنوياته:

- هون عليك يابا..بكره نعمل منشرا غيره ..ولايهمك
- خلاص يابنى.لا فائدة..لا مفر من نزول البحر

واستمعت الى قراره النهائى الحاسم وقلبى يرتجف حزنا على نظرات اليأس التى أراها فى عينيه لأول مرة وقد لازمته منذ طفولتى كظله.

استسلم المعلم"ابوجلامبو" اذن. أصبح شأنه كشأن مصطفى سبرتو وخميس فلفل وطيطة وغيرهم من المستسلمين.تساءلت هل يعقل أن يسقط المعلم ويستسلم بهذه البساطة وهو يعنى تماما مايقول بشأن العودة الى مركب الصيد وليالى الشتاء العاصفة القاسية. الآخرون سوف يعودون حتما الى نهب المساكن والمحلات وإثارة المعارك والمشاكل مع طوب الأرض. بكيت رغما عنى ياحمدى. لم يفارق ذاكرتى مشهد أبى وهو متشبث بجسده فى مؤخرة العربة والدماء تنزف من وجهه، ولما كبرت قررت أن أبحث بين الكتب عن الوسيلة التى تكفل لكل انسان ألا يتأذى بصره وتتحطم انسانيته وتسحق كرامته بالتعرض لمثل ذلك المشهد البغيض. درست سائر الديانات المنزلة ومذاهب الاقتصاد والفلسفة وآراء أساطين الفكر والمعرفة علنى أهتدى يوما الى هذه الوسيلة.

****

عدت الى الهرب من العواطف الالزامية، فما دمت قد فقدت أبى دون سبب ، فماذا يمنع أن أتجاهل وجود أمى أو على الأقل أستغنى – ولو بصفة وقتية- عن عاطفتها الغريزية الغزيرة نحوى؟..كنت أتمنى لو تبادلنا الأعمار أنا وحسن من أجل أن اكون بجانب أبى فى تلك اللحظة التى شهدها والتى آلت به فى النهاية الى زنزانة ذات جدران أربعة كريهة. وسألت نفسى:

- ترى أتصلح يا حمدى لاستكمال رسالة أخيك المنتهى؟.. لكن الى أين تساق؟

اللحظة وقد عششت بكامل مشاهدها فى ذهنك ولم تبارحه. الألم وقد امتزج بدمك. وحسن يسلمك الأمانة فماذا أنت فاعل؟..الطريق. ذلك الطريق. آه.لقد بذلت المستحيل يوما ليقبض عليك فى المظاهرات وتعيش التجربة. كن شجاعا فى مواجهة نفسك بحقيقتك.ليس طريقك.نعم.

لقد قرأت كثيرا من مذكرات حسن التى لم تصل اليها أيدى رجال المباحث الأغبياء. قرأتها ولم تنفذ الى قلبك بالرغم من تحديدها القاطع لكل شىء كالسيف. أنت لاتصلح لحمل المشعل فى ذلك الطريق. لاتصلح ولاترغب. عليك بالبحث عن طريق آخر، ولكن لاتترك المشعل يسقط من يدك فالعربة المسرعة كانت تجر فى أثرها حطام انسان دام ينتظره جندى ليسوقه بعد ذلك الى مقر الشرطة!..

*****

صورته معلقة على الحائط.ساكنة فى مواجهة المكتب.بعد ثمانية وعشرين عاما أبدأ فى البحث عن أبى. الذى أعرفه أننى لسبب ما قد فقدته. لم يبق فى ذاكرتى مايشير اليه سوى شبح أسطورى غامض ، ومعطف- وهمى- أسود قديم باهت كان يحتفظ فى جيب من جيوبه حين يعود فى المساء بقطعة من الحلوى.هه!!..وهم آخر. لكنك تركتنى يا أبى وأنا اليوم فى حاجة الى وجودك. مضطر أنا الى اقتحام غياهب الزمن الماضى لاستحضارك. أكاد أجزم أننى عرفتك جيدا:"محمد أبو جبل" الشهير ب"أبو جلامبو". عرفتك فى شبابك المتمرد. فى كهولتك الحكيمة الصابرة على قضاء الله الصامدة أمامه. أنا واثق أنك كنت رجلا رائعا.

بالأمس دق جرس التليفون بمكتبى. رفعت السماعة بينما أتابع فى لامبالاة ملفات القضية رقم ثلاثة. لم أكن قد تسلمت خطاب ليلى بعد. رفعت عينى عن الأوراق حين جاءنى صوت صارم:

- سيادتك مطلوب للتحقيق

غادرت مكتبى على الفور متجها الى مقر المباحث العامة. قبضوا على أخى الدكتور حسن أبوجبل. لم يحذره أبى يوما من الانسياق وراء تلك الطائفة. كان يداخله اعتزاز غامض بصلابة حسن وارادته القاطعة كحد السيف. ربما كان يرى فيه الخط المستقيم الذى لايعرف الانحناء أو الالتفاف. لم يحذره يوما لأنه لم يشأ أن يقتحم أسوار عقيدته. أعتقد أنه لم يكن ليحثنى أنا الآخر على الاقتداء بأخى لو طال به الأجل. كان رغم أميته يقدس الحرية..ولماذا لم يكن ليدفعنى الى نفس الطريق إن كان يدرك أنه الطريق الأصوب؟..هأنا أحاكمه بسماجة فى غيابه الأبدى على موقف أفترضه. كيف كان يفكر هذا الرجل؟.ليتنى أعرف. صراع فج. لن يشهد أحد نهايته الى الأبد. شعارات تصاغ وترفع، ثم دماء تسيل وتهدر ، ومخلفات آدمية تنسى بين جدران الزنازن والمعتقلات..تنسى!

لم تكن المرة الأولى، لكنى بعد أن غادرت المبنى العبوس فى هذه المرة ، كنت على يقين من أن الوقت قد فات وان الأمل قد مات معه فى انقاذ حسن من متاهات النسيان. تذكرت الخطاب السياسى الهام للرئيس:" أعطيناهم أكثر من فرصة ولا فائدة.. هذه المرة لن يفلتوا من العقاب."..ان البحث عن حقائق مجهولة عمل يدعو الى المتعة والسعادة، ومهما كان من أمر الحقائق التى كان حسن ورفاقه يبحثون عنها، فإننى وجدت أنه لاجدوى من رحلة البحث عن أبى لاسيما وانه قد مات. وإذ تعددت قراءاتى عن أبناء يبحثون عن آبائهم أو أمهاتهم فإننى كنت أصاب أحيانا بالغثيان وأحيانا أنفجر فى الضحك. روايات وأقاصيص وأفلام.مجرد كلمات مكتوبة على أوراق..وعندما ينتابنى الشعور بتفاهة الفكرة التى أحوم من حولها، أجدنى أشك فى جدوى تقديس مشاعر الأمومة أيضا، فماذا لو وجدت بغير أم أيضا؟.. يقول بائع جوال:

- من بلا أم حاله يغم

وقال نصف مثقف:

- ان حنان الأم كفيل بتعويض حنان الأب المفقود

عموما تلك أشياء لن أشغل نفسى بها، فأنا فى الطريق الى "لولا" حيث عجزت عن التخلص من الصورة المعلقة، فهى أمام عينى دائما رغم اقتناعى بلا جدوى الرحلة. ان لم أكن ولدت فلأولد. بل اننى ولدت وكبرت. شابا صرت. أبحث عن الحب على زورق مثقوب يترنح فى محيط يضرب بأمواج الحرمان.. وجلست أمام أبى...

فى تلك الليلة يا أبى لم أجرؤ على سؤالك عن الحب فى حياتك. كان خطبك أقوى وأفدح من الحاح سؤالى.

استمعت اليك وأنت الميت الحى تقص على – وأنا لم أولد بعد – ماوقع. كنت تظن أننى الوحيد الذى يستمع اليك، ثم فوجئنا معا بصوت حسن يقول بصرامة:

- لا..لاتفعل يا أبى..لاتفعل

وانتهى المجلس بإذعانك لرأيه دون مجرد الاستماع لما سأقول وأنا المقصود أصلا فى طلب المشورة.لم تستمع الى رأيى لايمانك الداخلى بموقفك قبل أن يقتحمه حسن بالتأييد من جهة، ومن جهة أخرى لأننى لم أكن قد خلقت بعد ، ولكن كم هو جميل أحيانا أن يترك الانسان نفسه أسيرا لسحر الأحلام والأوهام. رفضت يا أبى أن يتغير حالنا بين يوم وليلة من معدمين الى أثرياء نظير عمل تافه. أن تترك المخدرات فى كوخك الصغير على الشاطىء بضع ساعات حتى تغرب الشمس. لن تفعل شيئا على الاطلاق ، ولا شأن لك بمن يضعها فيه أو بمن يأخذها منه. ورأيت يا أبى – قبل أن تموت – الريس عبد الاله بعد أن تبدلت حاله وهو يقود سيارته الجديدة فى أزقة حينا الضيقة رائحا غاديا بلا هدف سوى استعراض ثرائه الذى لم يكن يحلم به شأنه فى ذلك شأن كل"محدثى النعمة". كنت تضحك من تنافر العلاقة بين مظهره وفخامة السيارة، ومن سخريته منك بعد أن نجحت ضربته بدون معونتك فأصبح من ذوى الأملاك وبدأ يفكر جديا فى تعلم لعبة التنس!..وخضت البحر يا أبى وخضته معك بروحى من قبل أن تهبنى الحياة، وآلام العظام تنحر فى نخاعك. تسحب الشباك فى صبر وأنا أجدف لك، وتغنى بصوتك الرخيم:

يا اسكندرانى يابو العباس... ياحامى حى السيالة
فى الصيف تجيلك كل الناس... وقلوب كتير لك ميالة
يا اسكندرانى...آه

وتهب العواصف وتهطل الأمطار، ويومض البرق ، ويقعقع الرعد ، وتخلو الشباك من الصيد، وأنت ثابت يا أبى كالطود ، وأتأملك!.

أيقنت أننى حين أقحم نفسى على الحياة بأثر رجعى، فإنما أخلط بين وجودى وغياب حسن ، فأعطى لنفسى الحق- بلا وجه حق- فى أن أحل محله فيما كان يرويه عن أبى استجابة لرغبتى الجنونية الملحة فى معرفة كل شىء عنه، ولطالما عاهدت نفسى ألا أعقد الأمور وأن أدع ما لحسن لحسن، فالذى خاض البحر معه هو حسن ولست أنا، والذى أمسك بالمجدافين هو أيضا حسن ولست أنا، ولكنى دوما ما أنسى العهد.لماذا؟.لست أفهم...ثم تخلصت أخيرا من حسن، وعلى أثره من أبى ، ولم يبق فى مخيلتى سوى"لولا" جارتنا الحسناء ذات الأربعين ربيعا.

حثثت الخطى فوصلت الى منزلها ووجدت نفسى جالسا أمامها وخيالى يسبح فى فراغ.

- كنت قلقة عليك ياحمدى. لم تزرنا من زمان
- لاتقلقى..عمر الشقى بقى
- وأخبار حسن؟
- صادروا كتبه ومذكراته ورحلوه الى سجن القلعة
- لاحول ولا قوة الا بالله

المرة الرابعة التى يقبض فيها على حسن. المرات الثلاث السابقة كانت خلال دراسته فى كلية الطب بتهمة القاء الخطب فى جموع الطلاب وإثارة حماسهم ضد النظام ودفعهم الى حالة صارخة من الغضب الجامح والعصيان المدمر. يكبرنى حسن باثنتى عشر عاما، ونصيحتى له تعد سخافة لاقيمة لها. أشعر بالسأم الشديد حين أتذكر أى شىء يمت لموقفه بصلة. أخى الوحيد. شىء لامفر منه. لكن ماشأنى بأخطائه ولماذا أفسد حياتى أنا الآخر؟..

ملأت عينى بتكور نهديها الصغيرين. صارت كل الصور والأشياء فى عقلى مكورة.لاحظت بغريزتى خلو المنزل الا منها. سألتها فى خبث مغلف بالبراءة:

- أين البنات؟
- عند صديقة لهما

- والأستاذ مرسى؟
- والله لا أعرف.. هو خرج والسلام

ذهبت تعد لى كوبا من الشاى.أدرت مفتاح الراديو. أغنية راقصة ، علها تزيل الغمة المخيمة على الحديث، أو تخفف من حدة توترى الملحوظ لمجرد احساسى بالانفراد بها. تقدمت منها خطوات قليلة معلقا بكلمات عابرة على كلمات الأغنية، محاولا وصل ما انقطع معها من حديث. الحق أن بصرى قد تعلق بشدة باستدارة ردفيها. ابتلعت ريقى فى انتظار كلماتها. سكتت قليلا ثم قالت فى بساطة محيرة:

- هات كرسى وتعال هنا ياحمودة

ما من شك فى أن "حمودة" هذه لاتعد الا تدليلا لى،والبساطة المذهلة التى تعاملنى بها هذه المرأة تربكنى أكثر وتجلب لى المزيد من الحيرة بشأن فهم نواياها. فى نظراتها فتنة ورقة ودلال، الا أننى لم أستدل ولو لمرة واحدة خلال لقاءاتى العديدة بها على خيط رفيع يشير الى رغبتها أدنى الاشارات وضوحا.

حملت مقعدا قريبا منى وتوجهت آليا الى حيث تقف أمام الموقد. كان السمك معدا للشواء. صبت لى الشاى وبدأت فى شى السمك وأنا جالس على مقربة شديدة منها. دق قلبى بشدة حين لمحت قطعة من ملابسها الداخلية ملقاة فى غير عناية على الأرض. تناولتها بحذر خبيث ووضعتها بجبن على المنضدة المجاورة.

أعرف تماما أنك راقد فى باطن الأرض وقد ترممت جثتك ثم آلت الى تراب. يالضآلة الانسان مهما عظم. تراب!!.. لكنى أتمنى أن أسألك عن موقفك من الحب. ذلك العالم الأسطورى الملونة لياليه بالسحر والفتنة. موقفك أنت بالذات دونا عن كل من بالدنيا من رجال. مرة أخرى اننى أفتقدك، وأفتقد أخى الوحيد ، وأمعن فى تعذيب نفسى بحب بلا أمل. بالرغم من كل ذلك أجد نفسى باحثا عما يعوضنى عن مفقوداتى حول مؤخرة امرأة لست أدرى ان كانت هى الأخرى تبحث مثلى عن أشياء لا أعرفها. مرة أخرى لست أشك فى أن ديدان الأرض قد نهشت لحمك ، وان التراب قد حول عظامك الى تراب، ومع ذلك فإنى أراك تستمع الى وأنا أقص عليك ماشاهدته بعينى. تستمع الى فى صمت. لاتنطق بحرف. تهز رأسك اهتزازات تحمل معان لا أعرف معظمها. لكن لم أنسى دائما أن رحلة البحث عنك رحلة مملة لاجدوى منها ، مثلما أنه لاجدوى من أى شىء؟..

- وما أخبار الأستاذ مرسى؟
- كما تعرف. يقوم من مرض. يصبح فى مرض
- الله يكون فى عونك ياشيخة
- أعمل ايه ياحمودة..هى قسمتى
- لازم يكون عندك أمل
- فى ايه ياحسرة؟..ماخلاص..راحت علينا

سبق أن طلقت "لولا" من زوجها الغيور. كان يمضى لياليه بين أحضان النساء ، بينما تقتله الغيرة حين يلمحها تحادث أحد الباعة. لم تطق البقاء معه.كرهت سبابه الوقح ورائحة فمه الفاسدة وقبضة يده الطائشة. رفضت بغريزتها وفطرتها أن تظل مقموعة نفسيا واجتماعيا وجنسيا طبقا لرغبة هذا المستبد الذى يعتقد أنه الذكر الوحيد فى المدينة. أقامت بعد طلاقها بمنزل"البشوتى" المجاور لمنزلنا الحالى.سكنت فى الطابق الأرضى. النافذة الوحيدة بشقتها تقع بمحاذاة الأرض تماما. بحكم الجيرة وصداقة الأم لم تنقطع زياراتى لها حتى بعد أن تزوجت مرسى ذا السبعين عاما إيمانا منها بظل رجل ولا ظل حائط، وثقة منها بأنه لن يمارس عليها سلطة ذكورية كسابقه لأنه فى الأصل لايمتلكها.

دوافع مجهولة تجذبنى اليها. هل أنا طامع فى جسدها الثائر وأنا ابن الخامسة والعشرين، أم أننى أشاركها بالفطرة حياة التمرغ فى أوحال العوز والحاجة؟.. يبدو أنها شاءت بعبارتها الأخيرة التى قالتها ببساطة وهدوء أن تهرب من حلقة حصارى غير المحكمة. بدت وكأنها

لاتعير لوجودى بجوارها أدنى اهتمام ، فازداد ارتباكى. تعلق بصرى بقطعة الملابس على المنضدة. لست أدرى لماذا تمثل لى فى تلك القطعة صراع أربعين عاما بين"لولا" والفقر، ثم لم أجد بدا من وداعها.

فى البيت ألقيت بجسدى على الفراش كقذيفة حادت عن هدفها.كانت تأوهات خالتى - لشدة ما تعانى من آلام- تخترق عظام رأسى نافذة الى تلافيف عقلى...والمكتب جديد لم يعرفه الا القليل من الزبائن، وتكاليف تأثيثه مازال دينا علىّ للريس عبد الاله..ذلك الوغد الذى لم يكل من التعريف بجميله لأبى لكل سكان الحى بأنه أثث لى المكتب على نفقته، احتراما لذكرى أبى وصداقته له!!. اللعنة على كل الأشياء. الموت والسجن. الفقر والنساء والحب.. وهى "بدلة" واحدة أتردد بها بين مكتبى ومنزلى والمحكمة للنظر فى القضايا الثلاث التى لم أتول غيرها خلال أكثر من عامين. لو عرف الفشل طريه الى حياتى فسوف أنتحر.آه ياليلى. امنحينى حنانك. لاتبخلى على بنور الأمل.. يا أبى..اللعنة!!.

تنبهت من شطحاتى العلوية الى موقف سفلى محدد: أمى تقدم لى طبقا من"البصارة".

*****

آه من الفراغ واليأس والإحباط !!

أنا غير مقتنع بهذا العمل أو بهذا المكتب. الحياة كلها سلب. أتوق شوقا الى شىء ايجابى يحركنى. يدفعنى الى هدف واضح، لا الى بيت "لولا" مرة ثانية.

كان الجو غائما والبحر هائجة أمواجه ، تتدافع بشدة نحو الشاطىء ناثرة برذاذها الى ماتحت الرصيف. اكفهر وجه الكون كله ، وصارت الدنيا فى عينى مظلمة حزينة تنذر بعاصفة هوجاء تدوى بالبرق والرعد وسيل من المطر.

على الشاطىء أقف شاردا امام البحر الذى يسمونه"كاتم الأسرار" الذى تفرغ أمامه هموم الإنسان وآلامه، حيث يسمع من دون أن يقاطع أو ينتقد.

أريد أن أفصح له عما يعذبنى ويزعجنى ولا أستطيع البوح به لأحد. أنا واثق أنه سيكتم سرى ولن يكشفه لأحد أبدا.

****

ضغطت على الجرس وانتظرت قليلا. عاودت ، ولم يفتح الباب. من الغريب ألا يتواجد أحد بالمنزل فى هذا الوقت. تعودت أن أجد"لولا" بمفردها. "نادية" فى الجامعة و"شادية" فى المدرسة ومرسى فى مكتب الشحن الذى يعمل به منذ احالته الى التقاعد من وظيفته الأميرية السابقة. الجرس مرة ثالثة. ضغطت بشدة، ثم استدرت فى يأس بغية الانصراف، لكنى لم ألبث أن سمعت وقع أقدام مسرعة ، ثم لمحت خيالا يتحرك خلف زجاج"الشراعة". تسللت الىّ البهجة وان كان ذلك التسلل فى حرص.. لتذهب "ليلى" الى الجحيم. سحقا لآرائها السمجة ونصائحها الحاقدة التافهة.."لولا" بوجهها المشرق- رغم ماقاسته من أهوال الفقر- هى الوجه المضىء للحياة. البسمة الحلوة. الدلال الغامض. المشاركة الحقيقية فى البحث عن الطريق.

تقدم ياحمدى..العربة مسرعة تجر فى أثرها حطام إنسان دام. اقتحم. ليست الا امرأة ككل النساء. قبلها بمجرد أن تدخل ولاتخش شيئا. دعك من رواسب التربية الفاسدة المتخلفة وتحرر من الجبن."لولا"رفيقتك الوحيدة على الطريق.لها العذر حين تزوجت ذلك الشيخ حتى تستريح من عناء تسول الرزق بالخدمة فى البيوت وتنجو بتربية ابنتيها. لكنها لم تزل بعد ثمرة ناضجة حرام أن تلقى بين فكى عجوز فقد أسنانه. ألم أقل لك إن طريق"حسن"لايصلح طريقا لك؟. كم هى بعيدة تلك المسافة بين زنزانته ونواياك. فلتقتحم اليوم ذلك السد الذى صنعته بنفسك بينك وبينها ولم يصنعه أحد سواك. تأكد أنها لن تقاوم..لن تقاوم!.

فتح الباب فى تراخ متعمد عن"نادية". الوجه سمح برىء. الرأس ملفوفة بطرحة بيضاء. البسمة وديعة ساحرة. النظرة تشع بالذكاء ، واليد الناعمة تمسك بسجادة للصلاة..

- أهلا يا أستاذ حمدى
- أهلا ..كيف حالك يانادية؟

- الحمد لله. تفضل. معذرة. كنت أصلى
- وحدك هنا؟
- أمى مع "شادية" تستقبلان خالتى فى محطة اسكندرية
- ولماذا لم تذهبى اليوم الى الكلية؟..أليس عند اليوم محاضرات؟
- بالعكس. عندى اليوم محاضرات كثيرة
- غريبة!.. لم اذن؟
- لأنى جالسة بانتظارك

غشيت وجهى سحابة سوداء.تذكرت جملة يتشدق بها أحد أساتذة الجامعة رغم انعدام العلاقة بينها وبين صدمتى:"لاتعطوا أولاد السفهاء العلم". ابتلعت ريقى الذى جف فجأة محاولا أن أتمالك نفسى:

- بانتظارى أنا ؟!!
- نعم..فيها حاجة؟
- لا.لأبدا..وكيف تنبأت بحضورى؟
- لأنك لاتغير مواعيدك يا أستاذ

متلعثما تساءلت فى توجس:

- على العموم خيرا ان شاء الله؟

فى سماحة وجرأة وثقة وأدب وود ، مدت لى يدها وجذبتنى برقة الى الداخل. غرقت فى ذهولى ودهشتى.قدمت لى مقعدا ثم نظرت الى فى تساؤل صامت مريب زاد من حيرتى ورحت فيما يشبه الغياب عن الزمان والمكان. تنبهت الى صوتها وهى تسألنى بنعومة واثقة:

- أعمل لك شاى يا أستاذ؟

آه..تلك النظرات الثاقبة لابد أنها تنطوى على أمر غريب.ذلك الوجه الملائكى الذى حدثتنى ليلى فى خطابها السخيف عن صاحبته.. نادية!..ماذا تريد بالتحديد يارجل؟..أبعد الأفكار عن خاطرى تحوم حول دائرة الاقتراب.مستقبلى مهدد بالخطر.المكتب فاشل. لاسند لى ولا عون. مات أبى. ضاع حبى الوحيد بلا سبب.نظرات "نادية" الواعية كانت تثقب عينى حين أتمادى فى مجلسى مع أمها فى الملاطفة والهزر. على الآن أن أسترجع تلك النظرات. أدرسها. أتفهم حقيقتها. لوم حزين؟..عتاب مستتر؟..اعتراض سلبى على دوافعى الخبيثة التى تكاد تدركها تلك الفتاة المتشبثة بتعاليم دينها..ماذا تريد؟..

وضعت كوب الشاى على المنضدة فى رشاقة ثم جلست بجوارى فى بساطة وثقة. لم يكن نصيبها منى دائما الا التجاهل. كنت أسألها أحيانا عن أحوالها فى الكلية كشىء من تأدية الواجب، ربما كنت أداعب شاربى أحيانا وأنظر بين الحين والآخر الى نهديها البارزين فى اعتزاز أقرب الى الغرور، أما "شادية" فكان نصيبها منى الاهمال التام رغم شقاوتها وخفة ظلها. "لولا" كانت كل همى!.

- الحقيقة يا أستاذ حمدى انا دائما أرتاح لك
- شىء عظيم
- وأحب الاستماع الى آرائك فى أمور كثيرة
- وأنا سعيد بذلك وطوع أمرك
- تحدثنى أمى دائما عن المثل الأعلى الذى يجب أن أحتذى به، وإنى لأجدها فرصة مناسبة للمزيد من التعرف عليك
- ....؟!
- انها مقتنعة تماما بأنك مثال للشاب المكافح الذى استطاع أن يغير مستقبله بمهارة من صياد نهايته الموت بالروماتيزم الى محام مآله الجاه والشهرة بالرغم من أنه بدأ مثلنا جميعا من تحت الصفر

هه!!..متى تنكشف هذه الخدعة اللعينة؟..شهادة الجامعة هى جواز العبور من عالم الآمال والأحلام الى عالم الواقع الكئيب بكل مرارته . ليست كما يظن الشباب أنها بوابة المرور الى المجد والثراء. هى عندى ورقة صغيرة ثمنها التمزق والارتطام بحاجز من فراغ، ثم السقوط فى بئر من الضياع.

- مجاملة لطيفة منكما
- تقصد منها !
- ....
- تعرف يا استاذ حمدى ان زياراتك المستمرة لنا تؤكد لى صحة هذا المعنى
- أى معنى؟
- يخيل الى أن ارتباطك بنا سوف ينتهى بانتهاء انتمائك الى بحرى
- عيب يانادية أن تظنى بى هذا الظن. أنا أعتبر نفسى فردا منكم

واصلت تعليقها وكأنى لم أقل شيئا:

- ولن تفكر حينئذ فى زيارتنا ولو لمرة واحدة
- أنت تبالغين كثيرا. لماذا تفكرين بهذه الطريقة؟
- لأنه لن يكون لديك متسع من الوقت، وعن نفسى سألتمس لك العذر
- تأكدى يا نادية انه لن يمكننى الاستغناء عنكم، فليس لهذا السبب يدوم ارتباطى بكم
- اذن..لماذا تزورنا كثيرا ؟
- جرى لك ايه يانادية؟ ماهذه الأسئلة السخيفة؟
- أرجو أن تجيبنى يا استاذ حمدى..أمنيتى أن أعرف السبب
- لأننى..لأننا..جيران ، وأحباء..و... وعشرة قديمة..و..

كلبؤة متوحشة زأرت:

- وماذا أيضا يا أستاذ ؟

تلعثمت كثيرا. أصبحت حالتى يرثى لها. شىء لم أتصور حدوثه أبدا.

- وبعد يا نادية؟..أنا لا أفهم ما ترمين اليه
- أبدا أنت تفهمه جيدا ، وأرجو أن تبادلنى الصراحة
- أوه!!..أنا لا أفهم ما جرى لك اليوم.أهو تحقيق صحفى يا نادية؟

وألقت بقنبلتها دون هوادة:

- أستاذ حمدى. ماذا تريد من أمى بالضبط؟

حين لاتقوى على صد الهجوم ، فمن الأكرم لك أن تنسحب على الفور.الدنيا مليئة بالنساء. ليس فى أن تطردك "ليلى" أو تسحقك"نادية"ماهو خارق لناموس الحياة. لكن متى تكف المطاردة؟..الصورة. ميت. ميت..عربة الحكومة تطارده.تطارد حسن. تطاردك انت أيضا. ليلى ترفضك ، وهذه الصعلوكة المتحذلقة تصيبك بالغثيان. تخفى معظم وجهها كما يلقنها الوعاظ ، ثم تخرج من فمها كلمات حاسمة قاطعة قاتلة: ماذا تريد من أمى؟..نعم. ماذا أريد؟..سؤال لم أستطع مواجهة اجابته منذ سنوات. أين الدافع الحقيقى ولماذا هو مخفى؟..

دق جرس الباب.

الحمد لله!!..ألا تذكره الا فى المصائب أيها التعس؟.. فى طريقها الى الباب رمقتنى بنظرة تنم عن حسرتها لانفلاتى من كمينها المحكم، وإن بدا منها التصميم على مواصلة التحدى ، وفتحت الباب عن لولا ومرسى وناهد.

فى جلبة الاستقبال تقدم منى "عم مرسى" ورحب بى فى مبالغة لامبرر لها. لاحظت أن ابتسامته العريضة تنطوى على الكثير من المداهنة والاستسلام. جلس بجوارى وقدمنى لناهد بتفاخر شديد والغباء يتطاير مع زفيره:

- الأستاذ حمدى ياناهد. صديقنا وحبيبنا الذى لاينسى

كم أنت كاذب ومنافق أيها العجوز ، ولكن ماذنبك وقد قهرك الزمن فلم تجد ماتفعله فى مواجهته..وقالت ناهد:

- فرصة سعيدة استاذ حمدى. أين أنت يارجل؟ لم نرك من فترة طويلة

اتصل بينى وبينها حديث ذكريات تافهة عن الماضى القريب حين كانت ناهد تأتى من القاهرة للمصيف. فوجئنا جميعا ب"لولا" تقذف العم مرسى بصيحة غاضبة:

- انت قاعد؟ قم اغسل الأطباق يامحترم

قال الرجل الطيب بابتسامة كريهة:

- حاضر يالولا.. خلينى أستريح قليلا أولا

ولما كانت الأمور تجرى بينهما على هذا النحو فى أغلب الأحيان ، فقد كان من الطبيعى ألا ألحظ أى نظرات تدل على الدهشة أو الاستنكار على وجه أحد من الحاضرين، الا أن صبيا فى حوالى الخامسة عشر من العمر تقدم منه قائلا فى سخرية غثة:

- قم ياعم مرسى. اتكل على الله. شد حيلك

عرفت بعد ذلك أنه "نشأت" الابن الوحيد المدلل لناهد. لفت نظرى أن هيئته مخنثة للغاية ، ويبدو أن ذلك كان مصدر سعادة أمه وإعجابها.

حاولت بعد ذلك أن أجلب لنفسى قليلا من الشعور بالتعاسة أو الحزن لأجل هذا العجوز الكئيب من أى باب من أبواب التعاطف أو المشاركة الانسانية، الا اننى فشلت تماما ونسيت وجوده على الفور وشرعت فى عقد مقارنة لاجدوى منها بين"لولا"و"ناهد".. الأولى جميلة ، والثانية أجمل، بل أكثر اغراء وفتنة الى جانب خبرتها الواضحة بأمور الدنيا ، وابتسامتها الساحرة الواثقة التى تفصح ثناياها عن ثقافة عريضة فى عالم الرجال.."لولا" تأخذ ولاتعطى. هى أسيرة لدوافع الحقد والحرمان وتربية البنتين، أما ناهد فيبدو أنها سخية فى عطائها حين تقرر العطاء، ولاشك فى أن حقائب "ناهد" التى تعنى"لولا" الآن بتفريغها فى لهفة شديدة إنما تؤكد على ذلك تماما. "لولا" شقراء وحشية الجمال. ناهد خمرية اللون. جمالها نسيج من الذكاء والفتنة ، ألوانه الغموض والسحر.تفاهة!!..مقارنة سخيفة بين امرأتين. اللعنة على كل الأشياء.

بمضى الوقت لاحظت أن هناك تفاهما خفيا يجمع مابين "شادية"و"نشأت"..ذلك الشاب الناعم الذى لم أستطع أن أكن له شعورا سوى الازدراء بمجرد أن رأيته. أحسست من وقع أقدامه أنه ضليع فى الغباء، ومن ميوعته ونعومته أن اليوم الذى سيصير فيه رجلا يوم بعيد، إلا أننى ركزت عليه بصرى لفترة طويلة.

انهمك مرسى فى غسل الأوانى وشغلت "لولا"بالتهام الهدايا التى جلبتها "ناهد" من القاهرة وانزوت"شادية" مع الصبى فى ركن بعيد. اقتصر المجلس فى النهاية على ثلاثتنا: ناهد ونادية وأنا!!.

انتابنى احساس بالضيق الشديد من الفتاة المحجبة ذات النظرات الجليدية، ولم تلبث "ناهد" أن قالت لها بلا مبالاة:

- ايه حكايتك ياشيخة نادية؟

سألتها نادية ببرود تداخله عدوانية مستترة:

- فيه حاجة ياخالتى؟

أشارت "ناهد" الى رأسها قائلة بسخرية:

- يا اختى اخلعى "الكبة" من راسك واقعدى على راحتك زى مخاليق ربنا

كنت أرقب الحوار وكل مشاعرى تستحث ناهد على مواصلة التهكم والسخرية.

- أنا مرتاحة على هذا الوضع
- الله يهديك يابنتى..لاتهتمى بالمظهر
- أشكرك ياخالتى على دعائك لى بهداية الله..أنا لا أهتم بالمظهر كما تظنين.أنا لا أهتم الا بالجوهر

- الجوهر؟!!..طيب ياختى ربنا يعطيك الصحة
- تسخرين منى بالطبع
- أبدا ياحضرة الفيلسوفة. انا أتكلم على طبيعتى

تملكتنى رغبة جارفة فى الضحك. كدت أضحك بالفعل لولا أن رمقتنى نادية بنظرة ذات مغزى أزعجتنى فأطاحت بابتسامتى بسرعة.

ـ لماذا لاتعترفون بحرية الآخرين؟.تظنون أننى غبية أتبع العرف والتقاليد السائرة. ألا يجوز أن يكون إيمانى بما ألبس وأفكر وأفعل نابعا من عقلى وضميرى؟. ألا يجوز أن تكون لى نزواتى ورغباتى ونزعاتى الشريرة ، وأن أكون قادرة على إخضاعها بذاتى وارادتى؟..

فى محاولة منى لتخفيف حدة الحماس التى انتابتها، أردت أن أبدى رأيا مؤيدا لما تقول من كلمات مبعثرة وردود على اتهامات لم توجه لها، أومأت برأسى قائلا:

- معك حق يا نادية فيما تقولين ، لكن....

قاطعتنى فى تحد سافر قائلة:

- معى حق؟..آه..ألست معى فى أنه من الأفضل لكم أيها الرجال أن تكفوا عن النفاق؟

خاطبتها ناهد فى دهشة:

ـ نادية!!..ما شأن الأستاذ حمدى بتفلسفك؟

ازداد رنين الحماس فى لهجة نادية ، وشاب صوتها حزن عميق:

- الاستاذ حمدى هو نفس الرجل الذى يغسل الأطباق بالداخل وأظنك تدركين جيدا دوره الحقير فى حياتك التعسة، وهو نفس الرجل الذى كنت أناديه بأبى حين قذف أمى بصفيحة الماء الساخن على وجهها وأسال الدماء من رأسها، ثم طلقها وألقى بنا الى الشارع..هو نفس زوجك السابق الذى اشتراك بماله..كلهم عندى سواء!!
- مسكينة ياحبيبتى. تكرهين الرجال وهم أحلى ما فى الحياة من مخلوقات رائعة
- لست أكره أحدا
- سوف تغيرين رأيك حين تكبرين. أنظرى الى شادية كم هى سعيدة بنشأت وكيف يضحكان فى سعادة

عاودت النظر من جديد الى نشأت. أطلت النظر اليه فى هذه المرة، لست أدرى لماذا ، ثم قالت ناديه:

- العبرة بالنهاية يا خالتى، وأنا أعتقد أنها ستكون غامقة

ثم اتجهت بسرعة الى حيث يقف "مرسى" أمام حوض المياه فدفعته فى رفق لم يخل من الاحتقار وتولت عنه العمل ، بينما بادلتنا "لولا" نظرات استفهام صامتة ، ثم أدارت ناهد دفة الحديث الى حيث عرضت علىّ قضية تخصها كى أترافع فيها امام احدى محاكم القاهرة. أعطتنى عنوانها وقبلت العرض ، ثم لم أجد بدا من انتحال عذر تافه حتى أستطيع الانصراف من هذا المكان مكتفيا بما أصابنى من جروح.

انصرفت وأنا أشعر أن نادية قد عرتنى تماما من كل غطاء كان يستر ماخفى من رغباتى المجهولة ، بحيث بات ترددى على أمها فيما بعد أشبه بالمستحيل، بل اننى اعتبرت موقفها هذا بمثابة طردة صريحة لى من حياة هذه الأسرة.

والآن ياحمدى. أما حان الوقت لتتخذ قرارا فى أى شىء؟..ليلى. المكتب.لولا. نادية.عربة الحكومة.نشأت. الصورة. الميت الحى.ناهد. حسن..وانت..أنت ياحمدى!!.ينبغى أن تشعر بمتعة اتخاذ القرار. أى قرار. لاعودة الى هذا المنزل مرة أخرى.لتكن قضية ناهد هى قضيتك الرابعة والأخيرة أيضا.. وليذهب الريس عبد الله ومكتبه الى الجحيم. يقول صديق لى يعمل محاميا بإحدى الشركات أنه يعمل مع اثنين من زملائه بمكتب التحقيقات. بعد أن ينتهوا من الافطار وقراءة الجرائد وحل الكلمات المتقاطعة ومناقشة أخبار الدورى العام لكرة القدم، يتولى أحدهم التحقيق مع العمال فى التهم الموجهة اليهم، وينصرف الآخر متجها الى المقهى بحجة الذهاب

الى المحكمة، وينسخ الأخير أشعاره التى يؤلفها على الآلة الكاتبة..أليس من الجائز بعد ذلك أن يزداد عدد المحامين بهذه الشركة الى أربعة بدلا من ثلاثة؟..

*****

مجذوب البحــــر

****

- **<u>ذكريات لم تسقط من ذاكرتى:</u>**

●**<u>سيدى ياقوت العرش:</u>**

...ولأننى كنت مرتبطا بالتسمية بسيدى أبى العباس المرسى، فقد ارتبطت أيضا بميدان المساجد كله ، بما يحوى من مساجد وأضرحة لأولياء الله الصالحين، ولكن بشكله القديم العتيق الذى يضج بزخم بالتاريخ قبل أن تناله يد الهدم وتغير معالمه الروحانية الغارقة فى الصوفيه .كان يطيب لى أن أصعد المنحدر أو "الدحديره" الخلفيه لمسجد أبى العباس ـ كما تعارف على تسميتها الأهالى ـ وهى مكان مرتفع عن الأرض، أول مايقابلك فى مطلعه قطيع من الخراف وبعض الرعاة الذين استوطنوا المكان منذ زمن بعيد. ثم الضريح والمقام العتيق للسيدة منده القرشى عمة سيدى ابراهيم الدسوقى. ثم بضعة بيوت عتيقة جدا، واسطبل للخيل .كنت أنحدر من الدحديرة حتى أنتهى الى الباب الخلفى لسيدى البوصيرى، ثم الى مكانى الأثير بجوار المقام. أسند ظهرى الى السور الحديدى أمام الميضئة الأثرية غارقا فى السكينة ، سابحا فى الملكوت حتى يرفع الأذان ، فأسير متعديا الضريح الى داخل المسجد لأصلى ، ولكن أخذنى الحنين يوما لزيارة سيدى ياقوت العرش فى مسجده العتيق ، فتوجهت اليه بادئا بزيارة المقام .

كان المقام مهيبا يكتسى كله بالخضار، وتفوح رائحة المسك قوية نفاذة من مكان خفى. الأضواء باهتة ولكنها كاشفة للمكان. أحسست على الفور أننى فى حضرة صاحب الكشوفات والكرامـــات وأحـــد العـــارفين الســـالكين مـــن عليـــة المتصـــوفة الواصـــلين. وبينما أنا غائب عن الوجود سارح فى الملكوت، دخل علي فجأة شيخ جليل طويل القامة كثيف اللحية، يرتدى خرقة الصوفية، يشع النور من وجهه المضيئ ، ممسكا بعصاه وهو يصيح فى وقار:

- **مدد يامولانا مدد**
- **ياصاحب الفتوحات والكرامات**
- **يامن سمعت نداء العرش**
- **مــدااااااااااااااااااااااااد.**

فوجئت به واقفا أمامى. مهيبا تنطق عيناه بالأسرار،تسبرأغوارى وتقتحم أعماقى. جلس بجانبى وقد فاحت منه رائحةعطور عجيبة .. ربت على كتفى بحنان وهو يقول:

- **أخيرا زرتنا أيها المجذوب الشارد**

لم أقو على النطق ، وانتابنى خوف هائل وهو يواصل كلامه :

- **أنــا أراقبــك منــذ أن دخلــت المقــام، وأنــا أعرفــك وأعــرف أنــك ســتزورنا يومــا ! بهت ولم أتفوه بكلمة وهو يسترسل:**
- **مجاذيب البحر ياولدى من الواصلين ، فالبحر من أعظم آيات الله، وصاحب المقام من عشـــاق البحـــر ، لهـــذا كـــان قبـــره ومقامـــه بجـــوار البحـــر. كل الأولياء يعشقون البحر، لأنه سر الوجود، ويد الله التى تفيض بالخيرات والمعجزات.. ثم نهض واقفا وهو يصيح :**
- **مدد ياصاحب الكرامات مدااااااااااااااد**

ثم اختفى .

لم أعرف كم مضى علىّ من الوقت جالسا منكمشا مذهولا .لكنى نهضت أخيرا، أمسح أرجاء المسجد باحثا عن الرجل ، فلم أعثر له على أثر.
توجهت الى امام المسجد سائلا اياه عن الرجل فابتسم قائلا:
لايوجد أحد يابنى فى المسجد بهذه الأوصاف. وعندما لمح حيرتى وذهولى سألنى :
- هل أنت على وضوء ياولدى؟
- نعم
قال وهو يربت على كتفى مبتسما:
- استقبل القبلة ، وصل ركعتين.
وانصرف وقد تركنى غارقا فى بحار الحيرة والدهشة والذهول.

****

●كوزموبوليتانية أنت ياحبيبتى:
●أجانب انصهروا فيها وعاشوا بها حتى الموت:
تدس أمى فى يدى ريالا فضيا لامعا تحمل رسوماته البارزة صورة الملك فاروق بعد أن تملى على وأنا أكتب ، كل ماتحتاجه من سوق راتب. ورغم أننا كنا نسكن بالقرب من أعرق أسواق الاسكندرية ، وهو سوق الميدان المعروف بزاوية الاعرج ،الا أن أمى كانت تفضل أن تكون مشترواتها من سوق راتب، ولها أسبابها .لم تنس أمى أن تفرك أذنى محذرة وهى تقول:
- اياك ان تتشعبط فى الترام
اخترقت شارع الميدان بسنواتى العشرة وبنطلونى القصير ونضجى المبكر، الى شارع السكة الجديدة ، وما أن وصلت الى مشارف جامع الشيخ حتى أخرجت القائمة من جيبى ، وبدأت رحلة التسوق من محل الخواجة أرتين الأرمنى، أشهر مصنعى وبائعى البسطرمه . كان على أن أنتظر دورى فى المحل المكتظ بالزبائن وأنا أرقبه وهو يقف بقامته الممشوقة مرتديا بالطو أبيض كالأطباء(مثله كان يفعل حسونة صاحب أشهر محلات فول بشارع زاوية خطاب برأس التين) ممسكا بسكين كبير وحاد ليقطع قوالب البسطرمة الى شرائح رقيقة .
حان دورى وحصلت منه على ربع أقة من البسطرمة وربع أقة من السجق البقالى .. وفى زقاق جانبى للسوق توجهت الى محل بقالة الخواجه ينى اليونانى لأشترى ربع أقة من الجبن التركى ومثلها من الجبن الفورمجانو، وربع أقه من الزيتون الكالاماتا الأسود ، مع برطمان من عسل النحل الخام ، ثم أتوجه الى معمل ألبان فاليانانو الايطالى لأحصل على لتر من اللبن داخل زجاجة خضراء محكمة الغلق بقطعة من الشاش، مع ربع أقه من الجبن الراكوتا، وعلبة من الكريمة اللبانى الدسمة ، ثم أسير بحملى الثقيل الى مخبز باساس اليونانى ، لأشترى أرغفة الخبز الساخنة والبعض من البسكويت الشهى .
ولايفوتنى وأنا أسير أن أتامل أسماك البكلاه البرتغالى المجففة، التى تتدلى من أعلى باب بقالة خرلامبوالجريجى الشهير ، حيث البصل الايطالى الأحمر موضوع فى قفص أمام المحل ، وعقودالباميه المجففة وقوالب البسطرمة المتدليه لتجف جميعا بفعل الشمس والهواء.
فى كل مرة كنت أختص نفسى بشيئ خارج القائمة: سمكتين مملحتين من داخل برميل خرلامبو الخشبى الوارد من قبرص ، أو حفنات من "أبو فروه" الايطالى ، أو كيس من الملبس المحشو باللوز الايطالى،
وأنهى جولتى فى سوق راتب عند الخواجه آرمنيان لأشترى دستة من البيض الطازج، ثم أتخذ طريق العودة بحملى الثقيل داخل حقيبة قماشية أناولها لأمى مع ماتبقى من الريال!!!

****

●حضارات الدنيا تتعانق فى مدينتى:
قبل رأس السنه بأيام قليله كان يلتئم شمل معظم صبية الحى: أنا و يورغو الاجريجى وقرينه باولو الايطالى وصديقنا سمعان اليهودى ،على ناصية احدى الحوارى المتفرعة من شارع

الجمرك القديم لنضع خطة الاحتفال بليلة رأس السنة. يقترح يورغو أن نحتفل بالمناسبة فى بيتهم مع أسرته حيث تدعونا أمه لمشاهدة الاحتفال على الطريقة اليونانية ، وقد أعدت الطعام والحلوى وشجرة عيد الميلاد وكميات من الأطباق الصينى لتلقى فى منتصف الليل على أرض الشارع كتقليد يونانى عريق لازال موجودا فى الاسكندريه حتى الآن.

أما باولو الايطالى فكان يقترح أن نبدأ الاحتفال من جوار أحد أبواب سور الميناء الغربى لنشاهد السفن الراسية على الارصفة، وهى غارقة فى الأنوار ، ولنسمع صفاراتها تدوى فى وقت واحد بمنتصف الليل، احتفالا بمولد العام الجديد . كان باولو هو من أول من لفت نظرى ان هذا تقليد عريق يعمل به فى جميع موانئ العالم.

ويقترح سمعان أن نجوب شوارع المدينة لنشاهد مظاهر الاحتفال ، وننهى جولتنا فى سينما الهمبرا بشارع فؤاد لنشاهد أجمل الافلام.

فى النهايه ينتهى الأمر بأن نقضى جزءا من الليل بمنزل يورغو، ثم نتوجه الى سور الميناء لسماع صفارات البواخر، ثم نهرع الى سينما الهمبرا لننهى الاحتفال.

لم تزاول حلاوة هذه الايام ذاكرتى المنهكة حتى الآن ، فهى متشبثة بداخلها لايمحوها الزمن. تمر الأيام متعاقبة متسارعة ، تمحو ما تمحو وتبقى على ما تريد من ذكريات.. والآن وقد ولى العمر واقتربت النهاية ، فإن حصاده هو أن ألمس من وقت لآخر أطرافا من ذكريات ولت وانقضت ، لكنها لاتزال زاهية بهيجة.

● <u>الناى والغمام والغروب ..وأشجان الصبا :</u>

كنت أناهز من العمر حوالى الرابعة عشرة، عندما بدأت تصطخب فى أعماقى رومانسية شفافة أثقلت كاهلى الضعيف. غذتها قراءاتى القليله وحبى للموسيقى والجمال والحياة ، لكنها كانت تنبع من داخلى فياضة كنهر تمرد على مساره وفاض على وادى الحب والخيال.

عشقت البحر ولازمته بزياراتى المقدسة يوميا ، صيفا وشتاء . كان مكانى المفضل دائما هو الرصيف العالى المواجه لقلعة قايتباى وسط الأمواج ، وهو مكان عمل صناع الحبال الذين يجلبون حبال السفن الغليظة القديمة من الميناء ، ويعيدون جدلها وصنعها من جديد، يساعدهم على ذلك طول الرصيف وخلوه من المارة. لكننى كنت أقصد المكان قبيل الغروب لأرقب غروب الشمس وهى تتوارى بقرصها الملتهب تحت الأمواج .. كنت أعشق هذا المشهد صيفا كما أنه كان يشعل مشاعرى فى الخريف عندما يمتزج الغروب بالغمام الرمادى فى لوحة رائعة الجمال، واستطعت فى سن مبكرة أن يتكشف أمامى رحاب الملكوت وأنا أكتسب مشاعر صوفية مبكرة زادتنى رومانسية مغلفة بشجن غامض.. وفى أغلب الأحيان كانت الشمس تغرب وتسقط غلالة الظلام ، فيبدو المكان مخيفا وأنا لا أشعر. سارحا فى ملكوتى المبكر.

ذات يوم انضم الىّ صبى من سنى ، انشقت عنه الأرض. يحمل حقيبة سوداء صغيرة. سرعان ما تعارفنا وتبادلنا الحديث ، وعندما كنت على وشك أن أساله عن محتويات حقيبته فتحها وأخرج منها نايا من البوص، شرع ينفخ فيه بأنات حزينة مست مشاعرى، وامتزج الغروب بأنات الناى ووجيب قلبينا وثورة مشاعرنا الخضراء ونفوسنا الظمأى للحب والجمال وعشق الحياة.

اعتدنا بعد ذلك أن نلتقى يوميا فى معبد الجمال. نتعبد للملكوت :هو بأنغامه، وأنا بقلبى الصغير الذى كان يقفز فى صدرى ويتعالى وجيبه والشمس تلوح لنا مبتعدة غائصة تحت الأمواج .

انقطع الصبى فجأة عن الحضور دون انذار، تاركا فى نفسى جرحا لم آلفه، فقد آلمنى غيابه وافتقدت ألحانه الساحرة... ورغم تلاحق السنوات مازال هذ المشهد يسكن خيالى ووجدانى ويلوح طيفه كلما شاهدت غروب الشمس ، مقترنا بغصة ألم موجع لفراق الصبى الفنان ، ولأننى فى غمرة مشاعرى نسيت أن أسأله عن اسمه!!

****

● <u>أنشودة للسكينة، وأغنية للرجاء:</u>

نامت المدينة ولكنها لم تغفل . استعدت لاستقبال المسهدين والذاكرين والسابحين فى الملكوت والمظلـــــــومين ، ومـــــــن ســـــــرقت الآلام النـــــــوم مـــــــن عيـــــــونهم. طرحت عنها الضوضاء وأطماع الغرباء وضجيجهم وصراعهم، والمتزاحمين بالمناكب والمندفعين بالأغراض، وتهيأت لاستقبال عشاقها السابحين فى هدوئها الذاكرين لفضلها.. أنا والليل والمدينة ، أنشودة للسكينة، وأغنية للرجاء.

****

أحمد طلبه

****

سألت أبى ذات يوم:

- لماذا سميت البوابة بهذا الإسم؟

أتاهنى فى إجابته بين أحراش تاريخ طويل حافل بالأحداث. حدثنى عن المماليك ، وعن خيول مطهمة طالما رمحت فى هذا المكان عبر التاريخ. حدثنى أيضا عن الانجليز والأتراك. لعن كلا منهما على حدة بطريقة مختلفة تحتوى على السب والشخر. عندما لم أفهم منه شيئا رأيت أن أرجع الى تاريخ الجبرتى..لكننى لم أعد!..

ألمح جنديا ينام على مقعد متكئا على معصمه. النادل يدخن المعسل فى طريقه الى أحد الجالسين وهو ممسك بالبورى فى يد ، بينما يبول باليد الأخرى.

فى الركن المجاور للنصبة تستقر بضعة أقفاص متهالكة وأجولة ومشنات يودعها بمبوطية الحجارى لدى المقهى لحين الحاجة الى استخدامها..رجلان يجلسان وجها لوجه أمام مائدة صغيرة ويبدو على وجهيهما كأنهما يتحدثان فى أمر شديد الخطورة. أقترب منهما فيخيل الى أنهما قد ماتا أو تجمدا على هذا الوضع. لاكلمة. لا إشارة.الصمت ورطوبة الليل ونباح الكلاب الهائمة ونقيق الضفادع القادم من المستنقعات الصغيرة لمياه الصرف الراكدة، كلها علامات احتضار يوم من الزمان على أعتاب بوابة مورو ، وميلاد يوم جديد.

حاولت أن أستجيب للأذان بصلاة الفجر فلم تقو إرادتى على ذلك. واصلت قراءة رواية البؤساء لفيكتور هوجو ثم توجهت فى طريقى الى العمل. التقيت مصادفة بخالد الحنفى. حالة من التعاسة سافرة. قميصه وقد خرج بغير انتظام من وسطه. رباط عنقه التقليدى وقد حل وانزاح الى أقصى اليسار. حذاؤه ملطخ بالوحل والأتربة.عجز عن اقتحام سلم الأوتوبيس المزدحم بالبشر كيوم الحشر، فسقط على الأرض. داسوه فى وسط الزحام. أقلع عن رغبته الأكيدة فى الذهاب الى عمله وعاد الى بيته. عاودت نصحى له بالبحث عن عمل فى بلاد أخرى بعيدة أكثر اتساعا وفرصا. افترقنا. أنا أكره الهجرة وأحتاجه ، رغم أنى أرثى لحاله.

****

اقتحمت مكتبى. على شفتيها ابتسامة واثقة. بصحبتها شقيقها محمد البطل الرياضى والعالم والفنان وكل شىء!. كان زميلى أيام الدراسة. أحضرته كى يقنعنى – بناء على رغبة من رغباتها المطاعة أبدا – أن أوافق على العمل بمصانع أبيه وأن أترك العمل بالقطاع العام. كان يقوم بدور الأجير. لم يكن مقتنعا بما يقول بقدر ما كان منفذا أمينا لرغبة من رغبات شقيقته دلوعة الأسرة .

- اسمع يا احمد. أنت زميلى ، ونحن متفاهمان جيدا

كنا زملاء ، لكنى كنت أشعر فى داخلى برهبة رهيبة تهز جحافلها كيانى وتزلزل ارادتى ، عندما أضطر الى الوقوف مع مجموعتك المتميزة من لابسى الأقمشة اللامعة وأربطة العنق المستوردة. لما تجرأت يوما وحاولت مشاركتكم حديثا دائرا ، عجزت تماما عن ذلك. كان الحديث عن أمور لا أفهمها. بل لعلها كانت المرة الأولى فى حياتى التى أستمع فيها الى تلك المسميات:تحويل العملة.سعر الدولار. اغلاق البورصة.فندق فلسطين. سونيا ترقص الليلة.. لكننا كنا زملاء!.

- أعلم ذلك
- ستعمل معى. نحن شباب نفهم بعضنا جيدا
- وأبوك؟
- ماله أبى؟!

عليه اللعنة..

- صاحب الشركة
- أعرف..وما الجديد؟

- أنا لا أعرفه
- ستعرفه. هو رجل طيب. مثال للوطنى الصادق
- آه..الوطنية..كلمة خطيرة وجذابة
- ماوجه خطورتها؟
- حين تقترن بامتلاك شركة كبرى تقدر بملايين الجنيهات
- مواثيق النظام الحاكم تقر بتوافقها فى حدود القانون
- المواثيق شىء وما اعتقده شىء آخر
- فيم تعتقد؟
- ان أباك بلا استغلال كسمكة بلا بحر
- اسمح لى أن أعرفك به حتى تصدقنى

إلام الخوف والرهبة؟ لقد صرت رجلا.تخلص من مشاعرك المهينة تجاه هؤلاء الناس. اقترب منهم ولا تخف.انهم ينامون ويتنفسون مثلك أيها الرعديد المتخلف. لاتدع هذه الفرصة تفلت من بين يديك. لكن لاتنس نفسك."مع"..لا"عند"..احرص على ألا تنسى. هه!

- دعنى أجرب
- ثق أنك ستعجب به وستكون أول المدافعين عن نواياه.

****

من أحب؟ سلوى أم ماجده؟..

ليلة أن أبلغت بوفاة أمى فى الأراضى الحجازية وهى تحقق أغلى أمنياتها ، هرولت مسرعا الى أبى فى دكانه بالقبو. عندما اقتربت من البوابة تملكنى وازع غريب يحثنى أن أستمهل الخطى، وانه لاجدوى من مداهمته بصدمة الموت فى دفعة مفاجئة. كان يحبها حبا عظيما. لعله كان الرجل الوحيد بين رجال زقاقنا السد بالأنفوشى، الذى لم يضرب زوجته فى يوم من الأيام على مدى معاشرة السنين.

" أنا ولده الوحيـــد"...

كان يثور لكرامته ذات المفهوم الخاص به وحده. لأجل ذلك يترك عمله بمنتهى البساطة ويعود الى بيته صفر اليدين. تنظر اليه أمى فى إعجاب بعد أن تستمع الى مشكلته الجديدة مع صاحب آخر عمل التحق به.

- أطفىء السيجارة ياسيد وأنت تخاطبنى
- السيجارة فى يدى وليست فى فمى
- ليكن. اطفئها ياسيد
- لادخل للسيجارة فى عملى. لك أن تحاسبنى على أى تقصير
- قلت لك اطفئها
- لن أطفأها ، وابحث لك عن رجل غيرى ليعمل معك

فى كل مرة قبل مواجهتها كان يعانى من صراع التناقض بين ضرورة أن يحترم نفسه ويشعر بحريته وكرامته – على طريقته الخاصة – وبين ألا تجد أسرته ما تقتات به من جراء تلك المفاهيم الراسخة فى كيانه. لكن نظرات عينيها المؤيدة دائما لمواقفه وأقواله وأفعاله، كانت تؤكد له صحة مافعل ، وتؤكد له أيضا أن كرامته عندها تعادل الدنيا وما فيها.. من هنا كان ينبع الحب الكبير.تلك المرأة الأمية – مثله أيضا – تحس بفطرتها وغريزتها بأدق ما يحس به رجلها وما يعتمل فى نفسه من مشاعر وأحاسيس. تعرف كيف ترضيه. تحفظ الطريق جيدا الى نبضات قلبه.

استجبت دون أن أدرى الى ذلك الوازع المجهول. تمهلت الخطى وقد اقتربت من المكان. لمحت ذبالة ضوء خافت. كنت قد اعتدت حين أعود فى المساء أن أتجه مباشرة الى القبو. ألقى بنظرة عجلى على الدكان، فإذا وجدت المصباح الكهربائى مضاء علمت أنه يجلس فى انتظارى حتى نصعد الى الشقة أعلى القبو معا، وإن لم تكن هناك إضاءة فهو إما نائم فى الشقة وإما

سهران مع أصدقائه عند أم الشحات أو المعلم ألماظ. فى ذلك اليوم كان مصباح الغاز الصغير فيما يبدو مضاء. توجست قليلا ثم اقتربت من الباب. طرقت طرقتين متتابعتين كما اعتدت."صمت"..ثلاث طرقات."تحركات خافتة الصوت". أصوات أقدام تزيد فى وقعها عن تلك التى تصدر من شخص واحد.. ثم أتى الى مسمعى صوته من بعيد:

- انتظر يا احمد

كاد الصمت من حولى أن يسمع، ثم صوت احتكاك ملابس تلبس على عجل، تصاحبها همسات صوت أنثوى ناعم حذر.

كان فى الخامسة والأربعين يومذاك. انسحبت فى صمت الى الشقة والأسف يتقاطر من مشاعرى.سمعت أزيز الباب المتهالك ووقع أقدام أنيسة الليل وهى تغادر القبو. بعد قليل كان يجالسنى فى صمت وقد نكس رأسه الى الأرض لأول مرة فى حياته.

من أحب..سلوى أم ماجده؟..

- سامحنى يا احمد يا بنى

لم أدعه يسترسل فى طلب الصفح والتماس المعذرة. أرحت رأسى على صدره لإحساسى بما يمور فى صدره من شعور عميق بالذنب، وبما هو أقسى وأقسى على نفسه من ذلك: موقفه المهزوم أمامى!.. قررت إرجاء إبلاغه بالنبأ الى وقت آخر.

تساءلت بعد ذلك هل من الضرورى أن أعرف من هذه المرأة، أم أكتفى بمعرفة انها امرأة أخرى غير أمى فحسب؟!..ساءلت نفسى أيضا: لماذا يخونها وهو يحبها وهى تحبه؟!!

فكرت كثيرا بمسألة الجنس عند الرجال فى شتى مراحل العمر، وكذلك عند النساء. تأملت كثيرا فى طبيعة الحياة المشتركة التى تجمع بين رجل وامرأة الى الأبد تحت سقف واحد فى ظروف واحدة. لم أعثر على ثغرة تبرر موقفه، حتى توصلت فى النهاية الى أن ماحدث فى ذلك اليوم – وبالقطع فى أيام أخرى سابقة – ليس مجرد سقطة أو زلة عابرة ،وإنما هو سلوك محدد يعبر عن طبيعة أبى.

لما أبلغته بوفاة أمى لم يعد ينام على فراشه. كان يبيت فى الدكان على كنبة صنعها لنفسه ووضعها بين أخشابه وأقفاصه وكراكيبه العديدة.

العرق يمد لسابع جد. يبدو أن جدى هو الآخر كان عربيدا. تاريخه بالنسبة لى علامة استفهام كبرى. لم يحدثنى أبى عنه كثيرا. لم أطلب اليه الحديث عنه أنا الآخر.

حين أسائل نفسى من أحب: سلوى أم ماجدة، فإنى أستشعر متعة شديدة فى البحث عن الإجابة من خلال أفكار أجدادى العباقرة واستنباطاتهم الرائعة. هم عظماء جديرون بالخلود لما تركوه لنا من تراث فكرى عظيم. إذن فقد ورثت الخيانة عن أبى كما ورثها بالضرورة عن أبيه. أجدادى العباقرة لايعترفون بهذه اللغة"اللاعلمية" ، فالخيانة صفة ألصق بالعاطفة من أن تكون صفة تمس العقل بتلافيفه وتعرجاته الغريبة. أظن أن الخيانة قد تورث كما يورث المال للأبناء والأحفاد، وكما تورث السلطة والسطوة والبطش والجبروت.

فى الإسلام"ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه" ، وفى المسيحية" لايستطيع أحدكم أن يخدم سيدين فى وقت واحد".. لكنى أحبهما معا وإن اختلف كل حب عن الآخر . لو استطعت أن أصهرهما معا فى مختبر كيمائى حديث ، لحصلت من مزيجهما الملتهب على أنموذج فذ لامرأة"سوبروومان" أتفنن فى عشقها روحا وعقلا وجسدا.

ماجدة تجول مع أمها فى سوق"زنقة الستات" بشارع النصر، وفى سوق الخيط لشراء قماش"الحاج عباس" ذى التاريخ المجيد فى عالم العرائس وأمهاتهن.

أفضل الجلوس على المقاعد الخشبية بالدور العلوى من ترام الرمل القديم. يمشى على مهل لا أتحمله إلا حينما أكون هادىء الأعصاب لايشغلنى فكر. نتشبث بما مضى لدرجة الجنون، أما الزمن فلا يحظى باعتبار يذكر. كان أبى يردد حكما متنوعة حسب مقتضى الحال. يقول مرة:

- "من تأنى نال ما تمنى".

يقول مرة أخرى وهو فى حالة من حالات زهده النادرة:

- "أحسن ثيابنا من دودة، وأحلى طعامنا من نحلة ، ومرقدنا تحت الأرض فى حفرة".

ومرة يقول:

- "ماطار طير وارتفع ، إلا كما طار وقع".

مازلت أحفظ تلك الحكم والأمثال عن ظهر قلب حتى اليوم، فهو لم يكن يقولها عبثا ، وإنما مرتبطة بوقائع وأحداث معينة بغرض الاعتبار والاتعاظ .

أتطلع الى المنازل الفخمة والفيلات الفاخرة على طول الطريق الى سان استفانو. لايعرف كثير من أهل الاسكندرية أن المحتلين قد أطلقوا ذلك الاسم على هذا الحى الراقى تيمنا بالقائد الذى هزم العرب فى الأندلس، ولذلك لم يفكر أحد فى تغيير هذا الاسم لما يرمز اليه من خيبة العرب وصراعاتهم على السلطة التى أدت فى النهاية الى سقوط الأندلس.

لم يساورنى الحقد بمفهومه القاطع ومرارته اللاذعة وأنا أرى هذه الفيلات والبيوت والشوارع الراقية النظيفة. كان الشعور بالانبهار هو السائد فى نفسى، والغالب على مشاعرى.

من حين لآخر يبدو البحر لناظرى بين فراغات المنازل المحاطة بالحدائق والخالية من العمائر العالية. أرنو الى الأمواج فى صراعها الأزلى. ألمح"شمندورة" يقف عليها نورس بحرى. يطير. يحوم حولها. يستقر على قمتها من جديد. الجو تغشاه غيوم متناثرة. رائحة البحر تطغى على الفضاء.رطوبة ندية منعشة يملأ هواؤها صدرى. برد خفيف اللسعات يشعرنى بنشوة الشباب. الترام يتوقف. عطل كهربى يتكرر دوما.

أنا الآن فى طريقى الى المجهول. من الأفضل أن أواصل السعى سائرا على قدمى. تدهمنى روح العصر وأتذكر قول أمى أن متر الحرير كان يباع فى عصر مضى بسبعة قروش ونصف.

"ماجدة تجول بين سوق الخيط وزنقة الستات..مازالت تبحث عن الحاج عباس"..

****

يفتح الباب الحديدى الضخم عن مارد أسود يرتدى جلبابا أبيض ويلف رأسه بعمامة خضراء. من خلفه ينبح كلب بشع المنظر شبيه بالذئب. ينحنى الرجل فى أدب مدروس مشيرا بيمناه أن تفضل أيها الرجل القادم لزيارة أسيادى العظماء. شعرت أننى أطير فى فراغ فضائى هائل، وقد فقدت الاحساس بجاذبية الأرض. الصالة شديدة الاتساع. توزيع الفوتيهات فى المساحة الكبيرة يأخذ تشكيلا لم تشهده عيناى من قبل."وأين كانت ستشهده؟".. وتأتى سلوى وعلى فمها ابتسامتها الساحرة الملغزة. تصافحنى بامتنان شديد وتجلس بالقرب منى. تشعرنى بخبث أننى تفضلت عليها بالحضور حتى تتجنب مقاومتى للانضواء تحت لواء أبيها.

- لم تنظرين الى هكذا؟
- أتأمل مكرك الشديد. عيناك تسبحان فى بحر من الدهاء
- أنت ياسلوى خبيرة فى إسقاط ما بنفسك على الآخرين

وبنعومة مفاجئة سألتنى وقد ثبتت عيناها فى عينى:

- كيف حال ماجدة؟
- هه؟ من الأمكر إذن؟
- حين أسألك عن خطيبتك تسمى هذا مكرا؟
- وكيف حال الدكتور فريد؟
- يووووه. أنت ثعبان سام
- يبدو أننا سنحنث القسم

البهو صارخ فى فخامته. الثريات تتلألأ بأضوائها الساطعة. التحف الخزفية. لوحات مشاهير الفنانين. المقاعد التى لاتشبه مقاعدنا فى شىء، حتى لأكاد أشك فى أنها وضعت هنا للجلوس عليها ، وإنما لمتعة المشاهدة والتأمل فقط.

خطواتى الى هنا قادتنى كى أرى سلوى. أجالسها. أمتع أفكارى بالاستماع الى حديثها وتبادل الحوار معها.

الفيلا من طابقين. السفلى للأسرة المكونة من الأم والأب والإبن. العلوى جهز خصيصا لسلوى المدللة وزوجها الطبيب...والجمع فى انتظار قدومى.."من أكون أنا"؟..

أهلا وسهلا ومرحبا وآنستنا وشرفتنا وفرصة سعيدة يا اكسلانس..و"طـــــظ"! ، فأبدا ماجئت لأجلكم ، وإنما لفاتنتى بنت الأكابر.

فى الجامعة كنت محط أنظار كثيرات من الزميلات اللاتى فى نفس مستواى الاجتماعى. أن أتركهن جميعا وأرتبط بفاتنة شبه جاهلة مات أبوها مريضا بالفقر ، وأحب أرستقراطية مغرورة عاش أبوها فى النعيم منذ خلق ، فهذا ينبىء بالقطع عن مضاعفات لم تزل بعد خطورتها مجهولة. الا أننى حتى الآن راض عن نفسى، ولو الى حد معقول!.

حسين بك فتحى يقدم لى ابتسامة صفراء مصنوعة تستشعرها غريزتى، مغلفة بما يسمونه"الدبلوماسية الناعمة". التجاعيد البارزة على وجهه تخاطبنى نيابة عن كبريائه الفج الذى يحاول إخفاءه، قائلة:

"أنا لست أطيق الحديث الى أمثالك من الرعاع، بل إنى حزين على الدقائق التى سأمضيها معك، فأنا فى حقيقة الأمر لست بحاجة اليك"!

لكنه – مدفوعا برغبة ارضاء ابنته الوحيدة – يحاول طلاء ابتسامته بلون جذاب. قد ينجح مع غيرى ، أما معى فلا.

"أنا أيضا اكرهك أيها الصنم الذهبى. ذلك أمر طبيعى. ذراتك من دماء الآخرين.. وأنا ما جئت هنا لأجلك".. تركتنا سلوى قليلا من الوقت. حين انفرد بى سألنى:

- لماذا ترفض العمل معنا يا سيد احمد؟
- تقصد عندكم
- معنا أو عندنا..سيان
- بل هناك فرق بينهما فى رأيى
- عموما ليس هذا موضوعنا. سلوى تشيد بجهودك فى العمل. تقول انهم يسمونك فى الشركة ب"الدينامو".
- شىء طبيعى لأنى احب عملى وأتمتع بعائده

قال بثقة رائحتها عفنة:

- سأضاعف لك هذا العائد
- المسألة عندى ليست مسألة عائد. انه احساس بالدرجة الأولى
- اسمع يابنى . انا لا أفهم كلامك هذا.بقدر ما ستعمل ستأخذ. هذا هو أسلوبى، وهو يختلف بالطبع كل الاختلاف عن أسلوب العمل الفوضوى فى القطاع العام.

" لست وحدك الذكى ياحضرة. الذكاء أغلبه موهبة. والموهبة لا حيلة لأحدنا فيها"..

..يواصل فى غضب غير مكشوف:

- تعالى ياسلوى . أنا لا أفهم زميلك هذا الذى يكلمنى بالألغاز

وينصرف الوغد، وتنادى الأم وحيدها "محمد" الذى لم ينطق بكلمة واحدة. ثم يتركوننا ببساطة شديدة أنا وسلوى فى خلوة منفردين ، وهذا كل منای. أنتهز الفرصة فأسارع بتقبيلها فجأة.

- أحبك يا سلوى
- اعقل يا احمد. الوقت غير مناسب لهذا الخبل
- ومتى يكون الوقت مناسبا؟
- أظن أنك لست بحاجة الى أن أذكرك بأننى متزوجة وأحب زوجى
- كاذبة
- أخاف منك

العجيب أننى أصدقها، لا لأنها تقتنى المصحف وتقرأ فيه كثيرا ، ولكن لأنى أحس بفطرتى أن بداخل هذه المرأة شيئا منا.."ومن نحن؟"..حقيقة أكاد ألمسها. لكن البذرة الفاسدة تلوث تربتها" ..أليس فى داخلى أنا الآخر شىء منهم؟.."ومن هم؟".. يعنى بعض التطلعات مثلا!

- **ليس للرجال أمان. كلهم خونة**
- **كل خائن تقابله بالضرورة خائنة**
- **الرجال دائما هم البادئون. هل تنكر ذلك؟**
- **والنساء..لم يستجبن؟**
- **لأنهن يفكرن بقلوبهن**
- **هذه فكرة خاطئة ، فالبداية تأتى دائما من المرأة. هى التى تعطى اشارة البدء، معيدة دورة أمها حواء**
- **دعك من تلك القصة المشكوك فى صحتها، ولنطبق الأمر على أنفسنا..هأنت تحاول أن تفرض علىّ حبك ، وأنت تعلم أننى متزوجة**
- **اذن ، فلماذا لاتزجريننى وتصديننى وتنهين المسألة؟**
- **لأنك لحوح بارد**
- **ولأنك تحبين إلحاحى وبرودى**
- **لاتغتر فتنسى أننى الطرف الأقوى**
- **لو أحسست بذلك لحظة واحدة لرفضت حبك على الفور، كما رفضت العمل عند أبيك**

****

وجدانى معذب بين ماجدة وسلوى، وبين"مع" و"عند". ماجدة هى عندى"مع"، وسلوى هى"عند". حاجتى تتأرجح بين النقيضين ، فأعانى من القلق العصابى بلا انقطاع. ال"مع" تضمن لى كرامتى وراتبى ومعاشى عند الكبر، وال"عند" تدفعنى الى مصاف الأغنياء المستكفين الذين لايشترون اللحم الصومالى الرخيص الذى تعلوه طبقة كثيفة من الدهن، وإنما تأتيهم حتى بيوتهم وفيلاتهم قطع اللحم الأحمر الوردية المشفاة من أجزاء الذبيحة المختلفة حسب الطلب، سواء كانت بفتيك أو فلتو أو ريش أو موزة. ذقت الصنفين من اللحم فعرفت الفرق الشاسع بين الطعمين ، ومن ذاق عرف.

ال"مع" تجعلنى ألزم وطنى وأرضى ومصنعى وزقاقى وبوابتى وناسى وأهلى . ال"عند" تبعث فى روحى الأمل والرغبة الحارقة فى رؤية العالم الغربى المتقدم والسفر اليه بالطائرة، لأرى الدنيا من فوق وأشرب النبيذ وأستمع الى الموسيقا الهادئة وأنا مسترخ على مقعدى، حتى تهبط بى الطائرة الى أرض الأحلام التى لاتكف أبدا عن مراودتى فى الصحو والمنام.

أتصور أنه لو قدر لى أن أعيش الى الأبد فى هذه البلاد – أو لو ولدت فيها ونشأت وتربيت- لما شعرت يوما بالعذاب الذى يعانيه وجدانى بين النقائض المزعجة كالرأسمالية والاشتراكية. الفرد والمجتمع. الحلال والحرام. الأصالة والمعاصرة. التراث والحداثة. ماجدة وسلوى. شركة النصر وشركة حسين فتحى.

هناك أمور أعجز عن التوصل الى مفهوم نهائى بشأنها يعيننى على التعايش معها ، بحيث لا يكون أمامى إلا أن أتركها للزمن والأحداث وتعاقب الأيام.

****

ماجدة عبد القوى

****

- الحكومة وصلت يا رجالة
- كبســـــة!!
- الحق يا جدع

الكل يجرى فزعـــا...

- لا أحد يتحرك خارج البوابة. كله يثبت مكانه. أين "مرمارة" العالمة؟. الويل لمن يخفيها

لم أكن أتوقع أن يصل التنافس بين "مرمارة"و"بربرة" على إحياء الأفراح لحد القتل. جرائم القتل فى منطقتنا قليلة جدا. يقال ان زوجها"عرب ميزو" قد عاونها على ارتكاب الجريمة طمعا فى احتكار أفراح بحرى كلها. البوليس يداهم المنطقة.

- أين السيد طلبة؟
- افتح الدكان ياحيوان!

آه..هذا ما تعودنا عليه. ضابط البوليس الشاب يشتم رجلا فى عمر أبيه. يقول"خالد" إن جدة هذا الضابط من فصيلة النسانيس لكنه لايدرى لجهله بعلم الوراثة..الحكومة تهاجم بوابة مورو، معقل التائهين!.

يقول لى خالد الحنفى العزيزى ان صبره لن ينفد أبدا. لن يهاجر الى بلاد أخرى بعيدة أكثر اتساعا. لايراوده خاطر الهجرة إلا حين يعبر الطريق الرئيسى الى مدرسته فوق علامات عبور المشاه. يقف عند بداية العلامات الأرضية البيضاء. عيناه على إشارة المرور. يقف معه شيوخ وأطفال. ينساهم شرطى المرور ولا يعبأ بوجودهم. يفضل عليهم عبور المركبات. حين يتذكرهم يقطع عليهم الاشارة وهم فى منتصف الطريق. تهاجمهم العربات المندفعة من الشوارع الجانبية تتبعها عربات الطريق الرئيسى. فى كل مرة كان يقرر أمرين: أولهما الرجوع الى الشرطى لتنبيهه الى أن هناك فرق كبير بين الانسان والعربة ، وثانيهما الهجرة الى بلاد أخرى يفهم قومها ذلك الفرق. الا أنه لم ينفذ أحد القرارين حتى اليوم.

هو فى عناق دائم مع الأمل، ومن ايمانه بأن الكثير لم يتحقق بعد ، فإنه يتفق معى على أن ممثلى الشعب الحقيقيين لدائرة بحرى لابد أن يكونوا نابعين من حواريه الضيقة وأزقته غير المرصوفة، لا من خلف بوابات حديدية سوداء تنبح أمامها كلاب ضخمة، كما وصفها لى أحمد السيد ، ويقف من خلفها خادم أسود ، فى الربع الأخير من القرن العشرين!.

عندما أعلنت لاحمد السيد رغبتى فى الحصول على شهادة للتقليل من اتساع المسافة بينى وبينه، حتى ينظر الى باحترام كما ينظر الى زميلاته المهندسات بالمصنع، أوكل خالد لهذه المهمة التى قبلها بسعادة غير متوقعة.

****

طالما تردد اسم"حودة تمنتاشر" فى بياصة الأنفوشى قبل أن تقام عليها المبانى والمنشآت الضخمة. ملك غير متوج على المنطقة. له الحق فى أن يشترى ويبيع الأشياء والناس فى المنطقة كيفما يحلو له. شديد البأس كثير الأعوان. يلف لاثته على رأسه بطريقة مميزة. كان متخصصا فى سرقة معسكرات الانجليز والاتجار فى المسروقات بالجملة. على كل من رغب فى سرقة منطقة معينة أن يأخذ الإذن أولا من حوده فى مقابل مبالغ معلومة تخضع دوما للتعديل حسب مقتضيات الحال ، وقيمة العائد المنتظر. الا أن حودة فضل مؤخرا الاتجار فى البضائع المهربة بأنواعها المختلفة عن أى عمل آخر.

تردد فى الأعوام الأخيرة على كباريهات لبنان بعد أن جرى القرش فى يده. عاد فى آخر رحلاته ومعه مرمارة. كان ينوى أن يتزوجها ، لكنه عدل عن رأيه لأسباب غير معلنة. تزوجها عرب ميزو صديق السيد طلبة الحميم، الذى كان الجميع يتوقعون أن يتزوج من بربرة العالمة.

نصحه أحد أصدقائه بأن يكمل نصف دينه بعد عودته من الأراضى الحجازية حاملا لقب"الحاج حودة". قرر أن يمنع بربرة من الرقص مع العوالم. خلال فترة التفاوض بينهما على هذا الأمر ، وقعت الواقعة.

توجه الحاج حودة الى غرزة أم الشحات بالمعبد البطلمى برأس التين متقصيا الأنباء. قيل له ان الذى يعرف مكان اختباء مرمارة وزوجها عرب ميزو هو الأسطى سيد طلبه. عقد مجلس"جدعان" مع السيد طلبة – دون علم أحمد - وبعض من رواد الغرزة. أنكر سيد طلبة صلته بالموضوع من أساسه ، واستبعد بقوة أن يقترف عرب ميزو مثل تلك الجريمة الشنعاء ، مهما كان من تأثير زوجته مرمارة عليه ،فهو يعلم يقينا أن صديقه الفنان عرب رجل جدع لايمشى وراء كلام النسوان.

أقسم حوده بشرفه انه سيقتل السيد طلبة لو لم يدله على المكان الذى أخفى فيه صديقه عرب وزوجته. قال لى أحمد:

"كان الجو متوترا. الرجال ينفثون دخان المعسل والسجائر بانفعال واهتمام متزايدين. نظرت اليهم بعينى خالد المتأملتين الشاردتين ، لست أدرى لماذا. صديقى التعس المسالم دائم السكون والتأمل. يراهم مجرد مخلوقات تمشى على قدمين. تختار أرضا تجتمع فوقها. يجلسون على مؤخراتهم.ظهورهم منحنية. نظراتهم ميتة. علامات تركيز لاداعى لها تبدو على وجوههم. يمسكون بأياديهم أشياء من صنعهم ينبعث منها حين اشعالها دخان أبيض كثيف يعبق به المكان. يتخذون قرارات. يجبرون البعض على فعل ما تم الاتفاق عليه حتى لو لم يوافق البعض عليه. يأكلون. يفرزون. يتشاجرون. لايفكرون. ينامون. يتصارعون. يتبادلون بعض المشاعر الحلوة أحيانا والمرة أحيانا أخرى . أخيرا يتناسلون ثم يموتون!

يئست من محاولة إقناع أبى أن يدع الأمر للشرطة وألا يعرض حياته للخطر فيما لو ارتكب حماقة لامبرر لها مراعاة لخاطر الصداقة. قلت لحوده لتجنب شره:

- اعتبرنى أنا المسئول عن اخفائهما ، وثق أننى سأدلك على مكانهما حين أعرفه.

ثم انفردت بأبى وأنا فى حيرة. لماذا يزج بنفسه فى مثل تلك المشاكل؟. صحيح أنه لم يعد يهتم كثيرا بعمله فى الأيام الأخيرة. لكن الفراغ وحده لم يكن مبررا يدفعه الى التورط فى سقطات هؤلاء المشاغبين. شعرت من حديثه معى أنه يخفى عنى شيئا ، وأنه من المؤكد قد ساهم بنصيب ما فى أحداث هذه الفاجعة."

قلت لـــه:

- قد يصبح أبوك فى عداد المجرمين. انقذه وانقذ نفسك. لم يزيد الطينة بلة هذا العجوز؟

توجه أحمد مع أبيه الى القبو. أعادا ترتيب محتوياته بعد أن بعثرها المخبرون وكأنهم كانوا يبحثون عن طربة حشيش. أشعل موقد الكيروسين. أعد الشاى. وضع الفحم على النار. جلسا يشربان الشاى معا. حين يشرب السيد طلبه الشاى فإنه يصدر صوتا مسموعا يئز فى نشوة وحافة الكوب منحسرة بين شفتيه. أفشى السيد لابنه بالسر:

- أعرف مكانهما !!
- ماذا تقول؟ لم فعلت ذلك؟
- لا أعرف
- تريد أن تسجن وتلطخ سمعتك وسمعتى؟!
- السجن للرجال
- أف!!.. ما شأنك يابا بهؤلاء المجرمين؟
- تقول لى أف؟..ألم تقرأ القرآن؟
- ....
- عرب صاحبى ولجأ الى فى وقت شدة فهل أتخلى عنه؟..لماذا لاتقرأ القرآن؟
- لن يفلت من البوليس. سيقبضون عليك أيضا. أين أخفيتهما؟

- بربرة قفلت السوق على مرمارة وعرب. قبل الحادث بيومين اقترض منى عرب جنيها!.. هل تصدق ذلك؟
- أين أخفيتهما ؟
- بربرة بنت عمارتين فى الحجارى وعرب أصبح على فيض الكريم
- الوقت يسرقنا
- ربنا موجود..أتخاف على من السجن؟
- طبعا
- بل تخاف على نفسك من الفضيحة يابشمهندس

قال لى أحمد:

أفرز أبى كلماته الأخيرة من خلال ابتسامة أحسست بها غريبة على وعليه أيضا إذ أرى فيه مثلى الأعلى. قالها ويمناه تعبث بالفحم المشتعل دون أن تتحرق أصابعه. انتهى من إعداد الجوزة وسحب نفسا عميقا ، ثم تابعه بنفس آخر وأرسل بالدخان غزيرا من فمه ليغمر أركان الحجرة الضيقة ، ثم قال لى:

- نحن أولاد أصول. لانتخلى عن الصديق. هى الجدعنة هكذا
- لكن هذه الجدعنة يعاقب عليها القانون ياوالدى
- يا بنى أنا علمتك الكيمياء وليس القانون. اتكل على الله واتركنى لحالى

تذكرت الرجل الوحيد الذى كان يمكن أن يقنعه بخطورة موقفه. المعلم ألماظ . لكنه للأسف قد مات.

رأيت أن أتركه لأنام ، على أن أعاود محاولاتى معه فى الصباح. لولم يكن أبى لصحت فى وجهه:

- ياغبى!!

ما أن استيقظت حتى ارتديت ملابسى. لم أجده. أخذت على عاتقى مهمة البحث عن مرمارة وليكن ما يكون.

****

يسكن خالد فى زقاق فرعى من شارع "أبو ورده" برأس التين قرب التقائه بشارع صفر، حيث دكان عم مسلم الفطاطرى الشهير، الذى يبيع فطيرة الزيت الحار بقرش صاغ واحد. أحب المرور أمام بيت خالد لأنى أحب خالد. أحب بوابة مورو لأنى أحب أحمد طلبه. الحقيقة أننى أحب الرجال كلهم حبا شديدا. كل من يعجبنى أتفنن فى اصطياده والبحث معه عن مكان آمن نمارس فيه ما تيسر من الجنس معا فى الحدود المتاحة لى كعذراء لابد أن تظل عذراء ، حتى يأتى البطل المغوار ليحولنى ليلة الزفاف الى امرأة ويتباهى بين أهله وأقرانه بذلك. صحيح أنا نصف متعلمة ، لكنى أحب المتعلمين والمثقفين رغم أنهم أقل كفاءة فى إرضاء شهواتى عن أبناء الصيادين والمعلمين بالمنطقة. هم مفطورون على الغلظة والقوة. لايعرفون رقة أصحاب النظارات السميكة والأفكار الفلسفية.أغلب ممارساتى معهم تقع خلف حلقة السمك فى"حناية" سرية مابين طابية قايتباى والمساكن الشعبية هناك. مكان لايعرفه الا القليلون ولا يلزم أحد أو يفيده فى شىء أن يعرفه ويقصده. بالنسبة لى هو ملاذى الذى أفرغ فيه شحناتى الملتهبة التى لاتتوقف لست أعرف لماذا. العيب الوحيد – وإن كان محببا لى – فى هذا المكان هو تناثر رذاذ الموج على أنا ومن يرافقنى حين اصطدامه بالصخور المواجهة. لكن هذا لايؤثر اطلاقا على حدة رغبتى وتصاعد نشوتى.

أحمد وخالد لا يعلمان شيئا بالطبع عن هذا الأمر. لو علم خالد لانتهت العلاقة – بسلام - بينى وبينه على الفور . لو علم أحمد فربما يقتلنى . "على بلاميطه" هو الوحيد الذى كشف سرى لكنه سترنى ولم يفضحنى. يسكن فى بيت قديم مجاور لمخبئى. أصله من رشيد ، وقد نزح من هناك مع أهله واستوطن السيالة كغيره من أهل رشيد النازحين الى الاسكندرية. كان بلاميطه يعمل فى شبابه بمطعم أسماك "قدورة" الكائن فى احدى حوارى السيالة القريبة من حلقة

السمك ومسقط رأس حميدو فتوة السيالة الراحل الشهير. كان يحمل السمك الى المطعم من الحلقة على الطاولات الخشبية ، ثم يقوم بتنظيفها وإعدادها للشى والقلى، كما كان يساعد فى إعداد السلطات بغسل الجرجير والخيار والطماطم وتقطيعها الى قطع صغيرة بحرفية شديدة. وعندما يكون هناك نقص فى عمالة الجرسونات فهو يساهم فى تقديم الطلبات الى الزبائن.

بعد ذلك انتقل من العمل عند قدورة الى مشاركة شيخ الصيادين فى صيد الجرافة، لكن هذه المشاركة لم تعمر طويلا، إذ انتقل الى العمل بمركبات الصيد الكبيرة التى تبحر من الميناء الشرقى متوغلة داخل البحر ، حيث يبيت فى البلانص ليوم أو أكثر حسبما يجود به الرزق من الأسماك. فى يوم وقع فوقه صارى البلانص فأصابه بعاهة مستديمة فى قدمه ، أقعدته عن مواصلة العمل المرهق فى البلانصات وعاد من جديد الى حلقة السمك. يساعد فى نقل الطوايل مقابل حفنة من السمك عن طل طاولة. يقوم بتجميع حصيلته من السمك آخر النهار ليبيعها لرواد الحلقة من نساء بحر اللاتى يتعاطفن معه ولا يفاصلنه فى السعر دونا عن بقية البائعين، خاصة وأن أسعاره مهاودة لأنه لايعرف الطمع.

غار منه"محمود الشضلى" السماك المعروف بالقسوة والغلظة وطول اليد. اعتبره منافسا له فى الرزق فقرر طرده من حلقة السمك وحرم عليه العودة اليها الى الأبد. اضطر بلاميطة الى أن يسرح فى منطقته المحدودة بطاولة خشبية صغيرة عليها علب من السجائر والكبريت وأشياء أخرى خفيفة الحمل . عندما يتعب من المشى بسبب عاهته يجلس مركونا على حائط الرصيف ويغنى مواويل داوود حسنى القديمة، مختلطة بأخرى من ذاكرته فى أنغام شجية راقصة.

صيد العصارى ياسمك بنى/ تلعب فى الميه لعبك يعجبنى
آه ياسمك بنى
صيادك ماهر بياعك شاطر/ووجودك نادر ماحلاك يابنى
مالك ياحلوة مالك/ هو الغرام غير حالك
والله غاروا عزالك / لما رأوك فى جمالك
انت حياتى وروح قلبى/ وبحبك لكن ايه ذنبى
ياطيرة طيرى ياحمامه/ هاتى لى من حبى علامة
يكفى عذابى حرام والله

ويشاع عن بلاميطة أن زوجته أحبت غيره بعد انهيار صحته. عندما بلغته الإشاعة كذبها عن يقين، لعلمه بمدى اخلاص زوجته له. لكن من يسمعه وهو يغنى ويتأمل فى شجنه ودموع عينيه ، ربما يصدق هذه الإشاعة.

عندما لمحنى أدخل الكهف السرى المهجور مع أحد الشبان، تظاهر بأنه لم يرنا. انتظر حتى خرجنا حين فوجئت به ينادينى ولست أعرف كيف عرف اسمى.

- انتظرى انت يا ماجدة

وقال للشاب باحتقار:

- روح انت غور فى داهية يلعن أبو أمك

جرى صاحبى مرتعدا بسرعة البرق.قفز من الرصيف الى الأرض واختفى. أما أنا فقد انتابنى خوف شديد من نبرات بلميطة الغاضبة ، ولم أملك إلا الوقوف مترددة قليلا، ثم ذهبت طائعة اليه.

- تعملى فى نفسك كده ليه يابنتى؟
- عملت ايه ياعم بلاميطة؟
- صونى جسمك يابنتى واحترميه. ده عطية من ربنا وعهدة عندك. سيطرى على نفسك
- لا أقدر يا عمى
- لاتجعلى جمالك يورثك الندم والفضيحة والعار بين الأهل والناس
- حاضر ياعمى

- لو جئت هنا ثانى مرة سأقول لأبيك
- خلاص ياعمى. آخر مرة
- ده انت بنت الشيخ عبد القوى بتاع ربنا. حرام عليكى يا شيخة، يلعن أبوكى بنت كلب.

حين كنت فى الثامنة من عمرى ضبطتنى أمى فى العطفة الضيقة المؤدية الى دهليز القبو ، وقد اختلى بى أحمد السيد.كانت الخلوة بالطبع غير مشروعة.كنا نقلد الكبار فيما نسمعه عما يأتونه بالليل من أفعال غامضة لكنها مثيرة. ندت عنها صرخة أعقبتها شهقة مطابقة فى توقيتها مع ضربة قوية بكفها على صدرها المكتنز. اصطحبتنا وهى ثائرة مزمجرة الى عم السيد فى حانوته العتيق. بعد أن حكت له الواقعة قالت له:

- يخلصك كده يابو احمد؟

تجاهل ما حكته له وقال:

- خير يا ام ماجده

عاودت حكى القصة على استحياء وقد تحفظت فى اختيار ألفاظها. ابتسم عم السيد ابتسامة ساخرة وقال لها:

- وايه يعنى ياست ام ماجدة؟
- أحيييه..ايه يعنى؟..بقى لو كانت بنتك كنت حتقول كده؟
- ياستى الحكاية بسيطة. حتة لحمة حكت فى حتة لحمة. ايه اللى جرى فى الدنيا؟

ضربت بيدها على صدرها مستنكرة موقفه الهازىء.

- أيووووه عليك!!..كده ياعم السيد؟
- عيال ويلعبون ياشيخة.. اعمل لك شاى؟

انصرفت غاضبة وهى تغمغم وتزمجر فى غضب.

- ينيلك بنيلة ياراجل ياندل. تعالى يابنت الكلب. عاوزة تفضحينا؟

العلاقة بينى وبين أحمد واضحة كالشمس.هو يخيل اليه أنه يحبنى وأنا أدرك بفطرتى أنه يشتهينى فقط ، وأوافق على ذلك مادام سيتزوجنى وأصبح حرم البشمهندس، لأنى لو اعتمدت على أبى وأمى فلن يكون من نصيبى إلا صياد أو نجار أو سباك، وأنا دائمة التطلع الى الأعالى. أعلم أن له علاقات أخرى وهذا لايهمنى مادام انجذابه الى جسدى قائما. أعلم ان هناك بنت أخرى تزامله فى الشركة وتنتمى الى طبقة الأغنياء. تحاول اصطياده بفلوسها لابجمالها ، فقد تلصصت يوما وراقبتها وهى خارجة بصحبته من المصنع لأقارن بين جمالها وجمالى فكسبت المعركة عن جدارة.

****

الدكتور حسن أبو جبل

****

●صفحات ساقطة من مذكراتى لم يعثر عليها رجال المباحث:

الثلاثاء...اغسطس.....19

المصحف والطبنجة جنبا الى جنب، أما الالكترونات فإنها تحوم مسرعة بلا كلل فى مداراتها حول الذرة. جريمة فى حق الانسانية يندى لها الجبين. شنقوا الرجل!!.. وقد أعيد طبع كتابه نفسه بعد موته بعدة سنوات. كان لابد للناس أن يقرأوا ما كتب سيد قطب.

تأثرت كثيرا حين قرأت نبأ يقول ان رجلا كان يحقن العمال بالمخدرات فى عروقهم نظير أجر شهرى يدفعونه مقدما. يالهم من أطفال. كم أود أن أحقنه بهذا السم فى عينيه..ومازالت النظريات تصاغ ، لكنى جربت أكل السمك وشرب اللبن على التعاقب ولم أجن !!.صيغت نظرية جديدة تلغى سابقتها بخبث وذكاء..لابأس..تضافرت جهود أصحاب المناشر من جديد. هاهى الآن قائمة فى نفس أماكنها السابقة تتحدى الحكومة،وعاد خميس يمارس وطنيته من جديد. العالم فسيح. فسيح. فيه متسع للجميع ، ولكل الأشياء الممكنة والمستحيلة. المعقولة وغير المعقولة. يا أمى الصابرة: أسمى الكلام يعجز عن التعبير عن حنانك الملائكى، أما أنت ياحمدى فينقصك الايمان بشىء محدد. تبحث عن أبيك؟.اذن فابحث. أما أنا فقد توصلت أخيرا الى تقسيم مبدئى لطبقات المجتمع كما لمستها، بينما يحوم الريس عبد الاله بلا هوادة حول "ليلى" يريد الزواج منها على سنة الله ورسوله محمد، يدعمه المال وبطانة المنتفعين. كراهية"ليلى" لماله أضعاف كراهيتها لشخصه المشكوك فى صلته بمقتل أبيها. انسانة محيرة!.لست أملك الا أن أحترمها وأعجب بنفاذ بصيرتها وحدة آرائها. أمقت حركة البندول كما لا أمقت شيئا فى الحياة. قالت لى ان لها رأيا شخصيا أصيلا فى الاشتراكية لم تتلقاه من الاشتراكيين. ليت الظروف تتيح لنا لقاء بهيجا. أتمنى ذلك بعد كل مافعلته بى . هل هذا هو الحب يا ناس؟..

عند أبناء الحضيض حيث أعماق المجتمع السفلى ، وأيضا عند الغربان ذوى الأناقة المتخومين برأس المال لاتكون الأمور حادة وقاطعة.لماذا؟..وهل يمكن حقا أن تذاب الفوارق المادية والفكرية وأن يلتئم الشمل فى تحالف بجرة قلم؟..عرضت عليها فكرتى عن الطبقية فى بلادنا. كانت تستخدم مصطلح"مجتمع المشردين"بدلا من"مجتمع الحضيض". لابأس. كله كلام.أضافت أن هذه الطبقة تشكل نسبة كبيرة من المجتمع تتميز بالذكاء؟،وغالبا ماتنصرف عن البحث فى مفاهيم الشرف والانسانية، لكن هل ترضخ "ليلى" فى النهاية وتتزوج من "عبد الاله" الذى يتمتع بوقت فراغ هائل ويكسب الكثير من المال بغير جهد يذكر؟.أغلب ظنى أنها لن تقدم على مثل هذه الخطوة قبل أن تحرق كتبها وتحطم ماكينة الخياطة التى أضعفت بصرها. مازلت أذكر بريق عينيها الحالمتين فى قسوة يوم تأميم قناة السويس. أذهلتنى بمناقشتها معى حول الوجود والعدم وحول مفهومها للقيم الأخلاقية منفصلة عن الدين. حزنت كثيرا لافتقادها – بالرغم من ذلك – الشعور بالجمال. جمال أى شىء.انها مخلوقة رائعة ولاشك!.

حين لفقوا تلك التهمة الزائفة لصديقى الشهيد "عبد الحليم عجور" ألقوا به فى السجن.ضربوه ضربا قاسيا.حين مثل أمام النائب العام- وكان عسكريا- لم يناقشه أو يتحقق من صحة مانسب اليه من اتهامات. فوجىء به يقول له بقسوة:

- أهو أنت يابن الكلب؟

ثم صفعه على قفاه بغلظة متناهية. يومها حاول الانتحار فى زنزانته. نزع الصفيحة المعدنية الرقيقة المحيطة بنهاية رباط حذائه الأميرى الضخم. راح يحكها على بلاط الزنزانة عشرات المرات حتى صارت حادة كالشفرة، ثم قال فى هدوء:

- أشهد ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله

أعرف أننى قد أعتقل مثله فى يوم من الأيام ، فنحن أبناء بحرى مشهورين بزيارة السجون من حين لآخر مهما اختلفت الأسباب. لكننى لست أرى فى ذلك ماقد يغير من نظام الكون بعد أن عشت السنين وسط الأمواج المتدافعة وسمعت أبى وهو يغنى فى سعادة من الوهم:

بلدى يابلدى يا اسكندرية.. فيك المحاسن والفن غية

قطع "عبد الحليم عجور"شريانه بالسلاح الذى صنعه بيده. تمكنوا من انقاذه وكافئوه على فعلته بإيقافه حافيا على حافة رصيف حجرى وضربه على أطراف أصابع قدميه بخيرزانة رفيعة حادة. لكن أبى – الذى مازال حمدى يبحث عنه – كان يقول لأمى الطيبة حين يشهر إفلاسه فى كل مرة قبل منتصف الشهر:

- لها النبى اذا عظمت ، وإن تاهت يبان لها دليل

ويؤرقنى السؤال المزعج: لماذا رفض أبى أن يتعاون مع الريس "عبد الاله"؟..ما السبب الحقيقى؟..وفى النهاية فإنه ينبغى أن نبحث عن حقيقة نجد من خلالها سببا لوجودنا التافه، وإن ذلك لشىء شديد الارهاق ، مادامت الأمور تجرى على عقرب بندول مذبذب!.. وبالرغم من كل ذلك فهناك مازالت شواهد الحركة على العقارب المذبذبة تثير رائحة العفن.

فى الصباح تستحم المرأة بعد أن تنتهى من أعباء الليل، ثم تمضى وقتا لابأس به فى طابور أمام مجمع استهلاكى مرة للخبز ومرة للتموين ومرة للبوتاجاز، فالعقارب حين يتعلق الأمر بزمن مصيرى إما أن تتحرك فى اتجاه واحد وإما أن تتذبذب فى حركة أمقتها ، وإما تسكن تماما.. ثم تعود المرأة ومعها تعود دورة الأشياء المملة كالحياة. أريد أن أدمر كل الأشياء المحيطة بى.

فى لحظة أنس استمعت الى كلمات "مصطفى سبرتو" فيلسوف الصعلكة العجوز الذى يمضى نحو قبره ويجيد الانجليزية. يتشكك فى كل شىء. يحن الى الشباب.حروف الكلمات تصنع على شفتيه ابتسامة ساخرة من الحياة والموت معا. قد تكون الحركة فى أى الاتجاهين صحيحة، أما الحركة الزئبقية عديمة اللون والطعم والرائحة فيعبر عنها أصحاب المناشر بالمثل الشعبى:سمك لبن تمرهندى. . والرجوع بعقارب الزمن الى وراء شىء مؤسف.

تبحث عن دموع حقيقية.عن بسمة صافية شفافة.عن عناق يخلو من النفاق الأصفر الحقير. قال لك العجوز ان الخير لم يفن على كوكبنا الصغير وإن خانك الصديق فلا تكترث. عليك أن تعيد تجربة الصداقة مع بقية رجال الكوكب ان استطعت وإن كانت سنوات عمرك لن تكفى لعقد صداقات معهم أجمعين. جرب مع عشرة. عشرين. ثلاثين.انجليزى. مصرى. هندى..كلهم أبناء الخطيئة اياها. مع ذلك ستدهش حين تكتشف أن حياتنا الدنيا هذه ماهى الا لغز كبير.

اقتضى سياق الحديث أن أقول لمصطفى إن المرأة مخلوقة غير جديرة بالاحترام ، جبلت على الخيانة والأنانية ، وكأننى أستطلع رأيه فيما أقول. قال لى :

- ان خانتك احداهن فهى واحدة. عليك ان تعيد التجربة مع بقية نساء الكوكب قبل أن تطلق عليهن مثل ذلك الحكم الساذج. ستضطر الى مراجعة نفسك من جديد، فهل ذلك الفرع الضئيل من أصل التجارب الدنيوية المتشعبة الأفرع الضاربة بجذورها فى أعماق المجهول هو المحك الأوحد للكشف عن قيمة أخلاقية محددة تسميها أنت بالاخلاص؟..قد يتبين لك يوما أن الاخلاص عندك هو نفسه الخيانة عند غيرك، وقد يتبين لك أيضا أن هناك بالفعل أماكن خالية من الذباب. قد تدفع عمرك ثمنا لاكتشاف الحقيقة المفقودة على أرض هذا الكوكب العظيم، وحين تصير عجوزا مثلى ستزول عنك كل معالم الدهشة والانفعال للأحداث. ستمحى آثارها من تعبيرات وجهك حيث تتساوى حينئذ صدمات السعادة والتعاسة، فالجوهر واحد ، وليس من العجيب بعد ذلك أن تتمخض أفانين القدر فتلد لنا تكرارا محققا من ذلك الصراع الأزلى الرهيب ممثلا فى خطوط الجبين وشعيرات المفرق البيضاء ونظرات العيون الزائغة فى ترقب المجهول.

لقد أيقنت أن المسألة على بساطتها غاية فى التعقيد. الشباب وحده هو القادر على صنع تصميم جديد لكيف الحركة وكمها، فالمصحف والطبنجة جنبا الى جنب، أما الالكترونات فإنها تحوم مسرعة بلا كلل فى مداراتها حول الذرة.

كلما يمر الموكب المهيب يهجم الزبانية على صديقى المصور. يعتقلونه.يغلقون دكانه. يبيت فى التخشيبة. يظل يقرأ القرآن حتى الصباح. يعتقد أن فيه خلاصه. يتحمل بعض السباب والركلات، وفى الصباح يطلقون سراحه.

وبعد ياحسن؟..حددت معالم طريقك ، فماذا أنت صانع به حتى تجد المخرج الانسانى الملائم؟..هل وجدت حلا عادلا يقف أمام مسألة أن يتحكم القدر فى انتمائك الى طبقة معينة من تلك الطبقات التى شغلت نفسك بها؟..استمر اذن فى البحث والقراءة. ليس أمامك فى الوقت الحاضر ماهو أكثر من ذلك. ويكفيك الأمل فى أن تجد حلا عادلا.

"نادية" انسانة طيبة على عكس أمها.تتعاطف كثيرا مع"مصطفى سبرتو".تقدم له الطعام حين يجوع و يطرق بابها. كبرياؤه لايخونه الا أمام ليلى الاسكندرانى التى تعطف عليه هى الأخرى وتهتم بأمره. يبدو على وجهه أن هناك سرا خطيرا يود أن يبوح به اليها ، لكنه يخشى عواقب مجهولة قد تودى بحياته.

فى كلمتين أقول: الأمل ضائع. الإيمان مفقود..هذا هو حمدى..وفى كلمة أقول: الله موجود، وهذا هو أنا.

لايوجد فى بلادنا فرد أو جماعة او هيئة أو حكومة أقدر منا على توجيه هذا الشعب أكثر منا. رغم ذلك فجماعتنا مضطهدة فى كل العصور ومن كل الحكام. نحن نستطيع أن نستنفر كل أعضاء الجماعة على مستوى القطر كله فى خلال أربع وعشرين ساعة بدقة ونظام يفوقان دقة وانضباط جيش كامل. قدرتنا على التنظيم والتجميع لانظير لها. نحن الذين نعلم الشعب ماهو الدين الحقيقى كما نراه وكما رآه مرشدنا العظيم.

حين روجنا لمقولة أن "الاسلام هو الحل" التف الشعب حولنا رغم أن المقولة فضفاضة صعبة التفسير، غير مصحوبة بتفاصيل من أى نوع لهذا الحل. نحن لا نؤمن بما يسمونه الوطنية. لاوطنية عندنا ولا قومية ولكن أمة اسلامية واحدة. المواطن الأكوادورى يرى فى إكوادور أم الدنيا ، وهى عنده خير وأفضل من كل عواصم العالم. أكثر ما يغيظنى أن يقف الناس حين يعزف مايسمونه بالسلام الوطنى.وثنية وكفر. حكومة كافرة ، يأكل شعبها من حرام. ان حركتنا تعد من أوضح الحركات الاسلامية منهجا وفكرا ، وأكثرها اعتدالا ويسرا. اعداؤنا يصفونها بالإرهاب والتطرف.

يقول الكاتب الأسبانى الحقير"سيرخيو كاستانيو" انه"لايمكن إنكار أن التنظيم السرى للإخوان المسلمين قد قام بممارسة أعمال إرهابية على أرض الواقع. ان الهدف الوحيد لهذا التنظيم هو الوصول الى السلطة بأى شكل"!!..ولماذا لانحاول الوصول الى السلطة لتحقيق هدفنا الأسمى وهو إقامة الدولة الاسلامية المنشودة ، بالقضاء على جميع النظم السياسية غير الاسلامية، والسماح لجماعتنا بالسيطرة على مؤسسات الدولة، فلا تكون السيادة لهذا الشعب الكافر. بالتالى فلا معنى لكلمة الديموقراطية بأشكالها الغربية المختلفة. الحاكمية لله هو مذهبنا القائم على خطين متوازيين ، هما رسائل حسن البنا وفكر السيد قطب. من هنا يحق لنا قتال كل من فى العالم الغربى والمجتمعات العلمانية والحكومات الكافرة التى تسيطر حاليا على العالم الاسلامى. المواجهة المسلحة أمر حتمى لامفر منه.

لامانع لدينا من التحالف مع الشيطان لتحقيق رسالتنا المقدسة. دعوتنا سلفية وطريقتنا سنية وحقيقتنا صوفية. نحن هيئة سياسية وجماعة علمية دينية ثقافية وفكرية واجتماعية ورياضية، طابعها إصلاحى ومضمونها تبشيرى باستعادة الحكم الاسلامى. نحن أقوى من الدولة.

تحكيم شرع الله هو الفيصل فى كل شىء. لا الحكومة ولا البرلمان ولا الرئيس ولا القضاء. ليس أمامنا بعد النصيحة والبيان إلا الجهاد. المجتمعات نوعان لاثالث لهما عندنا، هما المجتمع

الاسلامى والمجتمع الجاهلى..ورسالة الإخوان التى أومن بها وأدافع عنها وأضحى من اجلها هى إحلال المجتمع الاسلامى محل المجتمع الجاهلى.

ان المجتمع الذى يسمح لحكومته وشرطته ان يسحب أبى ويجرجره ويسحله ، لتسيل دماؤه على الأرض ، بعد ان يقضى بالعنف على مصدر رزقه، هو مجتمع يجب القضاء عليه من جذوره بلا هوادة أو رحمة.

****

مجذوب البحـــر

****

●سبـــاق البنوز:

كان من مستلزمات الوجاهة و"البرستيج" للمعلمين أصحاب أسطول عربات الكارو بالميناء ،ووجهاء حى بحرى ،وأصحاب بلانصات الصيد، وتجار مخلفات السفن، وكبار أصحاب ورش تصنيع السفن ومراكب الصيد على شاطئ الأنفوشى وغيرهم ، هو ركوب "البنز" ، وهو النسخة المطورة والمرفهة من عربات الحنطور، ويصنع من أجود الأخشاب والجلود والمعادن . كراسيه من الجلود الطبيعية السوداء المنجدة اللامعة. وعلى الجانبين فانوسان من النحاس المشغول بحرفية عالية. وتحت قدم السائق دواسة معدنية كلما ضغط عليها جلجل جرس ذوصوت موسيقى مبهج .. يجرها زوج من الخيول المطهمة الشابة العفية. ينتقل المعلم من بيته فى الصباح مستقلا البنز الى مكان عمله فى وجاهة ووقار "مجعوصا" على الكرسى الخلفى ، بينما يجلس سائقه على الكرسى الأمامى العلوى، يلهب ظهور الجياد بسوطه ويجلجل بأجراسه.نفس الحال عندما ينتقل المعلم الى مقهاه ليجلس مع نظرائه فى المساء .

كنت فى حوالى العاشرة عندما كنا نتجمع مع صبية الحى ونتوجه عصر كل أحد الى الساحة المقابلة لقلعة قايتياى، لنشاهد تجمع المعلمين بعربات البنز الخاصه بهم وهى فى أوج زينتها ،حيث تعود المعلمون على اجراء سباق ماراثونى بعرباتهم من أمام القلعة كنقطة انطلاق،وعلى طول كورنيش الميناء الشرقية حتى نقطة النهاية بالسلسلة.

على طول الطريق يتراص مشجعى وصبيان وأولاد كل معلم لتشجيع معلمهم بالهتاف والتهليل والتصفيق .. ما أن تمر العربات أمامهم حتى تنطلق حناجرهم:

- اسم الله عليه اسم الله عليه
- حلال عليه حلال عليه

يصاحبها تصفيق مرتب وعلى الواحده ... تمرق البنوز على الكورنيش كالسهام، وتجلجل الأجراس ، وتدوى الحناجر ويلتهب الحماس . كنا نحن الصبيه نجرى خلف البنوز فى خفة وهمة وحماس من البداية ، منتشين بفرح طفولى وقلوب تملؤها بهجة بريئة. عند نقطه النهاية كان ينتظر الركب فرقة موسيقية سكندرية ،أهم آلاتها الأوكورديون مع زوربا الاسكندرية الراقص الشعبى "السيد حلال عليه" ومأأن يصل أول بنز حتى يشتعل الحماس بالفائز، وتدوى الموسيقى، ويبدأ حلال عليه رقصاته التى تتسم بعنفوان الرجولة السكندرية ممسكا بمطواه لاتفارق يده. يطعن بها الهواء ويطوح شاله الحريرى أمامه وخلفه محتفظا بخطواته على ايقاع التصفيق، ثم يركب المعلم الفائز البنز الخاص به ،وتبدأ مراسم زفة اسكندرانى معتبرة، تتقدمه الفرقة الموسيقية بعزفها والسيد حلال عليه برقصه عائدين الى نقطة البداية حتى يسقط الظلام.

كنت أعود فى النهاية وأنا أشعر أننى أطير ولا أمشى ، منتشيا بما شاهدت وقدامتلئت رئتاى عن آخرهما برائحة البحر، وحفرت فى ذاكرتى كل المشاهد لتستقر بها حتى نهاية العمر.

****

●معالم سكندرية تصعلكنا فى أرجائها:

●قهوة خبّينى:

يرتبط تاريخ معشوقتى الاسكندريه الحديث بمقاهيها العديدة المتناثرة فى أرجائها . من أشهر هذه المقاهى قهوة فاروق والقهوة التجارية وقهوة على الهندى التى أطلق عليها روادوها قهوة" خبينى" لأنها تقع فى الساحة الداخلية لأحد المبانى التراثية التى بناها الايطاليون بالمنشيه . لكن هناك العديد من المقاهى التى اندثرت وتاهت من ذاكرة الكثيرين ومنها قهوه النجعاوى التى كانت تقع فى محيط شارع فرنسا، فى شارع متوارى يقع بين سوق "الكانتو" وهو جزء من "زنقة الستات" وبين خلفية مبنى الأوقاف ، وهو شارع صغير يمتلئ بتجار

الخـــــــــردوات ومســـــــــــتلزمات الحياكـــــــــــة وأدوات التجميـــــــــــل .
كان المقهى الذى يشبه الى حد كبير مقهى الفيشاوى بالحسين ، يتسم بسحرخاص وجو ساحر مفعم بعبق الاسكندرية القديمة تنتشر أغلب موائده على طول الشارع،ويقصده بالنهار المحامون وأصحاب القضايا لقربه من المحكمة، وكذلك التجار المتعاملون مع محلات زنقة الستات، فضلا عن رواد المكان الذين اعتادوا الجلوس عليه.
أما فى المساء فكان ملتقى معلمى ميناء الاسكندرية وتجار سوق راتب، والأفندية ومحبى جو الاسكندرية العتيق، يجلسون فى هدوء ووقار، يدخنون الشيشة ويتحدثون فى كل الموضوعات. وكان المقهى يغلق أبوابه عند العاشرة مساء ،لأن السوق المحيط به يغلق محلاته مبكرا، لتصـــــــبح المنطقـــــــــة مقفـــــــرة خاليـــــــة مـــــــن المـــــــارة.
أغلقت المقهى أبوابها فى نهاية الستينيات تقريبا ،لوفاة صاحبها النجعاوى الكبير، وحلت محلها المحلات التجارية، ولم يبق منها ولاحتى صورة واحدة، وان كانت ذكراها تعيش فى قلوب من عرفوها وعشقوا جوها.

●<u>سوق العيـــــــــد</u>:
ساحة كبيرة تتوسط بيوت عتيقة تقع فى أول شارع راس التين، متفرعة من شارع اسماعيل صبرى. كما أنها تؤدى الى سيدى الأباصيرى وميدان المساجد. تعارف الناس على تسميتها بسوق العيد منذ زمن بعيد. كان للساحة اسم آخر متعارف عليه أيضا هو" الخمس فوانيس" لتواجـــد عـــامود انـــارة فـــى أولـــه يحمـــل خمســـة فـــوانيس.
على يسار الساحة يقع مسجد "سيدى على تمراز" الذى بناه حسن باشا الاسكندرانى قائد الأسطول فى عهد محمد على. أما سيدى تمراز نفسه فالمعلومات عنه شحيحة، وسبب التسمية أنه فى هذا المكان وطوال شهر رمضان وفى الأعياد ، يكون مسرحا مفتوحا مليئا بكـــــل وســـــائل التســـــلية للصـــــغار والكبـــــار :
المراجيح بأنواعها والنيشان واختبار القوة بدفع عجلة حديدية عليها أثقال فوق حامل خشبى، والشيكا بيكا أو الدمية المتكلمة و خيال الظل وخيمة الأراجوز وباعة الطراطير والبخت وعربات الكسكسى والفشة والممبار.. مولد كبير صاخب لا أول له ولا آخر. كان أغرب وأهم مايميزه هو الخيمة التى يعرض فيها بعض الرجال المخنثين المتشبهين بالنساء وقد تلطشت وجوههم بالالوان الصارخه وبرزت صدورهم كالنساء. يرتدون بدل الرقص ويرقصون بمجون ويغنون لقاء قرش واحد للتذكره .. هؤلاء المخنثين الذين اختفوا من الوجـــــود حاليـــــا كـــــان النـــــاس ينعتـــــونهم بـــــالخولات.
وتبدأ الجولة مع الأصدقاء باستئجار بسكليت من عم بسطاوى العجلاتى ، والانطلاق بها حتى ميدان المساجد والرجوع ، ثم المرور على كل الألعاب دون المخنثين الذين حذرنا آباؤنا من مشاهدتهم ، الى أن ينتهى آخر مليم من مصروف العيد ، والذى لم يكن يتجاوز شلنا فضة يحمل صورة بارزة للملك فاروق.

● <u>المسرح الروماني</u>:
هو المسرح الروماني الوحيد في مصر وقد تمت إقامة هذا المبني في بداية القرن الرابع الميلادي. يتكون من أثنى عشر مدرجا من الحجر الجبري علـــى شكل نصف دائري، و يضـــم حمامات رومانيـــة من العصر الروماني.

●<u>جبانة كوم الشقافة</u>:
يرجع تاريخ مقابر كوم الشقافة إلى القرن الثاني الميلادي وهى مقابر رومانية ، والمقبرة نحتت في الصخر تحت الأرض، وهى فريدة من نوعها وتتميز بالنقوش البارزة وتجمع بين الفن المصري القديم والفن اليوناني الروماني.

●<u>مقبـــــــــــــــرة الشـــــــــــــاطبي</u>:
تقع جنوب شرق لسان السلسلة و شمال مدرسة سان مارك من ناحية البحر ، تم اكتشافها عن طريق الصدفة عام 1893م و تؤرخ لنهاية القرن الرابع و بداية القرن الثالث ق. م.

و تعتبر من أقدام الجبانات البطلمية في الإسكندرية لوجودها خارج أسوار المدينة.
●مقابر مصطفى كامل:
تقع بشارع المعسكر الروماني برشدي وهى عبارة عن أربعة مقابر من العصر البطلمي.
●مدينتى كنز من الآثار والمتاحف:
أخشى من الاستفاضة فى ذكر المعالم الأثرية بمعشوقتى الكوزموبوليتانية ، حتى لا أحول رواية صاحبنا المؤلف الى تقرير جاف عن تلك المعالم يسهل الحصول عليه من أى مكتب تابع لمصلحة الاستعلامات. لذلك فسأكتفى بذكر بعض الأسماء العالقة بذهنى دون تفاصيل ، لمجرد أن أرضى ضميرى ولا أبخس مدينتى حقها.
هناك قلعة قايتباى وعامود الصوارى، ومعبد الرأس السوداء ومقبرة اللاتين بطريق الحرية أمام قسم باب شرق، وصهريج الشلالات، والمتحف اليونانى الرومانى، ومتحف الفنون الجميلة، ومتحف ومعهد الأحياء المائية، ومتحف المجوهرات الملكية، ومتحف كفافيس،ومتحف محمود سعيد.
●مدينتى مدينة الحدائق والقصور والمساجد، ليس كمثلها مدينة فى الدنيا:
اللهم صل على جمال النبى!.. علمتنى أمى أن أردد:"ماشاء الله لاقوة الا بالله" لدرء الحسد. ماشاء الله لاقوة الا بالله. عندنا حدائق المنتزه ، وحديقة النزهة، وحديقة أنطونيادس، وحديقة الورد ، وحديقة الشلالات ، والحديقة الدولية. عندنا قصر المنتزه ، وقصر السلاملك، وقصر الحرملك ،وقصر أنطونيادس، وقصر الصفا ، وقصر رأس التين. عندنا مسجد سيدى أبى العباس المرسى ،ومسجد الإمام البوصيري، ومسجد سيدى ياقوت العرش، ومسجد سيدى جابر الأنصارى، ومسجد سيدى بشر، ومسجد القائد ابراهيم.

****

ملاحظة: تسلسل الأماكن لايعنى تزايد أو تناقص أهميتها ، فهى مكتوبة تبعا لاسترجاع الذاكرة المنهكة.
●إنذار حاسم من الاسكندر للاسكندرانية:
عندما تخذلنى الاسكندرية أحيانا ولا تمنحنى عطور ماضيها القديمة المتخمة بعبق عظمتها ومجدها ، يصيبنى الألم وأنا أهيم بشوارعها.. أبحث عن ضالتى المفقودة وسط طرقاتها المحبطة التى افتقدت سحرها وجمالها وهدوءها، وتغيرت ألوانها ومعانيها ووقارها، وانسلخت عن ماضيها وتاريخها . أشعر أحيانا بالنقمة على الفتى المقدونى الذى بناها لكى يحقق أحلامه ويخلد اسمه ،ثم مضى واندثرت أمجاده كلها الا مدينة واحدة لاتزال تصارع الوجود وتلعق جراحها ، وتصارع جحود أبنائها، بينما تتوالى عليها الطعنات من كل يد فاسدة وكارهة للتاريخ والجمال. تتلقى الطعنات وتدمى وهى تقف بكبرياء فى شموخ وإباء ، فالمدن العظيمة لاتموت.
بناها المقدونى ومضى وتركها لنا لنبتلى بعشقها ونعانى من عذابها، ويصك أسماعنا فى كل حين أنينها المفعم بالكبرياء وهى تتلقى طعنات الجهلاء وأحقاد المغرضين .. تركها لنا وديعة غالية وإرثا لا يزول ..غصة فى الحلوق ووجعا فى القلوب، ونحن نرقبها تتغير وتتبدل وتتشكل من جديد، قبيحة مشوهة، بعد أن نزعوا عنها رداء ماضيها العظيم وطرحوا عليها أسمال الحداثة الرخيصة ، الفقيرة من كل معانى الرقى والجمال.
هل كانت الاسكندرية هى خطيئة الفتى المقدونى الكبرى قبل أن تكون أعظم انجازاته ؟ ألم يكن قائدا فذا ثاقب الرؤية عرف من معلمه الأكبر أرسطو متغيرات التاريخ و قسوته؟
.التاريخ لايعيد الدرس مرتين، ولا يعبأ بالأغبياء الذين يفرطون فى ماضيهم من أجل مستقبل رخيص باهت وزائل . هل ترى دار بخلده عندما أعطى الأمر لمهندسه دينوقراطيس ببنائها ،أنها ستؤول الى ماآلت اليه الآن: عجوز أعياها الاهمال والعقوق والجحود. تفككت مفاصلها وأصابها الوهن وفقدت ذاكرتها المضيئة بالفن والجمال !
انهم لن يستبينوا الرشد الا ضحى الغد كما قال الشاعر الجاهلى ، بعد أن تضيع من بين

أيديهم، ولا يتبقى منها الا بنايات أسمنتية قبيحة فظة القلب ميتة المشاعر.
وانا أستعد الان لاستقبال الفتى المقدونى عندما يزورنى فى منامى غاضبا ثائرا ليقول لى:
أخبرهم انهم لن يهربوا من عقابى ولن يحميهم أحد من لعناتى وأنت أولهم لأنك لاتملك الا الكلام والعويل.

● **أنا والبلطية المبطرخة:**

استلقى "ياقوت زنجر" على قفاه وهو يقهقه ضاحكا وقد اهتزت لحيته الغبراء الشعثة تحت فمه المفتوح عن أسنان خربة ، وهو يربت بيده المعروقة فوق ركبتى قائلا:

- والله لك وحشه كبيره قوى ياأستاذ
- ربنا يحفظك يا عم ياقوت
- من ياترى البلطية اللى خدتك من حبايبك؟

كان جو قهوة الصيادين بالأنفوشى أمام حلقة السمك خانقا، فالأبواب مغلقة لأن النوة كانت تزمجر بالرياح والأمطار .هجرالصيادون البحر حتى تنتهى النوة، فغص بصخبهم المقهى ، وامتلأ المكان بغمامة خانقة من دخان المعسل الرخيص و يمتزج صوت ارتطام حجارة الدومينو على رخام الموائد بضحكات عالية وصخب جنونى عفوى.

اعتدل ياقوت زنجر - بأعوامه الثمانين ووجهه الأسمر وأنفه الأفطس وطاقيته الصوف المسدلة فوق أذنيه وقامته القصيرة - على كرسيه محاولا فرد حدبة ظهره وهو يعيدالسؤال:

- أكيد البلطية مبطرخة وطازه وبتلعب عليك يا أستاذ

ثم عاود الاستلقاء على قفاه تاركا جوزة المعسل على المائدة.

فجأة شق الصخب والضوضاء صوت شخرة اسكندرانى قوية منغمة و ومسترسلة ، من "حوده جراد" الصياد الشاب وهو يمسك بخناق صياد آخر حاول أن يسرقه وهما يلعبان الكوتشينه .. ساد الهرج والمرج وعيب ياحوده ومايصحش ياجدعان دون جدوى . شخطة واحدة قوية مجلجلة من ياقوت زنجر أعادت الجميع الى مقاعدهم.

كان حب البحر قد دفعنى بحب الى مصادقة الصيادين بالأنفوشى والميناء الشرقية. كانوا شخصيات خيالية تبحث عن مؤلف يحكى حكاياتهم العجيبه عن البحر وخيراته وأهواله وأسراره . كان سرداب حكاياتهم طويلا ومظلما ، يحتاج الى دليل حتى لاتتوه خطاى . كان دليلى هو ياقوت زنجر الذى تعرفت عليه ذات يوم فأحبنى بعفويته . فى اللقاء الثانى أهدانى قفة صغيرة من الخوص بها أربع سمكات مياس كبار وشوية جندوفلى ومثلهم جلاجولا . ناولنى القفة وهو يقول :

- عربون محبة منى يا أستاذ ترم عضمك.

أمسك ياقوت زنجر بيدى وقادنى داخل دهاليز هذا العالم السحرى الغامض، وأصر على أن يدعونى الى مقهى الصيادين .. قال لى:

- هنا ستتعرف على أشياء لم تصادفها فى حياتك ياأستاذ. تحب تكتب هات قلمك واملؤه من ماء البحر الازرق، وراقبنا وتابعنا وتأمل حياتنا قبل أن تكتب.

ساد بعض الهدوء المقهى بعد أن هدأت العاصفة بالخارج .اندفع نحوى "حوده جراد" وحنفى الاباصيرى وشلبى حمروش مصافحين ومعانقين، وقد نفذت الى أنفى رائحتهم المميزة التى هى خليط من رائحة البحر والزفارة والعطن.

انتصبت واقفا وارتديت معطفى متأهبا للانصراف ، بينما أصر زنجر على توديعى حتى الخارج كعادته وهو يعاود ضحكته ويقول :

- خل بالك ياأستاذ. البلطيه ملهاش أمان.. دى ممكن تقطع الشبكه بعد ماتلهف الطعم وأنا خايف عليك.. وخلينا نشوفك ماتعوقش يا أستاذ.

****

نـــــاهد / حـــمدى

****

● نـــــــــــاهد:

القصة بكل صدق أننى وجدت نفسى ذات يوم وجها لوجه أمام المشهد. رجل يلـتهم جسد امـرأة لم يمض على وفاة زوجها بضعة أشهر. كـان الرجل"مرسـى" والمـرأة أمـى.. والـزوج الراحـل أبى!.

لم تقم القيامة قبل موعدها الغيبى.لم تنقض صاعقة مدمرة تنسف الوجـود باكملـه. لـم يحـدث شيئ على الاطلاق. الأمـر تـم تفسـيره ببسـاطة. ذلـك هـو شـرط الرجـل كـى ينفـق علـى الأسـرة المعدمة. كان قد عاهد صديقه الراحل أن يخلى باله من الأولاد فى غيابه ، وهـاهو يفـى بوعـده. ولك أن تتصور يا أستاذ حمدى بعد ذلك كيفما يحلو لك ، كيـف كنـت أتبـادل مـع أمـى النظـرات ، وكيف ينبغى أن يكون موقفى من مفاهيم الشرف والأمانة عند الرجال..كل الرجال.

وذات يوم أضاف "مرسى" الى شرطه شرطا جديـدا فكـان ماتوقعتـه. لقد أحـس بشـيخوخته تطل فى إصرار على فراش أمى وهى تودع خريف عمرها مستقبلة شـتاءه الأليم فـى استسـلام يائس. راودته أحلام هشـة فـى اسـترجاع شـبابه المفقـود، حـين وجـدنى أمامـه، جمـرة تشـتعل بنيران الفتنة والشباب. كان يطلب منى مجالسته. أتوجه بعينين غاضبتين متسائلين الى أمى فلا أجد عندها الجواب، وإنما أسمع سعالها الملح، وأرى بصاقها الغليظ ، وأشم رائحة قهرها حـين تغط فى شخير عميق.

وماتت أمى فكان من الطبيعى أن أكون بديلتها، وإن لم يكـن ذلـك مـن الطبيعـى الا أنـه ماكـان بالفعل. أما لماذا فلست أعرف ، مثلما لا أعرف إن كانت أمى سـتدخل النـار أم الجنـة. لـم أشـعر بفارق يذكر بين معاشرته لى كعذراء أو كأنثى مكتملـة النضـج. كانـت رجولتـه مبتـورة. بمـرور الزمن انشغلت عن التفكير فى القضية ذاتها بالبحث عن المتعة الحقيقية فى ذلك العمـل، فالعمـل بطبيعته يقابله أجر، ولقد كانـت تلـك العلاقـة فـى أصـلها علاقـة عمـل. أمـا وقـد انـدحرت معـالم القضية – قضية ماهذا الذى يحدث؟ - فماذا يمنع أن أحب عملى ، فحب العمل يكسب الحياة لونـا رائعا.ماذا يمنع؟..

قسوت عليه.حطمت آدميته. استبدلت قدمى بشفتى كمستقر دائم لشفتيه الحقيرتين إمعانـا فـى إذلاله والتلذذ بتعذيبه. استنزفت كل موارده فلم يبق له من مصدر رزق سوى وظيفته. طلقنى – مرغما - وتزوجت من تاجر ثرى عرفته خلال قيامه بجولة عمـل فـى مصـر. سـافرت معـه الـى بلده ، وهناك غمرنى بالمـال والعطـف. كنـت أرسـل المـال الـى "لـولا"- فأنـا أعلـم كـم تحبـه – وأحتفظ بالعطف وأنا أدرك كم هى حاجتى اليه.

فى البداية كان يدللنى ويهدهدنى كطفلة. يكاد يطير بى الى السماء لفرط لهفتـه علـى جمـالى وعشقه لجسدى الملتهب بالفتنة ، لكن الأيام سرعان ما أسـفرت عـن حقيقتـه التافهـة الشـاذة!. قبلت فى بادئ الأمر واستمرت علاقتنا على هذا النحو قرابة العام، حتـى جـاء يـوم شـعرت فيـه أننى أعيش مع "مرسى" آخر تحت شرط جديد حقير. منذ ذلك اليوم بـدأت أمـارس معـه اللعبـة القديمة بنجاح حتى تمكنت من الحصـول علـى الطـلاق، ثم اشـتريت ذلـك البيـت وبنيـت عمـارة سكنية فى الزمالك يكفينى ايرادها لكى أعيش كما أريد.

لكننى بدأت أقاسى الوحدة. مررت بكل تجارب الحياة المملة المكررة. أحسست أننى أفتقـد كـل شىء الا المال. شعرت أن المرأة بلا رجـل حقيقـى لامعنـى لحياتهـا علـى الاطـلاق. لـم يكـن مـن السهل على بعد هاتين التجربتين المريرتين أن أبحث لنفسى عن زوج. كنت أريد رجلا يشعرنى أنـه رجل وأننى امرأة ، فعرفت رجالا كثيـرين. كـان جمـالى شـفيعا لـى عنـد كـل مـن ألقـى عليـه شباكى. أنتقى منهم ذوى الثروة والسلطة والجاه ومن يشغلون كبـرى المناصـب ، والمتـزوجين من أبهى النساء. عرفت منهم كل ما خفى عن عامة الشعب من أسرار تعج بالمفاجآت والغرائب ، وكأن البلاد تكية يحق لهم شفط ثرواتها فى كروشهم. من العجيب أننى أحببت نزقهم وتمردهم

على رتابة الحياة ذات الايقاع الواحد. أعجبت بذكائهم وبقفزهم من منصب الى منصب ومن كرسى الى كرسى الى كرسى. غصت معهم فى لجة حياتهم المثيرة بما تنطوى عليه من نفاق وانتهازية وضياع. السمة السائدة بينهم هى الولاء الشديد لأنفسهم. لأنفسهم فقط ، فلا المتشدقون منهم بالكلمات الجزلة والخطب الرنانة عن التحالف والتآلف وما الى ذلك ، كانوا يفكرون لحظة واحدة فى أبناء الطبقات المنسحقة الذين شاءت الأقدار أن يعتلى هؤلاء الأفاقون المنابر معبرين عن أمانيهم وأحلامهم، ولا أولئك الذين تفوح منهم رائحة العطر المستورد كانوا ينظرون بعين الرحمة الى المصير المجهول الذى كنا ننتظره جميعا بقلوب واجفة ملؤها الخوف والحزن والقلق.

غصت فى حلقات تلك الدوامة الرهيبة دون أن أنتبه. صدقنى اننا جميعا بلا مبدأ. تلك آفتنا الكبرى. أنا وأنت و"لولا" و"الريس عبد الاله" و"ناديه" وأمى وأبوك..كلنا بلا مبدأ. ولك أن تنظر الى حياتى كيف تسير. الى منزلى. الى جسدى. حينئذ ستعرف من أنا. ولك أن تنظر الى"لولا" وقد أصابها البلاء من شدة الخوف من المستقبل حتى صارت شيطانا مسعورا يمثل النذالة والاستغلال. لك أن تنظر الى سلالة أم غبية سقطت فى وحل الفقر ، والى سلالة"أبو جبل" وقد انتهى المطاف بحسن الى فلسفة واهية أقعدته طريح الأرض بين جدران أربعة يلوذ بصمت الأموات.

****

سألتنى :

- تشرب ويسكى؟
- لم أذقه من قبل
- تجرب أم تفضل الشاى؟
- أترك لك الاختيار
- شكلك شاى ..الويسكى له ناسه ياحبيبى

****

●حمـــــــــدى:

بهرنى حديثها وهزنى من الأعماق. كشف لى عن جوانب خفية من نفسى لم أكن أدرى عنها شيئا. هاهى تعرف أدق أسرار مجتمعها القديم بكل حكايات أبنائه التعساء وتاريخهم ، كما لو كانت تعيش بينهم تماما. عندها العلل والمسببات واضحة وقاطعة كحد السيف. تتمنطق بواقعية قاتلة،وهى على أى الأحوال تدرك لنفسها طريقا تسلكه.

****

- لكنى أختلف معك فى النظرة الى "حسن" وأيضا الى "ليلى".
- لا اختلاف..كلنا بلا مبدأ
- فى التعميم ظلم
- قل لى ما هو مبدأ حسن، وهل يستحق التضحية بحريته؟
- أعتقد أن حسن يؤمن بالسير فى خط محدد ، لكنى لست أعرف اتجاهه بالتحديد ، فأنا تقتصر ثقافتى المتواضعة على قراءة الجرائد وبعض الروايات، كما أننى لا أستطيع أن أعطى لنفسى الحق بالحكم له أو عليه. والحياة عنده تهون من أجل المبدأ. هذا شأنه هو ومن على شاكلته .
- علينا أن ننتظر حتى النهاية لنرى ماذا سيحدث
- وليلى؟..إنى لم أر انسانا مخلصا لبيئته منتميا الى طبقته مثلها، وعندى الدليل على ذلك
- هذه المخلوقة تذكرنى بالنعامة. انى أرى فيها الغباء متمثلا فى ذلك الاخلاص المزعوم الذى يكتفى بوجوده دون عمل حاسم ودون تعبير فعلى عن هويته بحركة من شأنها أن تدفع بالحياة ولو خطوة واحدة الى الأمام. الأمر ببساطة أن افتقادنا للايمان يفقدنا الشعور بالسعادة وراحة البال..تلك الأشياء التى تأتى من الأعماق ، والتى تجهد"نادية" نفسها

فى البحث عنها بالارتماء فى أحضان الغيبيات المجردة هربا من جحيم الواقع. ولننتظر ياعزيزى ، فليس أمامنا الا الانتظار.

- أنا يئست من الانتظار ياناهد. حقيقة يئست. انى أعيش على هامش الحياة دون أن أجرؤ على اقتحام معاقلها.
- لاتعقد الأمور اكثر مما ينبغى. أرى ان تنهى عملك كمحام بعد انتهائك من قضيتى، وسأدبر لك وظيفة ممتازة بالقطاع العام. هه..ما رأيك؟

****

عبر "نشأت" الطرقة المؤدية الى الصالة. حيانا ببلادة وانصرف. سألتها بلهفة:

- من أبو نشأت ؟
- ظننتك ستتحمس لوظيفتك الجديدة فإذا بك تسألنى عن شىء لايهمك!
- كم أكره أن أكون موظفا.ان كلمة موظف تثير اشمئزازى. من أبوه؟
- أنا أمه..ألا يكفى ذلك؟
- من المؤكد أنك أمه مادام قد خرج من أحشائك
- تمام..لكن ألم أقل لك اننا جميعا بلا مبدأ ننتمى اليه
- تقصدين أنه.....؟!
- نعم ، غير أننى أستطيع أن أحصر بنوته بين أحد رجلين أذكرهما جيدا.

****

انتابنى وجوم شديد.لزمت الصمت.عاودت ناهد الحديث قائلة:

- هاه.. لم تقل لى ما رأيك بفكرتى أن تعمل بالقطاع العام

طرحت تساؤلها وأولتنى ظهرها ، وذهبت تصب لنفسها كأسا ثانية، ثم عادت ومعها ملف القضية. وضعته أمامى. جلست واضعة ساقا فوق ساق.

أبى. هاهى امرأة قابلة للعطاء. كيف آخذ منها؟. ألا تفكر الا فى الأخذ؟..لماذا يسيل لعابى ككلب مسعور كلما انفردت بامرأة؟..مارأيك فى الوظيفة الجديدة؟. أيضيع أملك فى المحامى الشهير"حمدى أبو جبل" فى لحظة ضعف؟..على أى أساس بنيت تطلعك أيها الصياد المعدم؟.. انها تكشف عن فخذيها فى وقاحة رائعة.على أى الأسس؟..اللعنة أيتها المخلوقات المشوهة. اللعنة.

- قبل أن أقول رأيى أرجو أن تسمحى لى بكأس من هذا المشروب
- ياااه؟!.. ولم هذه المجازفة؟

أطلقت ضحكة معقدة التكوين.قامت تصب لى كأسا وقد تسمرت عيناى على خلفيتها التى تولى خيالى تعريتها فى عنف وعلى عجل. استدارت فى لحظة خاطفة فلمحتنى. تصنعت التصفح فى أوراق الملف وأنا أتصبب عرقا.

- القضية سهلة يا استاذ حمدى. ساكن بعمارة الزمالك حول شقته الى مكتب شبه رسمى للدعارة
- أيوووووووه!!
- وأنت تعلم أن ذلك يتنافى مع مبادىء الخلاق والفضيلة التى لاشك يتعارف عليها سكان عمارتى
- آه..أعلم ذلك..تمام..لاشك!!
- لذلك فإننى عازمة على طرده من العمارة..هىءهىء هىء

تركت مقعدها وتوجهت الى المرآة.أخذت تصلح من هندامها. أتت بحركة كشفت عن بعض مفاتنها دون مبالاة. أحسست بطعنة حادة تخترق قلبى. لم يكن القصد من حركتها اثارة رغبتى ، فهى تدرك بلا شك مدى ما أعانيه من حرمان. أغلب ظنى انها تعمدت تجاهلى. أرادت أن تشعرنى بطفولتى اللاهية قياسا الى تجربتها.معها الحق، فأين أنا الآن منها..لكنى سألملم شتات نفسى وأحاول. سأحاول!..

- لقد اتخذت قرارى الآن
- غير معقول..قرار مرة واحدة؟!
- نعم

تجرعت الكأس دفعة واحدة. أشرت اليها طالبا المزيد. استجابت لى بابتسامة ملؤها الدهاء.

- لن أترافع فى قضيتك. ابحثى عن محام غيرى فقد قررت أن أهجر المحاماة وسأقبل الوظيفة
- برافو ياحبوب..آدى الكلام

تنهدت كى أستجمع أنفاسى اللاهثة لفرط ارتباكى أمام امرأة صقلتها التجربة وقد خبرت نواياى بالفطرة.

- هاه..ما رأيك؟
- أحيييييه..أنت رائع..رائع ياحمدى..كأس؟

من قبل قالت لى "لولا" :تعال جانبى يا حمودة. الصورة. العربات. أمى وحسن.مذكرات من العالم السفلى للكاتب الروسى الشهير.. المصير دائما الى الخلف والى أسفل!!

- وكأس..وكأس..وكأس..و..ماهى الوظيفة ان شاء الله؟
- فى زيارتك القادمة ستعرف كل شىء

بدأ مفعول الخمر يسرى. خشيت أن أفقد توازنى ففضلت الانصراف للبحث عن فندق حقير أمضى به ليليتى. صارحتها برغبتى فقالت بإخلاص:

- ياندامتى يا استاذ حمدى!!..أنت أخى.والله لن تنام الا عندى

كانت ليلة سوداء.لم أذق طعم النوم ساعة واحدة.بكيت بحرقة حين اخترقت مسامعى ضحكات ضيوفها وتعليقاتهم وقفشاتهم الساخرة التى كنت حتما موضوعها ومادتها.كأنهم حضروا جميعا فى ذلك اليوم ليسخروا منى ولتشاركهم اللعينة فى الضحك والسخرية. كنت واثقا من ذلك وإن كنت لا أعرف سببا لهذه الثقة.

فى الصباح توجهت الى صديق قديم.وجدت عنده مخلوقة تشبه المرأة فى بعض معالمها الرئيسية. أفرغت فى أحشائها كل ما انطوت عليه نفسى من حقد وكراهية ولعنة.. ثم الى محطة القاهرة بحثا عن مقعد خال فى قطار الدرجة الثالثة!.

****

أحمد طلبه / سلوى فتحى

****

● **أحمد طابه:**

ساعات عذابى هى تلك التى يخيل الى فيها أن سلوى لاتحبنى ، وإنما تعتبرنى مجرد صديق على طريقتها الارستقراطية المنفتحة التى ترى فى الصداقة بين الرجل والمرأة أمرا طبيعيا، ومن يرى خلاف ذلك فهو فى عداد المتخلفين غير المتحضرين. تدعى أن الصداقة حين تقوى وتتعمق ، تغدو عاطفة قريبة الشبه بعاطفة الحب الأخوى. الفجوة الصارخة بين بيئتى العشوائية وبيئتها الراقية تضع العديد من العراقيل النفسية والفكرية أمام علاقتى بها. أليس من الجائز أن يكون موقفها الذى تدعيه منى حقيقة لاتقبل الشك؟. سلوى التى تتناول الطعام على مائدة طويلة انيقة تتوسطها فازة مليئة بالورد، وعن يمينها ويسارها يقف من يقدمون لها الأطباق والملاعق وصنوف الطعام والفاكهة. سلوى هذه تفكر حتما بطريقة تختلف كثيرا عن الطريقة التى يفكر بها ابن السيد طلبة ساكن بوابة مورو مهما حصل على شهادات عليا.

تعاملنى – والحق يقال – كما لو كنت أنتمى لقبيلتها. أرى أنها لاتشعر – أو لا تريد أن تشعرنى – بالفارق الذى أشعر به وأضخمه بطريقة معقدة. ألا يعقل أن تكون حسنة النية تجاهى وأنا المعقد المكبوت ضعيف الثقة بالنفس؟..لكن كيف يتأتى لى أن أتحرر من الصفعة التى تلقاها أبى من صاحب العربة التى كان يمسحها له؟..أليس من المحتمل أن هذا الرجل كان أبوها؟.. كيف أتحرر من دم رجل كان يبيع الجندوفلى والجلاجولة للمخمورين والطبق ب "شلم"! . مهما بلغ ذكائى ، ومهما أوتيت من لباقة ونجاح فى اقتحام المجتمعات الراقية فلن أستطيع أن أتحرر من صلبه ومن بوابته و قبوه. وهل يخطر ببال سلوى فى يوم من الأيام أن صديقها الأخوى العزيز يأوى كل مساء الى مسكن أشبه بالكهف أو المغارة؟..أيجوز بعد ذلك أن تنشأ بيننا صداقة سوية خالية من العقد النفسية؟.. أيعقل أن أنفرد بها فى مكان بحكم تلك الصداقة، ثم أتركها دون ان أفكر فى نيلها؟!.. أبمقدور ثقافتى وشهادتى الجامعية أن تتحكما فى مسيرة ذلك التاريخ الطويل الحافل بالقيود والأعراف والمحاذير والتابوهات؟.

أكاد أجزم ألا صداقة بين رجل وامرأة فى مستنقع معاناتنا الكبير، لاسيما إن تواجد مثل ذلك التناقض الصارخ بين مستويهما الاجتماعيين. قد تدوم صداقة بين رجل وامرأة من حى رشدى باشا دون أن يساء فهمها من أحد الطرفين. ويعلم الله ماتستر تلك الصداقات من خبايا وأسرار، مثلما أسمع عما يدور فى الأندية الاجتماعية الكبرى. قد تدوم الصداقة أيضا بين رجل من بوابة مورو بالموازينى وامرأة من حارة مدورة، تجمعهما الحاجة الى الأمان، مثلما أشهد من نماذج مختلفة لتلك الصداقات بين عمال وعاملات شركة النصر التى أعمل بها حين تجمعهم أحاديث الشكوى من القهر والفقر وارتفاع الأسعار واختفاء المواد التموينية، وحين تجمعهم أيضا أحاديث الهذر التى يتبادلون فيها الشتائم بألفاظ الجنس فى بساطة متناهية ، ويتبادلون الضحك والنكات عن أخص خصوصياتهم. قد يمسك أحدهم بثدى احداهن أو يضربها برفق يصل الى درجة التحسيس على مؤخرتها مداعبا دون أن تتذمر ، بل تبادله الهذر بفعل مماثل أو يزيد.

ليس معنى ذلك أنه سيسرقها فى المساء من زوجها، سواء كان زميله فى المصنع، أو يعمل فى حرفة أخرى. أما أن تكون هناك صداقة بين النقيضين على أية صورة من الصور ، فهذا ما أكاد أجزم باستحالته.

ساعات العذاب تلك تضنينى وتوقعنى فى حيرة طائلة. تذكرنى بحديث دار بينى وبين خالد العزيزى. قال انه يجد متعة هائلة فى مجالسة مدرسة مطلقة تسكن فى شقة مفروشة متواضعة بمفردها ، علما بأن أباها مقتدر ميسور الحال، لكنها تكرهه ، فهو من وجهة نظرها المسئول الأوحد عن فساد حياتها بزيجة من اختياره انتهت بالطلاق.

يجلسان الساعات الطوال. يتحدثان عن سباق الدين والعقل والطبيعة.عن الفن والجنس والاقتصاد والسياسة. يدخنان بشراهة. يشربان البيرة. يتبادلان آراء جدلية حول جدوى الحياة. حين سألته فجأة:

- ألم تضاجعها؟

نظر الى بابتسامة يائسة أخفت – بدافع الصداقة وعشرة السنين – احتقارا مستترا لى وقال:

- نحن المثقفون مسئولون – باغترابنا الفكرى – عن ذلك العفن الذى تزكمنا رائحته.

قلت له وقد أدركت مرماه:

- الفقر يدمر كل القيم

هز رأسه أسفا على سوء نيتى ، ثم قال:

- بالرغم من ذلك فمازال من الممكن أن تنشأ فى مجتمعنا صداقة منزهة بين رجل وامرأة.

ثم انتقل فى مهارة الى الحديث فى موضوع آخر.

****

أنا مطالب بتحرير نفسى من أدران الماضى. إن كنت – يابن السيد طلبة – تريد أن تصنع شيئا ذا قيمة لنفسك أو لمجتمعك أو لوطنك، فالخطوة الأولى أن ترتقى بفكرك وإحساسك وعملك. أمامك الآن فرصة العمر. تعلم على يد سلوى كيف تتجه بالفكر والمعرفة الى إنسانيتك، مبتعدا عما ورثت من حيوانية وتخلف. علمك أبوك لهذا الغرض، لا لكى تكون امتدادا لتاريخه أو للتعلق بأذياله. انطلق. سلوى تحبك. خذها صديقة. خذها أى شىء. لكن احذر. الأوهام السرطانية الخبيثة تحوم حول موطن ضعفك. المهم أن تتحرك. هاه!!.. وبعد ذلك تعيب على سلوك ماجدة المنفلت!..الفرصة سانحة. بشائر الانفتاح ونذره فى آن واحد. البضائع مكدسة بمخازن الشركة لاتجد من يشتريها. انصرف التجار الى شراء البضائع المستوردة، فسعرها أقل ، وجودتها أعلى، ولايحتاج شراؤها الى وساطة أو رشوة. الطريق ليس مسدودا.هناك دائما حل مهما بدا صعب المنال.

- روح يا شيخ ربنا يوقف حالكم
- ألفان جنيه لإصلاح جهاز تكييف الباشا يا كلاب!

الماكينات عتيقة بالية تكح أوجاعها منذ القرن التاسع عشر.تعانى من شيخوخة الاصلاح والترقيع. الأجدر بها أن توضع فى متحف صناعى متواضع ليتفرج عليها هواة التاريخ.

- يجب مواجهة الانفتاح قبل أن يتسبب فى خراب بيوتنا
- لو أعدموا لصا واحدا فى ميدان عام لانتهى الفساد من البلد الى الأبد
- ثمانية توقيعات على ورقة واحدة ياسيد ، وثلاثة أختام ولا تريد اعتمادها؟. منك لله ياشيخ

"نحن ثلاثون عاملا بالقسم. علينا عشرة رؤساء من المهندسين والاسطوات. يرضى من هذا؟"..

"سعادة البيه المدير يتعمد تعطيل عربة الشركة المخصصة لانتقالاته حتى يتقاضى بدل انتقال قدره ستون جنيها فى الشهر"..

"عندى أربعة أولاد وراتبى الشهرى خمسة وعشرون جنيها ونحن فى عام 1977"..

"كفوا عن الكلام واعملوا. ما أقبحكم وانتم تحترفون كثرة الجدل وقلة العمل. أنتم أبناء ثقافة اللفظ لاثقافة الفعل."..

لكن متى يتحقق الحلم؟!..

"معلهش". "حرام عليك تجازيه يارجل. ده عنده سبعة أولاد"..."اشتغلنا ما اشتغلنا ، سيدك الميرغنى يأكّلنا"..."يارازق الدودة فى الحجر ارزقنى وانا قاعد"..

لن نتقاضى أرباحا هذا العام وربما خسرنا فى العام القادم، وربما أغلقنا مصنعنا فى العام الذى يليه، وليستفد من يستفيد من هذا الانفتاح المغلق. حسين بك فتحى وفرقته المدرعة بالمال والسلطة والسطوة والصوت العلى والكلمة المسموعة، يعرفون جيدا من هذا المن!

ماذا تفعل بجنيهاتك القليلة التى تتقاضاها أول كل شهر؟ كيف تتزوج وأين تجد السكن وأنت المسئول أيضا عن أبيك الشيخ وعن أختك التى ارتبطت بالنذل متولى السيد رجب. ذلك الكسول الذى يعيش على هامش الحياة. يرحمك الله يا أمى.
قال لى حسين فتحى فى قرف مستتر:
- **أستاذ احمد. ان ميولك شديدة التطرف**
- **وما الذى أوحى اليك بذلك؟**
- **شدة حساسيتك تجاه الآخرين**

"كل من يهدد أطماعهم هو إما متطرف وإما حاقد!"..
- **هذه الحساسية لم تأت من فراغ، فهى رد فعل طبيعى لانعدام الحساسية**

حاول اخفاء غضبه الشديد ، لكنه لم ينجح..
- **عموما فلكل انسان حرية الاختيار. ومن الأكرم لك أن تعتنق اتجاها فكريا معتدلا خيرا من أن تعيش على هامش الحياة**
- **وما موقف سيادتك؟**
- **أنا أعلنها على الملأ فى كل مناسبة. اننى أمثل قطاعا وطنيا هاما نصت عليه مواثيق الثورة**
- **تقصد الرأسمالية الوطنية طبعا**
- **نعم ، وأنا لا أتجاهل المكاسب التى حصل عليها العمال ولا أتهرب من دفع الضرائب**

"هه! القطاع الوطنى الهام. الهام جدا. غير المستغل.ولاتقربوا الصلاة!!. انتهازى منافق. لاشأن لك بميولى".
تناقشنا حول الفرد والجماعة. الانسان بطبيعته المزدوجة كملاك وشيطان فى آن. البيضة والدجاجة والدجاجة والبيضة. يجب على هذا الانسان البغيض ان يدفع دفعا الى تعلم الاحساس بإنسانية الانسان، وألا يزن المعانى بالمواد، حتى يصير أقرب الى الانسان من الروبوت.

****

● **<u>سلـــوى فتحـــى</u>:**
أنا أحب أبى جدا ، لكنى لا أحب أن أعمل بشركته. عندما تخرجت فى الهندسة طلبت منه أن يختار لى شركة أعمل بها ، فاختار لى شركة النصر التى يتمتع بصلات وثيقة مع كبار مديريها خاتصة المديرين التجاريين. ربانى أبى على الفكر الحر والشخصية المتحررة. دللنى كثيرا فرأيت أن أخوض غمار الحياة بنفسى لأكتشف ما بها من أسرار.اتجاهنا واحد ولكن كل على طريقته. عملى بشركة الكساء الشعبى أفاد أبى المكار كثيرا، حتى أصبح لايفكر فى احتمال أن أترك العمل بها.
أحب زوجى فريد.طالما فكرت فى طبيعة هذا الحب الهادىء المتراخى، القائم على الامتداد والسكون. دفعنى الى ذلك التفكير حبى لأحمد طلبه. ذلك الحب الثائر الفائر الديناميكى المتفجر المشتعل بالمشاعر والأحاسيس الساخنة الموقوتة باللحظة. لم أكن أود أن أعانى من هذه الازدواجية، رغم انها لاتسبب لى أى نوع من أنواع العذاب الذى ربما يفترض أن يكون مصدره الشعور بالذنب، إذ أنام فى حضن رجل لا أشعر به لأن قلبى الذى هو مفتاح جسدى يعيش مع أحمد. لا أشعر بالذنب لأننى أعتقد أن من حقى أن أحب مادام هذا الحب لايصل الى مداه بممارسة الجنس مع المحبوب. غيرى قد تتعذب لهذا التناقض، أو تشعر بالحرمان من التواصل الطبيعى مع المحبوب بانصهار الجسدين معا فى بوتقة الحب الحقيقى. لكنى أكتفى بالحب الرومانسى لرجل آخر غير زوجى دون أن أعتبر ذلك خيانة لزوجى.
بمجرد أن عينت بالشركة انتشر الخبر بسرعة البرق بين الجميع. بنت المليونير حسين فتحى وابنة شقيقة وزير الصناعة ، التحقت بإدارة التخطيط والمتابعة. سارع مدير الحركة بتخصيص مقعد لى فى عربة المديرين. خلال ساعات محدودة خصص لى المدير التجارى غرفة فاخرة بمكتب وتلفون وساع، الأمر الذى لم يحظ به مدير الادارة أو رئيس الأقسام. الكل ينافقنى وأنا

أتأمل تلك الظاهرة فى فضول شديد، إذ أعايشها للمرة الأولى فى حياتى، ولقد كرهتها جدا، وأعتقد أنها سبب جوهرى من أسباب تخلف مجتمعنا القائم على تقديس أصحاب السلطة والثروة. الفرعون فى العمل يبدأ من مباشر العمال وينتهى برئيس مجلس الادارة. منذ آلاف السنين لم يستطع المصريون أن يتخلوا عن عقدة الفرعون أو الباب العالى أو اله الأرض الذى يأمر فيطاع ويطلب فيجاب بلا تفكير. الوحيد الذى تعامل معى بندية وشجاعة هو أحمد السيد. كان مستفزا بشدة من نفاق الموظفين لى، فقرر أن يأخذ اتجاها معاكسا، حتى أنه كان يعاملنى أحيانا بجفاف وجفاء. من هنا لفت نظرى. ولما جمع بيننا العمل حدثت بيننا كيمياء الحب بعد أن تجاوزنا مرحلة الاعجاب. هو انسان بسيط المظهر ، يكاد يكون نموذجا فريدا لأبناء الطبقة تحت المتوسطة التى تتسلط عليها التطلعات المشروعة وغيرالمشروعة للقفز من طبقة الى طبقة أعلى.

ان المرأة التى تمر بمثل تجربتى – أن تحب رجلا غير زوجها – هى انسانة سيئة الحظ لأسباب عديدة. يكفى أن من بينها أنها ستسمع ما لايرضيها من كل من حولها لو اتبعت قلبها وانساقت وراء عاطفتها وتمادت فى العلاقة الجديدة.إن تعاكس ملكاتها وقناعاتها ، وتذبذبها بين اتجاهين متناقضين قد يؤدى الى تحطيم نفسيتها لو لم تستطع الصمود أمام الإعصار الذى تولده تلك المشاعر.

فى مسلسل "منخفض الهند الموسمى" الذى كتبه أسامة انور عكاشة عن هذا الموضوع ،انتهت قصة الحب بمأساة ، إذ انتحرت البطلة حتى تضع حدا لعذابها ومعاناتها من الشعور بالتناقض بين الحب والندم، والرغبة والتراجع، والفضيلة والرذيلة. ومأساة "هيبوليت" التى سبقت مأساة عكاشة بسنين طويلة، انتهت أيضا بانتحار البطلة التى أحبت ابن زوجها. ان أصحاب الوجدان الهش الرقيق هم أكثر الضحايا عذابا وانهيارا، والا لو كانت أعصابهم ونفوسهم ومشاعرهم قادرة على تحمل هذه الازدواجية بلا قلق، لما كانوا قد وقعوا فى الحب من الأساس. تلك النماذج الفولاذية من البشر لاتعرف الحب ، فقلوبها قدت من صخر وعقولها من جليد. أحيانا أرى أن الحل العملى المحترم والأمثل هو الانفصال عن فريد والارتباط بأحمد. هو حل أميل اليه بحكم فطرتى الطبيعية، ولكنى لست أرى فى احمد ذلك الرجل الذى يمكن أن أضحى لأجله بزيجة اجتماعية ناجحة بكل المقاييس، ثم يتخلى عنى بتأثير من تذبذبه وتردده وشعوره – أحيانا – بالدونية وعدم الثقة بالنفس. تلك الصفات التى تحول دون تقدمه ونجاحه رغم أنه يمتلك ذكاء شديدا وطاقة جهنمية للعمل والانجاز والنجاح. فى هذه الحالة لن أطول بلح الشام ولا عنب اليمن.

أنا لا أعبأ أن أكون صديقة لرجل غير زوجى ، ما دمت أحبه وأحترمه، وما دام يبادلنى المحبة والاحترام دون تجاوز. دراستى الاعدادية والثانوية كانت فى مدارس اللغات الأجنبية، ودراستى الجامعية كانت فى لندن. أنا لا أعمل أى حساب لهذا المجتمع الذكورى المتخلف الذى سيطرت عليه النزعات الوهابية والسلفية، حتى صار كل شىء فى حياته منقسما الى قسمين أحدهما حلال والآخر حرام. لايهمنى أن يرانى أحد أقاربى أو أصدقائى بصحبة أحمد فى مكان عام. أحاول قدر استطاعتى إزالة الجلخ الفكرى والاجتماعى من ذهنه قدر المستطاع. أدعوه لزيارتى فى بيت الأسرة فيندهش بشدة. بعد زوال الاندهاش الأول بمبدأ الخلوة مع فتاة ببيت أسرتها دون ارتباط رسمى ، يبدأ الاندهاش الثانى حين ينفرد بى فى الصالون دون أن يهتم أحد من أفراد الأسرة بوجوده الى جوارى . أقترب منه بوجهى عامدة فألمح رغبته الجنونية فى تقبيلى، مثلما ألمح جبنه الشديد وتردده فى الإقدام، وذلك بفعل السلاسل التى تقيده بالأعراف والدين والمجتمع، فتكون النتيجة أنه جالس معى وليس معى فى الوقت ذاته، إذ يعانى من ذلك الصراع الوهمى الذى يقتل نفسه به دون طائل.

ويوما لجأت الى أحد مشايخنا الكرام من المتفقهين فى الدين بغير تشدد، وسألته عن رأى الدين فى المرأة التى تحب رجلا غير زوجها، وإذا لم يكن لها ذلك فما ذنبها وقلبها ليس ملك

يديها ، حتى أن الرسول عليه السلام قال:"اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك".

ابتسم الشيخ المثقف ولم يخاطبنى بأسلوب الوعظ الدينى الممل ، وإنما تعامل مع عقلى مباشرة، إذ قال لى:

- " ان السلوك الانسانى تجاه أى موقف حياتى يبدأ من الادراك ثم يمر بالوجدان وينتهى عند النزوع. لذلك حثت الأديان على غض البصر حتى تكون الفرامل تالية للإدراك مباشرة، لأننا لو دخلنا فى مرحلة الوجدان والعواطف سنجد أنفسنا مشدودين الى اتخاذ إجراءات عملية فعلية لتحقيق التواصل ، فنقع رغما عنا فى المحظور". ثم قال لى مفسرا:
- " إن للحب مبادىء ومقدمات وله نتائج ونهايات، فالنظر والتراسل واللقاء ، كلها أمور بمقدرة الانسان أن يتحكم فيها بأن يفعلها أو يتركها. فإذا استرسل فى هذا الجانب وترك نفسه لأهوائه وغرائزه ولم يفطمها عنها ، ولم يلجمها بلجام التقوى، ازدادت توغلا فى غيها واستغراقا فى أمرها. واذا كان المحب أو العاشق قد انتهى الى نتيجة لايملك نفسه إزاءها ، فعليه ان يتذكر أنه هو الذى ورط نفسه هذه الورطة العاطفية باختياره، فلا يلقى أحد بنفسه فى النار ، ثم يقول يانار كونى بردا وسلاما علىّ مثلما كنت على سيدنا ابراهيم، فالنار سوف تحرقه و لن تسأل عنه. عليك ياسيدتى أن تسارعى بسد رياح الفتنة وإطفاء الشرارة قبل أن تستحيل الى حريق. عليك بالمقاومة. امتنعى قدر استطاعتك ولو بالتدريج عن رؤيته ومكالمته ولقائه، فالبعيد عن العين بعيد عن القلب. وأخيرا لامفر أمامك من اللجوء الى الله حتى يفرغ قلبك لزوجك ويعصمك من الزلل ، ويجنبك عواصف العواطف غير المشروعة، فهى عواصف مدمرة تحيل الحياة الى جحيم وخراب وموت".

كلام الشيخ صحيح ومقنع تماما. رغم ذلك لم أتخذ أى موقف يباعد بينى وبين أحمد، بل اننى صرخت يوما بعصبية مفاجئة فى وجه فريد وقلت له اننى غير مقتنعة بحياتى معه!.

كنت أعلم أن غضبه منى لن يطول. بالفعل لم تمض ساعات قليلة حتى جاء يصالحنى وكأنما هو الذى أخطأ وانفعل.

****

مجذوب البحـــر

****

●مصطلحات سكندرية:

- الضرب بالروســـية: أى بمقدمة الرأس من الجبهة وهى ضربة تحدث دوارا شديدا لمتلقيها يصل الى درجة الاغماء و السقوط على الأرض، فضلا عما تسيله من دماء.

- الفلافـــــــــــل:هى الطعمية بعينها والتى يكتبها بعض أصحاب المحلات من غير السكندريين "طع100".

- الشكشوكة: أرز(وأحيانا حمص) مطبوخ بالصلصة والبيض والفلفل والبصطرمة.

- البصـــارة: تصنع من الفول المدشش بعد نقعه فى الماء وطحنه مع بصل وتوابل.

- البـــورى: يطلق اسم سمك البورى الشهير على الماسورة التى تنتهى بفم الشيشة.

- البمبوطيـة: هم تجار البحر الذين يعملون على المراكب مع السفن العابرة في قناة السويس .كلمة البمبوطية إنجليزية الأصل (مان بوت) أو رجل القارب boatman وتحرفت (مان بوت إلى بمبوط ، وقد عرفت مدن القناة تلك المهنة منذ افتتاح القنال عام 1869 فكان بعض أبناء المدن يتجهون إلى الموانئ وفور رؤيتهم لسفينة ترابط يتجهون لها بمراكب صغيرة يبيعون ما معهم من بضائع، وكان الأجانب فور رؤيتهم يسعدون ويقولون (المان بوت) ويأخذون ما معهم من بضائع وأنتيكات وتحف ويعطونهم بعض الهدايا من الملابس أو الأجهزة الكهربائية أو النقود في بعض الأحيان. البمبوطية يتقنون عدة لغات يتعاملون بها مع السياح والسفن، الأجنبية العابرة لقناة السويس رغم أن غالبيتهم لم يحصلوا على أية شهادة دراسية ومع ذلك أتقنوا اللغة وبرعوا في التجارة والبيع والشراء فوق السفن.

****

●أيوووووه: مصطلح للتعبير عن الدهشة.

●أحيييييييه: مصطلح للتعبير عن المفاجأة، وفى الأغلب تستخدمه النســـــاء.

●أحّـــــــه: مصطلح يستخدمه الرجال – وأحيانا بعض النساء - للتعبير عن الاستنكار ، وغالبا ما يلازم الشخرة الاسكندرانى التى تعبر عن نفس الشعور.

●إياك أن تخلف لى موعدا:

فى الأمسيات شاحبة الرؤيا أدخل كهفى، بلا زاد ولا شموع ولا دموع. تحت إبطى سفر الذكريات ، وفوق كتفى تتعلق الأمنيات، وفى قلبى جروح تأبى الاندمال. لا أعرف كم ألبث فى الكهف، وكم من شموس أشرقت وأفلت. لكنى لا أفقد إحساسى بالزمن ، وأظل أعوذ بأذكارى وأورادى. أعانق السكون ولا أشعر بالرهبة أبدا.أتذكر قول البحر لى: "هذه هديتى اليك، حويت لك فيها أسرار حكمتى وصخب أمواجى وبهجة أعماقى وبشاره خيراتى وميراث حكمتى. احفظها تحت وسادتك وإياك أن تضيعها. من امتلكنى امتلك الزمن ، وأنت الآن مؤتمن على أسرارى التى لا أبوح بها إلا لمن عشقنى. منحتك رمالى الذهبية فتوسدها واطلق لأحلامك العنان. أعطيتك بعض ما فى جعبتى من كنوز المعرفة ، وهى مثلى بلا قرار ، فأبحر فيها ولا تهاب شيئا. لاتشى بحديثنا لأحد، فقد اصطفيتك لتكون واحدا من أحبابى ، وسأعلمك متى تهدأ ومتى تثور ومتى تكتم وكيف تبوح ، وأين تبكى وتطلق لدموعك العنان، ومتى تفرح وتقفز فى الهواء من شدة السعادة. سأجعل من نوارسى أصدقاء لك تحلق أبدا فوق رأسك لتعلمك ان الانطلاق والحرية أثمن كنوز الدنيا ، فكن صديقا وفيا لها ولا تسألها أبدا عن أسرارها، وإياك ان تقول لها أين تبنى أعشاشها ، فهذا سرها الذى لن تبوح به لأحد. دعنى الآن وانصرف لحالك ، ولكن إياك أن تخلف لى موعدا. اذهب الان للغافل عن لقائى وأنذره ان لم يمثل فى حضرتى فسأزحف اليه بأمواجى حيثما يكون وهو موقن أننى سأفعلها."

****

● مد لى يديك وانتشلنى:

أيها المترامى بغير حدود، والخالد كالوجود، والحانى فى زمن الشجون.. يامستودع الأسرار يـــا عميقـــا بـــلا قـــرار. يابشـــاره الفـــرج وقـــاهر الأحـــزان. يـــارفيق الطفولـــة والشـــباب وأنيســـى فـــى ليـــالى الخريـــف . خذ بيدى وامنحنى من طهرك وصفائك مايزيل همومى ويطمئن خاطرى ويقهر ظنونى. أيهـا الثـائر المتجبـر والحـانى المترفـق، لاتـدعنى وحيـدا، فأنـا بـدونك فـى ضـياع. عجزت الكلمات أن توفيك حقك، ومابقى سوى أن أقف على شواطئك بخشوع أناجيك وأناديك واستجديك وأسترضيك.كانت آخر أمنياتى أن أغمض عيناى للمرة الأخيرة على مشهدك المهيب وزرقتك الطاغيه. لازلت هنا بكل ضعفى وعجزى أنتظر بشارتك.. فمد لى يديك وانتشلنى.

****

● **<u>اختفاء الكروان</u>:**

عندما كان المساء يلقى غلالته الرمادية على الكون، كان يمر مسرعا كالشبح بجوار نافذتى يصدح بدعائه العريض: الملك لك والحمد لك . ينطلق كالسهم ويغيب فى العتمة كحلم أسطورى حتى أحسب أنه مضى ولن يعود.لكنه يمرق أمامى فجأة مخيبا أملى فى أن أتبين ملامحه بوضوح. ولكى يرضينى فإنه يعاود اطلاق دعائه العريض: الملك لك والحمد لك.

جاء التتار وأنصار الظلام فهدموا المنزل القديم الذى كان يخفى عشه أعلاه، ليبنوا بديلا له خازوقا اسمنتيا قبيحا .. اختفى الكروان وهجر الديار وأصبح مجهول العنوان.. ياأيها الغائب حاملا معه بشارة الدعاء والنقاء والصفاء وتراتيل المساء، عد الي ولو فى أحلامى ، ومد لى حبل دعائك لأرتقى به الى الملكوت وأتقرب الى خالق الأكوان.

****

●**<u>أحب سيدنا على بن أبى طالب جدا</u>:**

لماذا؟..لأنه قال:

- **"احتج الى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن الى من شئت تكن أميره".**

... ليت حمدى ابو جبل يعرف ذلك!!

وقـــــال:

- **" كن شريفا أمينا لا لأن الناس يستحقون الشرف والأمانة ، بل لأنك انت لاتستحق الضعة والخيانة".**

... ليت أحمد السيد طلبة يعرف ذلك!!

****

● **<u>وصيتى لكل من حمدى أبو جبل وأحمد طلبه</u>:**

لا تلومن العواصف والرياح اذا تلاعبت بقاربك، فلربما لم تعد العدة جيدا لرحلة الأهـــوال، وتركـــت خلفـــك بوصـــلتك ، ولـــم تتفقـــد قـــلاع مركبـــك. والأهم أنك لم تهب بحارتك حبك وتقديرك،ففقدوا الحافز والحماس لانقاذ القارب. ولداى الحبيبان: قبل أن يخطو أحدكما خطوة ، عليه أن يعرف عواقبها أولا.

****

حمدى أبو جبل

****

"ملك الفلايك"..هكذا خلع الريس عبد الاله على نفسه ذلك اللقب ، مؤكدا به جدارته بإعلانه على لافتة كبيرة ثبتها رجاله فى إحكام على صدر كابينته الخشبية الفخيمة القائمة فى خيلاء على أربعة جذوع شجر غليظة منغرسة فى رمال الشاطىء، مضفية على بهاء الموقع روعة غامضة وطابعا فريدا متميزا. كما أنه لم ينس أن يعلق لافتة أخرى على الجانب الأيمن للكابينة مكتوب عليها بالخط الواضح:"ياناس ياشر كفاية قر". ثبتت تحت هذه اللافتة بعناية كف من الصفيح كبيرة تشكل الأصابع الخمسة وقد برزت وسطاها بوضوح تام فى رسالة واضحة للجميع.

قادتنى قدماى الى جولة جديدة على رمال شاطىء الأنفوشى ، حيث تتلاطم أمواج الحياة ذات البعد الضائع.. باعت أمى الكوز النحاسى بثمانية قروش وتناول جميع أفراد الأسرة العشاء. شىء عظيم ألا ينام المرء دون عشاء. حاولت أن أنسى كل شىء وأن أبدأ من جديد. لم يبق الا الريس عبد الاله."وماله الريس عبد الاله؟!!..المال والسطوة والأتباع والراحة التامة والطعام الجيد والسند المتين .. كان ينبغى أن تتذرع بالصبر والحكمة فالطريق أمامك طويل لم تتحدد معالمه بعد."

- أقعد ياسى حمدى. اسمع معنا الاسطى ابراهيم الفنان الكبير

استقبلنى بابتسامة عريضة والدخان ينبعث بغزارة من فمه، وأمامه شيشة فاخرة ومقعد من الخوص يجلس عليه رجل أشبه بكلب جرب، يعزف على عود متآكل ويغنى بصوت متحشرج غليظ:

ايه العبارة ايه العبارة.... لسه فى ايديا حرق السيجارة

دانا ياروحى دانا يا سيدى.... حتاخد ايه من حرق ايدى

بين الحين والحين يصفعه الريس عبد الله على قفاه مقهقها بصوت عال ومن حوله شلة من أصدقائه وأتباعه. أمامهم زجاجات البيرة وأطباق الجمبرى والجندوفلى والريتسة. تتناثر ضحكاتهم مجلجلة وتعليقاتهم تغمر أرجاء المكان:

- غن ياعم ابراهيم الله يخرب بيت صحابك
- ورحمة أمك للصبح
- سيدى ياسيدى..فنان لحد قعرك ياروح امك
- حرقت قلبى ياشيخ ربنا ياخدك
- اقطع دراعى لو كنت تعرف اسم المحروس والدك
- جرى ايه يا رجل؟ده ابن الشاطىء

وينادى عبد الله بصوته الأجش:

- ياواد يا قطوش

فيحضر قزم صغير مهرولا فى خشية:

- نعمين يامعلم
- افتح قزازة بيرة للبيه ياولد وقبل ما يخلصها تكون فاتح التانية يا معفن

فى بداية الأمر شعرت بألم حاد يعتصر كل كيانى. انسان يحتقر انسان. يسحقه بماله كما تسحق القدم صرصورا صغيرا.لكن هواء البحر وطعم البيرة والجندوفلى – تلك الأشياء التافهة – بدلت من حالى على الفور، فلم ألبث أن وجدت نفسى أشاركهم الضحك، بل ضحكت فعلا من أعماقى، ودمعت عيناى بغزارة. استمرأت حلاوة المجلس. صرت أشاركهم:

- الله يفتح عليك ياعم ابراهيم يا اقرع

ازدادت ثقتى الوهمية بنفسى فناديت"قطوش" وطلبت منه المزيد من البيرة، حين تنبه عبد الله الى ذلك فأيدنى بنداء حماسى:

- هات صندوق ثان ياوله

- من عينى يامعلم

كان عم ابراهيم يغنى:

ياما قاسيت فى الهوى/ والقلب منه انكوى
واللى اسأله عالدوا/ ألقاه عليّا عتب
غلبت أسايس واقول/ اللى بيصبر ينول
لقيته عدّا الأصول / وكل شىء له سبب

بشجاعة نادرة وخسة أكثر ندرة، شاركت فى السخرية من عم ابراهيم:

- لك خمسة شلن ياعم ابراهيم لو قلت لى ربنا خلقك ليه

يقول عم ابراهيم وابتسامة بلهاء تنفرج عن شفتيه:

- حكمته يابيه..حكمته

يزغده عبد الله فى جنبه قائلا:

- طيب خلاص غنى ياروح امك..اطربنا ياحمار

فى ضراعة وذلة قال ابراهيم لعبد الله:

- أنا معكم للصبح، لكن اعمل معروف يامعلم لاداعى لحكاية كل يوم. أنت تعرف أنى لا أملك الا بدلتى هذه ، والدنيا ليل، والميّه ساقعة قوى يامعلم

لم أفهم ماذا كان يعنى عم ابراهيم بحكاية كل يوم إلا فى نهاية السهرة ، حين فوجئت بالمجموعة تحمل الرجل كما تحمل البهائم. راحوا يزفونه وسط ضجيجهم وقهقهاتهم فى خطوات مسرعة الى الشاطىء ثم يلقون به دفعة واحدة الى الماء!..

يخرج ابراهيم والابتسامة البلهاء لاتفارق وجهه. أخرج معه من غيبوبتى عن عالم الانسان. ينفض السامر وأنفرد بالريس عبد الله لأعلن له عن عزمى على تسليمه مكتبه وتركى لمهنتى ووضع نفسى تحت إمرته ليفعل بى ما يشاء.

كان عبد الاله قد أنشأ مكتبا تجاريا كبيرا فى حى الجمرك لاستيراد وتصدير الموالح. عرضت عليه أن أدير له أعماله ووعدته أن أسخر كل طاقاتى فى خدمته ، وأن أجيبه الى كل طلباته عامة وخاصة، بما فيها إقناع ليلى بالموافقة على الزواج منه كما يتمنى ويشتهى.

وكانت ليلى قد قالت لى:"أقترح عليك ياسيدى- وهذا مجرد رأى – أن تغلق ذلك المكتب الذى استدنت ثمن تأثيثه من وغد لايستحق الحياة..(هذه حقيقة)..وتلتحق بإحدى المؤسسات الحكومية فتضمن لنفسك راتبا ثابتا، وتكتفى بالتحقيق مع العمال حين يضيق بهم الحال فيضربون بعضهم البعض بأيادى المكانس أحيانا وبالآلات الحادة أحيانا أخرى..صدقنى ان فكرتى رائعة..أم أنك تحلم بالمجد والجاه والشهرة مثل فلان بك وفلان باشا ممن توارثوا المهنة عن أجدادهم بقصورهم وأطيانهم...."!

عرضت عليه نفسى كما تعرض مومس جسدها على من يدفع الثمن. هذه حقيقة.. وكانت ناهد قد قالت لى:"القضية سهلة أستاذ حمدى.ساكن بعمارة الزمالك حول شقته الى مكتب شبه رسمى للدعارة. فى زيارتك القادمة ستعرف كل شىء."

شممت رائحة الكراهية تفوح من الدخان المنبعث من فمه وقد أمسك بمبسم شيشته فى خيلاء.. "أمى: لقد ضاع كل شىء..أشعر أننى حشرة"!!

- شهادتك يابنى لاتنفعنى بنكلة
- وخبرتى يامعلم؟!
- خبرتك ياحبيبى خربت بيتى. ماذا أخذت أنا من خبرتك؟.ألا يكفيك اننى أنفقت على المكتب حتى أغلقت أبوابه بسلامتك

من أى مدخل أستطيع النفاذ الى عقل هذا الوغد أو قلبه أو أى من مكوناته الحقيرة؟.. لماذا اختاروا لخالتى اسم"ثريا"؟..لن يرحمها خالقها الا بالموت.. النهاية الطبيعية لكل البشر والأشياء.

- شهادات ايه ياأخينا؟..ها نحن بلا شهادات ، لكن رجالة وملو هدومنا

كثيرون يتحدثون عن الكرامة. تعالوا أيها الدجالون لتشهدوا مصرعها هاهنا. تعالوا واخرسوا.

- طبعا يامعلم..وسيد الرجال

.... ليس على وجه الأرض من هو أجدر منك الآن ببصقة على وجهك.

- حتى لو اشتغلت فى الحكومة..كم ستقبض؟
- خمسة وعشرين
- هه!!..حق سجائرى

لتغرس رأسك فى الوحل. أنت اخترت ذلك. يجب أن تموت ثريا وإن لم تمت سأقتلها، أما أمى فلن أغفر لها إثمها الأعظم: إنجابى!

- ربنا يزيدك من نعيمه يامعلم

.... وبصقة أخرى على وجهك ، فأنت كاذب فى دعائك بل تتمنى أن يخسف ربنا به الأرض.

- اسمع يابنى. عوضى على الله فيما صرفته على المكتب، لكن سايق عليك النبى تدوّر على مصلحتك فى مطرح تانى.. أنا عندى الواد جرجس ساقط الابتدائية، قاعد محنط عالمكتب. طول النهار يحسب حسابات ويكتب جوابات وياخد عشرين جنيه آخر الشهر ويبوس ايده وش وضهر .

..ناهد تقول عن سلالة"ابوجبل": انتهى المطاف بحسن الى فلسفة كاذبة أقعدته طريح جدران أربعة يلوذ بصمت الأموات. بقى انت. مارأيك فى أن تقيم منشرا جديدا على الشاطىء؟.. التاريخ يعيد نفسه. عربة الحكومة..وحسن يقول فى مذكراته: "العالم فسيح. فيه متسع للجميع ولكل الأشياء"..لماذا لاتفكر فى الهجرة؟ موقفك من التجنيد يسمح لك بذلك. يقول الكاتب الكبير ما معناه أن الخروج من قاع النكسة بات مستحيلا ، فلو فكرنا فى العبور ستغمر نيران النابالم سطح القناة والجبال ستعوق الاندفاع، والدمار سيتساقط من السماء، والدماء ستفرش الأرض الخضراء ، ورائحة الجثث ستزكم عفونتها الأنوف، وأصوات الصراخ ستصم الآذان، والويل لنا.الويل...مالم أجد الخلاص لنفسى فكيف أجده لغيرى؟!!..هذا هو مصطفى سبرتو يقتحم عرين الأسد بثقة لاعلاقة بينها وبين ملابسه الممزقة وشعره الأشعث ولحيته المغبرة وعيناه الحمراوتان.يهدده بقوة:

- هات خمسة شلن
- روح الوقت يامصطفى.. تعال لما يبقى عندى فكة
- طيب وماله؟..هات جنيه واما هات أفك لك
- اسمع الكلام وامش من قدامى يا مصطفى
- ثلاثة بالله العظيم ان لم تدفع سآخذهم بالعافية

العزم يصرخ فى كلمات مصطفى. معدته خاوية. يطالب بحقه فى الطعام ولكن؟..أمن المحتم على عبد الله أن يلبى طلبه؟. كان يبدو بالرغم من سطوته أن هناك شيئا خفيا يربط بينهما ، فقد خضع عبد الله فى النهاية وأعطاه خمسة وعشرين قرشا كطلبه ، لكن مصطفى قال له وهو ينصرف:

- أتمنى أن أقتلك يوما. وسأقتلك بالفعل ياعبد الاله

ثم مشى يكلم نفسه:

- حتى السبرتو اختفى من البلد.. انت فين ياخميس؟
- فين أراضيك ياعترة؟

خميس فلفل فى لبنان. فى سورية. فى جمرك الاسكندرية.فى كل مكان يعمل ويتحدث بخبرة صاحب التجربة. وطنه صار فى كل مكان رغم عشقه لشىء اسمه العساكر المصريين.

فى آخر لقاء بيننا كان يمسك بيده مجلة لبنانية فى احدى صفحاتها صورة كبيرة يحمله فيها المتظاهرون على أكتافهم. كان يهتف فيهم قائلا:

- الوحدة الوحدة

فيرددون من خلفه:

- ياعربان
ثم أخرج علبة سجائره وعزم علىّ بسيجارة مستوردة. أصبح كرمه الآن مدعما بشىء ايجابى. انه يجول ويعمل ويكسب ثم لايعبأ بالمال فيصيح ويهتف بعد أن أطلق اليهود سراح المركب التى كان يشارك اللبنانيون فى حصيلة صيدها.
.....افعل شيئا ياحمدى!!..
حين ألقيت بورقتى الأخيرة على مائدة النفاق التى جمعتنا، كان يحدونى الأمل فى كسب مودته.لكن غروره أحرق ورقتى فلم يكن من الصعب على أفاق مثله أن يفهم اللعبة. الذى أدهشنى أن ثقته فى الحصول على ليلى ان عاجلا أو آجلا كانت شديدة الى حد الايمان.
لم يكن أمامى الا أن أنصرف ، فما وقع بيننا من تنافر أو بالأدق مالاقيته منه من رفض بين، كان أمرا منطقيا لاغرابة فى حدوثه، فأين أنا المحامى الصعلوك ابن الصياد الفقير ، سليل مجتمع المناشر والمراكب وشباك الصيد المهترئة من الريس عبد الاله؟..صحيح أنه فى الأصل من طينة المجتمع ذاته، لكنه لم يعد ينتمى اليه الآن ولو بمشاعره. أتلك هى طبيعة الانسان؟. من يدرينى كيف أكون لو أوتيت ما أوتى من مال؟..حين انسلخت ناهد من أحشاء حارتنا الكئيبة صار جسدها مباحا لفئة دون أخرى. لم تفكر فى أن تمنحنى المتعة التى تبيحها للآخرين، فأبدا لن تزول الطبقية ماوجدت..حتى فى الدعارة.
فى طريقى الى حيث لا أدرى وجدت نفسى أتوقف طويلا.أتأمل. بل وأمعن النظر والتفحص والتفكير فى هيئة صياد رأيته مستلقيا على الرمال فى استرخاء عميق. تحت رأسه قطعة من الفلين المتآكل بفعل الشمس والرطوبة، واضعا ساقا فوق ساق ، كاشفا فى لامبالاة عن عورته، وبصره شاخص الى البحر والسماء. ، حيث البعد البعيد..وطفل صغير - يبدو أنه ولده- يلهو بجانبه فى أكوام صنعها من الرمال المبللة بماء البحر ، والى جواره ترقد"مشنة" صغيرة ممتلئة الى نصفها تقريبا بحصيلة صيده من أسماك"البسرية" التى تعكس بريقا فضيا لامعا من خلال ما اختلط بها من أعشاب بنية وخضراء.. وحام فى الأفق سرب من طائر النورس البحرى ، ثم اختفى وراء الشفق.
أحسست لرؤيتى هذا الرجل أننى أفتقد السعادة الحقيقية، وأننى سأظل أفتقدها الى الأبد. استطاع ذلك الرجل البسيط أن يسترخى. المشنة بجواره. يهيم فى واد ، ويلهو ولده فى واد آخر. الطبيعة تحتضنهما فى حنان وسلام. كل مايشغل باله من فكر أن يبيع تلك الكومة من البسرية ليسعى الى لقاء اللهفة اليومى حيث أسرته التى لاشك تحبه بكل البساطة من القلب والكبد والأحشاء، ولاتعرف لحياتها معنى بدونه. استطاع أن يسترخى وأن يضع ساقا فوق ساق وأن يتأمل الأمواج فى هدوء.. أن يرقب أسراب النورس وأن ينظر الى الأفق البعيد..أن يرى الشمس والقمر والسحاب والمطر فى لحظة واحدة. أن يعى الكون بأكمله. أن يرى الله ويحس به ويؤمن بوجوده وقدرته، ومن ثم أن يتعلم كيف يستند فى ثقة وطمانينة الى تلك القدرة تاركا من خلفه مسئولية الحياة لتذهب الى الجحيم أو لتسقط فى هوة أبدية، بينما تتقافز الأسماك الصغيرة داخل "المشنة" قفزاتها الأخيرة قبل أن تموت. لقد عرف هذا الرجل بلا جدال- دون أن يدرى أنه عرف- كيف السبيل الى السعادة.
استطاعت ليلى هى الأخرى أن تختار لنفسها الطريق. ليس أمامى الا أن أعترف بذلك. استطاعت أن تجد الطريق. ليلى ابنة الحارة الضيقة ذات الطريق غير المرصوف حيث يتصارع عشرات الأطفال فى لهو فوق أكوام قاذوراته يتقاذفون بمخلفات الطعام وقشر البطيخ. عرفت كيف تخلص لتلك الأشياء وتنتمى اليها وتتمسك بها بقوة وصرامة وعناد.لم تعرف التطلع، وحتى ان كانت قد عرفته فهى لم تأبه له ولم تخضع لسطوته ذات الجبروت.حددت لنفسها معالم طريق. أنا واثق أنه طريق مسدود نهايته تعسة. أوله حرمان وإحباط وآخره ضياع وإحباط، ولاشىء بين أوله وآخره سوى الفقر والبؤس والحاجة. تقدس الاشتراكية ، وهى تعانى الأمرين فى الحصول على الطعام والكساء والدواء فى أدنى صورة كما وكيفا. كفاها أن تموت مؤمنة بشىء، لكنها أولا وأخيرا خلقت لنفسها دربا تسير عليه.

حتى الريس عبد الاله عرف هو الآخر طريقه، لكنه طريق ممهد مرصوف الجانبين، أملس ناعما خال من العثرات. أفخر الطعمة والخمور والعطور والنساء وسائر الشهوات مشروعة وغير مشروعة. كل الأشياء مسخرة بماله ، والمال يجلب المال ، تماما كما يجلب الفقر الفقر. أما كيف خلق الريس عبد الاله هذا الطريق فتلك قضية أخرى.

أنا مازلت بعد تائها ، عاجزا عن معرفة الطريق. لاحيلة لى فى الخيار.لاشك أن هناك طرقا أخرى ، فهذه دنيا واسعة مليئة بالدروب والممرات والجبال والأنهار والغابات. يمكننى أن أصعد. أهبط.أزحف.أسبح..لكن قدماى مسمرتان فى الأرض لا أقوى على الحركة فى أى اتجاه.

ألقيت بجسدى المنهك على مقعد يتصدر واجهة مقهى صادفته فى طريقى. طلبت كوبا من الشاى وأجلت بصرى حولى متفحصا وجوه الجالسين بلا سبب. مجموعة من المتسكعين الحيارى..مثلى تماما. توقفت ببصرى عند"حامد" ، ذلك الشاب الحماسى الثائر دائما ، والذى كان يغلى ويفور لأهون الأسباب حين كنا ندرس سويا فى الجامعة.ضخم البنيان ينسدل شعره الغزير على جبينه. عيناه واسعتان تقدحان بشرر غريب. جبهته عريضة بارزة تطل من بين خطوطها معانى القوة والعزيمة والعناد. يتوسط وجهه أنف فرعونى كبير ذو فتحتين واسعتين. بالأحضان التقينا. تبادلنا القبلات والذكريات. كنا على يقين من أن أيام المرح لن تعود. أحسست من حديثه أن نبراته تنطوى على أسى عجيب. لم تعد ثورته طائشة بلاهدف. لم يعد حماسه جنونيا مندفعا بلا توقف،وإنما أحسست بتغير جذرى طرأ على شخصه بفعل السنوات. سحرنى حديثه وتلمست بين ثناياه ذلك الشىء الرهيب الذى مازلت أبحث عنه والذى يسمونه بالإيمان. حامد يؤمن ايمانا قاطعا بقضية عالمية شائكة.حقوق الشعب الفلسطينى!!!..القتال لاسترداد الأرض. الموت فى سبيل تحقيق هذا الهدف. يكرس حياته طولا وعرضا فى خدمته. تطوع حامد فى احدى المنظمات المتطرفة.هاهو يساهم فى عملياتهم التى يقومون بها فى كل أرجاء العالم من حين لآخر معبرين عن سخطهم وثورتهم على الظلم. هجر عمله المدنى وتفرغ لهذه المهمة المسيطرة على كيانه والتى صارت فى الوقت ذاته مصدر رزقه الوحيد.

- ما الذى دفعك الى هذا الطريق الصعب؟
- الايمان
- الايمان؟!!..الايمان باى شىء؟
- بالقضية التى أحارب من أجلها
- تحارب من أجل قضية لاتعنيك فى شىء
- ألا يهتم الانسان الا بقضاياه الفردية؟..بنفسه فقط؟!!
- لم أقصد ذلك ، لكنى أتعجب. أليس من الأولى أن ندافع عن قضايانا قبل أن نتبنى قضايا الآخرين؟
- هذا من وجهة نظرك ، أما عندى فإن من تسميهم بالآخرين هم اخوة لى أشاركهم وحدة المصير والهدف
- تشغل نفسك بقضية احتار العالم بأسره فى وضع حل لها، ثم انها مشكلة أرض وقتال ورواسب أجيال وأجيال..ما شأنك بذلك؟
- ياعزيزى حمدى ، لو فكرت مثلما تفكر لفقدت شعورى بمعنى الحياة. أنا لم اخلق لآكل وأشرب وأنام وأنجب ذرية تخلفنى ثم أفارق الحياة دون أن أسهم فيها بعمل أشعر من خلاله بمعنى لوجودى، ولو أنك تستمتع بقسط قليل من الدراية بحقيقة قضيتنا لأيقنت أن القضيتين متجانستين تماما ومن المستحيل فصل أى منهما عن الأخرى.

يتحدث هذا الآخر عن الايمان، وياالغرابة ما يؤمن به. مجانين هؤلاء الناس أم عقلاء لست أدرى. المؤكد أنهم يعتقدون تماما أنهم عقلاء ويشعرون بالسعادة والراحة الأبدية لهذا الاعتقاد.

طال بنا الوقت فى نقاش حاد حول صراع الانسان – ذلك المخلوق الغريب- على قطعة أرض يسمونها الوطن.تملكتنى الرغبة فى الاستسلام لآرائه والخضوع له كلية بلا ادنى تفكير. ذلك

البريق المقدس الذى يشع من عينيه أحالنى الى انسان آخر..تلك القوة الرهيبة وذلك الصدق الشديد: أين أنا منهما؟؟.. فلتتحرك قدماى ولو لخطوة واحدة.خطوة واحدة أتخطى به عثرتى. أم أنه سراب الأمل يشرق فى سماء حياتى المعتمة بعد طول انتظار؟..لاجدال فى أنك منقذى ياحامد. أهلا بك وبجنونك المؤمن وايمانك الجنونى فأنت شىء. أنت حقيقة مؤكدة واضحة ملموسة ، أما أنا فسراب. خذ بيدى ياحامد. انى بحاجة اليك. الأرض وأبى والاشتراكية وأمى وليلى وكل الأشياء. ليندثر الكون بأكمله وتنبثق شعلتى وضاءة متوهجة من جديد.. معك ياحامد الى حيث القنابل والشظايا والدمار والطائرات والقتلى والجرحى والمدافع والأسرى والمشردين. وهبت عقلى وقلبى لبريق عينيك الجنونى ، وليكن ما يكون.

وكان قرارى بالانضمام الى صفوف المتطوعين. افترقنا على أن نلتقى فى موعد قريب. أمضيت أياما ثلاثة آكل وأقرأ و أنام فى انتظار الموعد. كان تفكيرى مجمدا وعقلى فى اجازة منه الى أن جاء اليوم المرتقب.

فى طريقى الى المعسكر – حيث تواعدنا – أخذت خطواتى تتأرجح بين الاسراع والابطاء. عاودنى الشلل من جديد. قدماى دائما تفكران حين يتوقف عقلى عن التفكير. أنا الآن فى سبيل أن أهب نفسى وروحى من أجل قضية هى من وجهة نظرى عالمية. لماذا لم أفكر؟..لماذا لم أراجع نفسى؟..أيكون خلاص حمدى أبوجبل بكل مكوناته من شتات انسان فى أن يزج بنفسه الى مثل هذه التهلكة؟.. توقفت فى منتصف الطريق. لم لا أهاجر؟ لم لاتكون الهجرة قضيتى الشخصية والوطنية والقومية والعالمية؟..هى قضية رابحة بلا شك.على الأقل هى أكثر وضوحا من تلك التى أسعى اليها الآن، كما أنها خالية من القذائف الصاروخية وقنابل النابالم والجثث والأشلاء.

أيوووووه!! ليلى ترفضنى؟..أتزوج من امرأة أجنبية نحيفة القوام لون عينيها أزرق فى لون البحر تجيد التحدث بالفرنسية. حسن فى السجن. وما شأنى؟.أمى أنجبتنى دون علمى أو استشارتى وستموت. خالتى اسمها ثريا..هه!!..لماذا لم يسمونها نفيسة أو تفيدة؟ آهاتها لم تعد تمزق أعصابى. أعتقد أن حياتها غدت أكثرضررا على الحياة من موتها. كان من العدل أن تغرق مع زوجها وابنها فى نفس"الدنجل" الذى حطمت العاصفة أخشابه المسوسة ليحسم البحر والزمن بغدرهما النهاية.. يا أبى أحييتك أو أمتك فأنت ميت. وميت أنا من هول المطاردة التى لحقت بى ولن أموت. ولأنتظر كيف سيكون موقفك منى ياليلى حين أعود فى حال غير الحال. أنا فى انتظار مواقف عشيقة الفقر وضحايا المعتقدات ، فمن المتعذر الآن أن أتنبأ بها. ناهد تسقطنى من سقطاتها بدعوى الطبقية القذرة. ستقبل يدى حين أعود ثم أبصق على جسدها حين تهبه لى . هذا هو لعاب نادية يسيل أمامى لما سأصير عليه من حال. حسنا. أين ذهبت غيبياتك ياست نادية؟هه؟أين تلك الأشياء التى تقولين إنها تاتى من الداخل.هه؟..من الداخل؟!!.. ألا تطمعين فى الآن كما تطمع أمك اللعوب؟..أما شادية فإشارة من سبابتى تكفى لأن تتجاهل ذلك الرقيع المدعو نشأت وتطيعنى فيما آمرها به. أعتقد أن الأجل لن يمهل مرسى فرصة رؤياى مرة أخرى لأننى أميل الى هذا الاعتقاد لا لسبب آخر. أما أنتم ياسلالة المناشر ويارفاق أبى التعس فإنى أكرهكم جميعا ، وبالرغم من كراهيتى لكم فلن أتخلى عنكم لأننى..لأننى أحبكم. أحبكم الى حد الكراهية. لكنى لن أضحى بحياتى لأجلكم كما فعل حسن من أجل عماله التعساء. لقد حاول فى استماتة قاتلة أن يغرس فى كيانهم كيفية التمسك بحقوقهم ومكاسبهم..فاروق حامد..ذلك الحطام البشرى المتهالك. يقنعه حسن بأن يرشح نفسه فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى فيعلق لافتة بخط يده العاجز مكتوب عليها:"لاتنسوا أخاكم الغلبان"!!..يقترض رسوم الاشتراك ورسوم التظلم من الطعن المقدم ضده بعدم صلاحيته. جلست معه يوم صرف الأرباح السنوية وعلمت أنه توجه الى مطعم شهير حيث انفق معظم أرباحه لقاء عشاء من اللحم وزجاجتين من البيرة وكان منطقه فى ذلك:

- **أنا عاوز آكل لحمة لوحدى يا أخى. الدكتور حسن قال لى لازم تحس بوجودك وتعتز بنفسك. ربنا يخلى لنا الدكتور ويبعد عنه اولاد الحرام. يارجل ده علمنى لبس الكرافتة. ومن صبّر الديانة سنة يصبّرهم سنتين لما أقبض الأرباح الجاية ان شاء الله.. هى يعنى الدنيا طارت والا طارت؟..**

كان من المفروض أن أكون فاروق حامد أو خميس فلفل لو لم يعلمنى أبى وأخى، وأعتقد أننى كنت سأنعم بحال أفضل. الى من صرت أنتمى لست أدرى.لو لم أتمتع بمجانية التعليم لما تواجدت المشكلة.كل الأماكن تنبو بى وتلفظنى والمخاليق كذلك..ليلى وحسن بتحجرهما وجمودهما. نادية بذبذباتها. عبد الاله بجبروته وماله. ناهد بتحولها الى مجتمع من طينة أخرى. حامد بقوته وجنونه. طريدا صرت. لاملاذ لى الا فى الهجرة. ألم يقل حسن ان العالم فسيح وفيه متسع للجميع؟..اذن فلأهاجر. لا مفر من أن أوفق فى هجرتى مهما كان الثمن. الهجرة اذن أو الموت.

عدت أدراجى الى المنزل ماحيا من سجل ذكرياتى الى الأبد انسانا اسمه حامد.

****

ماجده عبد القـــوى

****

كل الرجال أوساخ. لم ألتقى برجل فاضل أبدا. أسهل شىء عندى إغوائهم. متزوجون وغير متزوجين. الكل يسارع مهرولا فى خدمة شهواته ورغباته. أنا فاتنة بحرى بلا جدال . لاتستطيع فتاة أو امرأة فى كل أحياء بحرى منافستى فى جمالى الصاروخى المثير، الذى يسيل له لعاب الجميع. كنت أظن أن خالد المدرس هو الاستثناء. سمعته فى الحى رائعة. صاحب فضل على الجميع. حتى عزيزة العمشة علمها كيف ومن أين تشترى قدرة الفول المدمس ، ثم تعبؤه فى أكياس بلاستيك عبوات صغيرة وتوزعها على البيوت كل صباح لقاء ربح بسيط.

كنت أنتظر من خطيبى أحمد طلبة أن يزجرنى أو ينهانى عن اندفاعى وراء شهواتى ، لكنه كان مثل بقية الرجال يستغل رغبتى لاشباع رغبته. كثيرا ما أشك فى أنه ينوى الارتباط الحقيقى بى كى أكون زوجة له فى المستقبل. أنا أقرأ وأكتب بصعوبة وهو يحمل شهادة جامعية عليا. يفهم أمورا كثيرة لا أفهمها ، ويتحدث أحيانا فى موضوعات لاأعرف عنها شيئا.

عندما طلبت منه أن أتعلم وأحصل على شهادة ولو متوسطة ، حتى أكون جديرة به ، فوجئت به يحولنى الى خالد الحنفى ، صديقه الحميم الشهير بخالد العزيزى. شعرت ساعتها أنه لايغار على ، وهذه علامة مؤكدة على أنه لايحبنى كما يدعى ، ولكنه يستغلنى فقط. أنا أحب المتعلمين جدا وأغار منهم لأنى شبه أمية، وأتمنى أن أكون مثلهم فى أى شىء. لم أعترض على تسليمى لخالد كقطعة أثاث على سبيل العهدة لحين الحاجة. شهامة خالد ورجولته وجدعنته وحبه لخدمة أبناء الحى البسطاء ، كلها صفات أجبرتنى على احترامه . قررت ألا ألقى عليه شباكى كما أفعل مع أى رجل يعجبنى. عاوننى فى اقامة كشك السجائر والخردوات. بعد ذلك وجد لى عملا بشركة الكساء الشعبى ، فتركت الكشك للشحتوف الصغير يتولى البيع خلال فترة النهار وحتى عودتى من المصنع، وأتولاه أنا بعد عودتى وحتى المساء.

أشعرنى العمل فى مصنع حكومى بالاعتزاز بكيانى ، وبأننى أصبحت ذات قيمة ينبغى أن أقدرها ولا أستهين بها. كما تمكنت من خلال الراتب والحوافز أن أشترك مع الحاج حودة فى توسيع نشاط الكشك. اشترى حودة تمنتاشر كمية كبيرة من البضاعة. أقسم لى أن فلوسها حلال من كده وعرقه بعد أن تاب وأناب وحج بيت الله. أصبحنا شريكين متفاهمين وزادت مكاسبنا. لاينكر أحدنا أن الفضل الأول فى كل ذلك راجع الى خالد.

بدأت أتعلق بخالد كرد فعل طبيعى لموقف أحمد تجاهى. ساعدنى على ذلك أنه كان يعاملنى بلطف شديد ومحبة زائدة. ألمحت له يوما بشىء عن مشاعرى كجس نبض فقط. فوجئت بأنه يبادلنى نفس المشاعر ولكن فى صمت وحياء.

بفضل دروسه المكثفة نجحت فى الحصول على الشهادة الابتدائية كخطوة أولى. فى غمرة فرحته بنجاحى وفرحتى بفضله على ، كانت شهرزاد تغنى فى الراديو أغنية:"ادينى ميعاد وقابلنى"..لم أستطع أن أضبط نفسى فطبعت على خده قبلة سريعة، تلقاها بابتسامة خجلى لكنها سعيدة. دون أن أدرى وجدت نفسى أتمادى فى غيى وأعود الى طبعى اللئيم محاولة استدراجه ليقع فى فخى . توقعت أن يفعل معى مثلما يفعل أحمد طلبة. ما أن بدأت أتعرى حتى صفعنى بقوة على وجهى قائلا:

- هذا لايمكن أن يحصل الا فى الحلال

لم تحدث هذه الواقعة قطيعة بيننا كما خشيت ، لكنها عمقت من علاقة الاحترام المتبادل بيننا.

حدثنى عن التطورات الأخيرة التى حدثت لصديق عمره ، وكيف عاد الى البوابة وقد خسر الجلد والسقط كما يقولون. قال لى ان هناك شعرة فاصلة بين الطموح والطمع، وانالطموح الجارف الذى ليس له سقف، هو الذى يقض مضجع الانسان فيعمل ويفكر ويكدح ويطرد من جفنيه النوم ، بينما الرضا هو تلك النسائم الجميله التى تهب على قلبه لتخبره أن هنيئا لك ما أنت فيه.. مهما كان. لاحظت أنه يعاملنى كطفلة وهو يحكى لى قصة عن أرملة فقيرة كانت

تعيش مع طفلها الصغير فى حجرة صغيرة متواضعة فوق سطح أحد المنازل فى ظروف صعبة للغاية ..لكن أكثر ما كان يزعج الأم هو سقوط الأمطار في فصل الشتاء، فالغرفة عبارة عن أربعة جدران , و بها باب خشبي، غير أنه ليس لها سقف! وكان قد مر على الطفل أربعة أعوام منذ ولادته لم تتعرض المدينة خلالها إلا لزخات قليلةوضعيفة من المطر, و ذات يوم تجمعت الغيوم و امتلأت سماء المدينة بالسحب الداكنة . . . . . و مع ساعات الليل الأولى هطل المطر بغزارة على المدينة كلها , فاحتمى الجميع في منازلهم , أما الأرملة و الطفل فكان عليهما مواجهة موقف عصيب . نظر الطفل إلى أمه نظرة حائرة و اندسّ في أحضانها , لكن جسد الأم مع ثيابها كان غارقًا في البلل . أسرعت الأم إلى باب الغرفة فخلعته و وضعته مائلاً على أحد الجدران , و خبأت طفلها خلف الباب لتحجب عنه سيل المطر المنهمر.

نظر الطفل إلى أمه في سعادة بريئة وقد علت على وجهه ابتسامة الرضا و قال لأمه : " ماذا يا ترى يفعل الناس الفقراء الذين ليس عندهم باب حين يسقط عليهم المطر"؟!

بعد الصفعة والقصة وحسن المعاملة ، أشعرنى خالد اننى انسانة جديرة بالاحترام ، وأنه ينبغى أن أحترم عقلى وجسدى بنفس الدرجة. أعتقد أننى صرت مع خالد انسانة أخرى.

****

أحمـــد طلبه

****

أكتوبر 1956 ، والمعركة البحرية تدور فى وضح النهار. الطائرات الفرنسية والانجليزية تهوى محترقة فى مياه الأنفوشى، مشيعة بصياح الرجال والأطفال فى الشوارع والحارات. انتشرت عدة فصائل من الجنود المسلحين بالمدافع والرشاشات على طول الشاطىء فى انتظار إسقاط مظلى أو إنزال بحرى. انهالت عليهم المأكولات والمشروبات من نسوة رأس التين الفقيرات والمقتدرات. معظمهن كن ينزلن من بيوتهن بملابسهن المنزلية يتسابقن فى تقديم الطعام للجنود.

ضربت مؤخرة البارجة"الظافر" بقذيفة من الطيران المعادى. أطلقت ستارا كثيفا من الدخان حول نفسها. ناورت بمهارة ثم هربت من الحصار بعد أن أسقطت طائرة هوت أمامنا فى البحر. أطلقت الزغاريد فى الأزقة والحوارى والشوارع. هرع الصبية لالتقاط الشظايا ومخلفات طائرة أخرى سقطت قرب الشاطىء. لم تجد نصائح الآباء والمهات لأبنائهم بضرورة الاحتماء بالمنازل أثناء الغارات.

"غواصة" يجرى بساق ونصف ساق. بقدمه اليسرى عاهة تجعل خطواته شبيهة بخطوات أبى قردان، إن لم تقل عنها كفاءة واعتدالا. بينما تضىء القنابل الفوسفورية الحى بأكمله فى المساء ، يصيح غواصة:

- الله أكبر..الله أكبر. والله من يقع منهم فى يدى أطلّع خاخان أمه!!

"مازلت حتى اليوم لا أعرف معنى كلمة خاخان ، منذ رددها مصطفى سبرتو على الشاطىء"..

- والله لأقطع رجل أول انجليزى أمسكه وأدفنها عندى فى الاسطبل

غواصة يعمل سائسا بحظيرة رأس التين. يتقاضى أجره آخر الليل من الحوذية. يبيت مع خيولهم فى الحظيرة الواقعة بحارة الحدينى ، ويقوم بغسلها فى الصباح. تأثر غواصة فيما يبدو بمعاشرة الخيل، حتى أن رائحته أصبحت شبيهة برائحتهم. الا أنه كان يسعى حين تحين الفرصة الى الاغتسال فى مياه البحر. يخلع ملابسه كاملة دون أن يعبأ بأحد أو بشىء ، ويلقى بنفسه فى الماء مدعيا السباحة والغوص على بعد أمتار قليلة جدا من الشاطىء خشية الغرق ، فهو لايعرف العوم.

وسط هذا المولد ، رحت أبحث عن أبى فى كل مكان. قهوة مورو. كشك امرأة الشحتوف. غرزة ام الشحات. دكان القبو. بيت الشيخ عبد القوى.لم أعثر له على أثر. تملكتنى حالة من القتامة غريبة. كانت ذاتى هى محور تفكيرى. من أنا ؟..ماجدوى ما أفعله؟..لماذا يحدث كل ما يحدث ، وما علاقتى به؟.. بل وما هو الداعى لوجودى أصلا، وماذا أستفيد من الحياة وماذا تستفيد الحياة منى؟.. هل أنجبنى ذلك الصياد النجار الفنان التعس ليمتهن كرامته وآدميته فى سبيل أن يعلمنى ، لأجد نفسى فى النهاية معلقا فى الهواء لا أطول أرض المعدمين ولا سماء الأثرياء. أقف على عتبة الانتقال بنفسى. بالسيد طلبة وعم على مكرونة وغواصة وماجدة ومرمارة وبربرة وعرب ميزو وحودة تمنتاشر وامرأة الشحتوف وأم الشحات..بأجيالهم القادمة..بعالم البوابة بأكمله، انتقالا الى موقع أفضل انسانية وأعلى شرفا..وقبل أن أخطو خطواتى الأولى يورطنى أبى بالتستر على جريمة حمقاء، وأتورط أنا فى حب امرأتين إحداهما يتناقض تكوينها على طول الخط مع تكوينى الذى خلقت الثانية من طينه خلقا محكما.

سلوى تلقت تعليمها فى المدارس والجامعات الأجنبية، وأنا تعلمت بالمجان فى مدارس الحكومة. لو لم أتعلم لما سألت نفسى هذه الأسئلة: من أنا ولماذا وكيف؟.. ألست مخلوقا كسائر المخاليق آكل وأشرب وأنام ثم أموت؟.. لم لايفكر الحاج حودة مثلما أفكر؟ ولماذا لا أفكر أنا مثلما يفكر هو؟. لامفر من الإيمان بأن هناك قوة حاكمة كبرى تهيمن على تسيير أمور هؤلاء الناس فى ظل أى نظام آدمى حاكم. هؤلاء الناس لايهمهم أن يعرفوا طبيعة النظام. لايشغلون

أنفسهم بتلك الأمور ، فهناك الأهم من ذلك كله. هناك المعدة وأعضاء التناسل، وهم يتفننون منذ نشأتهم فى إشباع تلك الحاجات على أى الأحوال وبأية كيفية ممكنة.

لا تعرف سلوى أن تقول لى:" ياشيخ اتنيل بنيلة" مثلما قالتها أم ماجدة لأبى بعد أن ضبطتنى أنا وابنتها متلبسين ونحن صبية. حتى لو عرفت سلوى كيف تقولها فلن تتقن قولها كما تتقنه ماجدة، سواء بمخارج الحروف أو بتقصيع الجسم وحركته الموحية المصاحبة للجملة. حتى لو أتقنته فلن أتلذذ بسماعه منها، مثلما يحدث مع ماجدة فى لحظة من لحظات انسجامها، حين نمارس ماتيسر من الجنس، فتزول بيننا الكلفة وتزداد هى جرأة وتألقا. حينئذ أشعر من خلال لذتى العارمة أن هناك روابط أزلية عميقة تربط بينى وبينها، وتصهر تاريخ أجدادى وأجدادها فى بوتقة واحدة معجونة بتراب حوارينا ومياه بحرنا.

كلمات الاحترام والمجاملة والدرجات العلمية والوظيفة ، أشياء لامكان لها فى قاموس هؤلاء القوم الذين أنا منهم. عندهم فقط بدائل لها ذات معان محددة كالرجولة والجدعنة والمعلمة. لافرق عندهم بالفعل لا بالقول بين وزير وعامل نظافة فى البلدية. ماجدة مثلا لا تعرف كيف تحترمنى."ولماذا تحترمك"،مع أنها تكاد تطير بى فرحا وفخرا لارتباطى بها."ليتها تدرك الحقيقة التى لم أدركها بعد". لاتعرف ولن تعرف أيضا. سلوى تتقن جيدا دربة التحلى بآداب الحديث وفن القول والتلاعب بمشاعرى حين تخاطبنى.

لماذا يخفى أبى القتلة الغبياء؟..وتعتقد سلوى بعد ذلك فى إمكان أن تكون بيننا صداقة أو أخوة..كيف؟!.. أحسد خالد على سكونه الصفرى. بعيد هو دائما عن حلبة أى صراع وإن كان مدركا لأصول لعبة الحياة الى حد كبير. ليته يتحرك معى لنصنع شيئا. أنا بحركتى المجنونة وهو بسكونه الحكيم. أنا بتناقضاتى التى تشتت حركتى وهو بثباته الذى يمنعه عن الحركة. قلت له مــرة:

ـ سوف أبعث اليك بماجدة لتعلمها القراءة والكتابة ، فهى ترغب بشدة فى ذلك، وأنا واثق أن مستواها الفكرى سوف يرتفع بسرعة.

أجابنى الى طلبى بترحيب شديد.إيمانى بصدق نواياه ايمان قوى. قليلة هى الكلمات التى تصدر من فمه المطبق دائما بشدة على سيجارة مشتعلة.

عدت مرة أخرى الى البوابة. سألت عن جارنا العجوز"عم على" بائع المكرونة الكسر فى زمن مضى. ذلك الرجل الصامت الذى لايلجأ اليه أبى الا فى المرات التى يعود فيها بقلبه الى ربه – وهى كثيرة – فيصلى الجمعة فى زاوية بكير ، طالبا الرحمة لصديقه الشيخ عبد القوى الذى أراد أن يستريح من الحياة فرحل عنها، ثم يصحبه فى جنازات موتى لايعرفانهم. يجلسان فى سرادقات العزاء. يستمعان فى خشوع الى آيات القرآن. يهيمان فى ملكوت سرمدى يضفى عليهما من دعة القلب وسكينة الفؤاد وسلام العقل ما تحمله نسمة أخروية هفهافة من يقين الراحة الأبدية.

قالوا لى ان عم على جالس بالمقهى. وجدته يبكى فى صمت أليم. دموعه تسيل على وجنتيه المتآكلتين المجعدتين ، ولا أحد فى الدنيا يشعر به.

- مالك ياعم على؟
- ولا حاجه يابنى
- ألا تقول لى مايبكيك وأنا فى منزلة مصطفى ابنك؟

ربت على كتفى فى حنان ، ثم قال بمرارة معتقة:

- الوحدة يابنى. وقاك الله أذاها. لا أهل لى ولا صديق ولا وطن من بعد مصطفى.

ابنه مصطفى ذو الوجه الطفولى الملائكى البرىء ، فقد فى حرب اليمن. قدمت له كلمات رثاء مصنوعة لم تنفذ الى وجدانه ولم تعوضه عمن فقد. قال لى بذات المرارة:

- لو أعرف لماذا أرسلوه الى هناك!.. لو يقنعنى أحد!

كان من الطبيعى أن تكون هذه حاله وقد حان موعد الذكرى السنوية لوفاة ابنه. سألته فى حياء عن أبى فقال ان غواصة حضر اليه منذ قليل ، ثم غادرا المقهى معا. توجهت على الفور الى الحظيرة.

" بعض الباشوات والبهوات باغتهم الشلل النصفى ، والبعض الآخر نفق كمدا عندما نفذ عبد الناصر بعض التغييرات العادلة على مستوى البوابات الضخمة التى يقبع خلفها كلاب الحراسة، لصالح البوابات المهدمة والمنسية التى ينام فى بطنها بقايا أناس أنهكهم سهاد الصبر والترقب..حتى لو أشفى الحقد الأسود غليل بعض العامة والخاصة وأطفأ ظمأهم الى خراب بيوت الأغنياء، فإن ذلك الحقد لم ينطلق من بوابة مورو ليبث سمومه ويفسد كل شىء ، لأن أهل البوابة طيبون متسامحون .. كان من الممكن أن تتناصف مرمارة مع بربرة إحياء حفلات الأفراح بطريق ودى عادل. القتل لا ينفى احتياج هؤلاء الناس الى الحب والترابط ، فالأمر لم يحدث من فراغ. أفكار كثيرة فى عقولهم يجب أن تعدم، وأخرى يجب أن تزرع وإلا فإنهم سوف يخلفون فى ساحة البوابة إرثا بغيضا يعانى منه الأبناء والأحفاد.

****

حارة الحدينى حارة ضيقة فى مواجهة الشاطىء مباشرة. تلتحم بيوتها الصغيرة الواطئة فى تعاطف وتناسق تقائيين، وقد سوست رطوبة البحر وملوحتها خصاص نوافذها الخشبية العتيقة، وصدئت مفاصلها الحديدية البالية. دفعنى عزم الريح دفعا الى نهاية الحارة وقد أضفت عليها نوّة"عوّة" الشهيرة بعنفها جوا خياليا عاصفا بالزمجرة والصفير وغضبة الطبيعة، أشبه بحكى الأساطير. العاصفة البحرية تقتلع الكبائن الخشبية الصغيرة الكائنة على الشاطىء. تحطم سفن الصيد المعمرة الراسية قرب الشاطىء. الأمواج تقتحم الطوار الصخرى. تقفز معربدة فى جنون الى الشارع. الريح تزمجر فى غضب شديد. تعوى فى الحارة بصوت مخيف. بعض المنازل الصغيرة تكاد تهوى معها. هياج البحر يضاعف من نشوتى ومتعتى بثورة الطبيعة. يكاد ينسينى ما أنا عازم عليه. استوقفنى غواصة على باب الحظيرة قائلا فى تلعثم:

- أبوك ليس هنا

دفعته بهدوء. تعثرت قدمه العاجزة. كاد أن يقع. فتحت الباب الخارجى ، ثم الداخلى البعيد..أبى يتناول الطعام مع بربة وعرب ميزو بين أقدام الخيل!!

****

تختص شركة حسين فتحى دون غيرها بالتعاقد مع شركة النصر على التوريدات الضخمة من الخامات والمعدات اللازمة للصناعة. شركات أخرى تقدم أسعارا أقل وخامات أجود ، لكنها أبدا لاتفوز بنصيب من المناقصات المشبوهة. تساهم سلوى بنصيب كبير فى هذا الفساد. تتردد دائما على مكاتب المدير العام والادارة التجارية وهى مجرد موظفة بإدارة المتابعة. اشترت الشركة كميات هائلة من بضاعة غير مطلوبة وألقت بها فى المخازن لعدم الحاجة اليها. لم يستطع أحد تحديد المسئول عن فشل المشروع الذى رسى عطاء تنفيذه على شركة حسين فتحى، وكلف الشركة مالا طاقة لها به من اموال وخامات وعمالة وطاقة ووقت، ثم أدى فى النهاية الى انخفاض الانتاج. لابديل عن محاكمة كل من وضع توقيعه على أوراق هذا المشروع الفاشل حتى تتبين الحقيقة ويعاقب المسئول.

- فوضـــى!
- مال لا صاحب له ولا رقيب عليه

كلمات كثيرة من هذا القبيل تتناثر فى كل أرجاء المصنع، لكنها مجرد كلمات لاتسفر عن شىء.

تصدرت مائدة الاجتماع الطارىء للجنة الاتحاد الاشتراكى بالشركة، كرئيس منتخب بأعلى الأصوات. من حولى يجلس تسعة أعضاء. الأول موظف بالبوابة الرئيسية للشركة وحامل اختام يوميات العمال والمسئول عن إثبات مواعيد دخول وانصراف الموظفين. الثانى موظف بإدارة التدريب وهو الذى يحدد أسماء العمال والموظفين المرشحين من الادارات المختلفة لحضور الدورات التدريبية ذات المكافآت المجزية. الثالث مهندس الانتاج وصاحب السلطة الأولى فى

توقيع الجزاءات واعتماد الأجازات وتقديم الاقتراحات بشأن المكافآت والمنح التشجيعية عن الأعمال ذات النفع الخاص للشركة. الرابع عامل يعشقه العمال. يقتحم مكاتب المديرين مهددا متوعدا، مستندا فى اتهاماته لهم على اشاعات مشكوك فى صحتها دائما، لكنه فى نظر العمال شجاع جرىء وبطل مغوار. الخامس ساع بالأرشيف يؤلف زجلا ركيكا مكسور الوزن. رث الهيئة. يقلد فريد الأطرش فى الغناء وصوته أجش كريه. له من الأولاد تسعة ، لست أدرى ماذا يفعل بهم ولهم. السادس مدير الانتاج .هو رئيسى المباشر . أستاذ فى التقوقع بين الأوراق والمذكرات والمكتب. فنان فى الانحناء أمام رئيس مجلس الادارة.. خبير فى التهرب من مسئولياته والإلقاء بها على الغير. السابع فيلسوف خطير. يجيد مخاطبة العمال بخبث شديد فى الأمور التى تمس جيوبهم ومصالحهم. يكثر من استخدام عبارة:"العناصر المخربة" فيدسها فى أحاديثه بلازمة وبلا لازمة. تسهل له زوجته التى تعمل بالادارة كل السبل للحصول على ترقياته ومنحه التشجيعية بحق أو بغير حق. الثامن عامل رزين لايتكلم الا قليلا، وحين يتكلم ينصت اليه الجميع.أما التاسع فهو نقابى قديم مخضرم. ضبط من قبل على البوابة وبجيبه مادة كيمائية قدر ثمنها بحوالى خمسمائة جنيه.

فى بداية الاجتماع طرحت الشكوى المقدمة بتوقيعات مجموعة من عمال الشركة للمناقشة. كنت عاجزا عن السيطرة على سير المناقشة رغم تمرسى فى الدورات التدريبية على كيفية ادارة المناقشات وقيادة الاجتماعات. تذكرت جملة علمها لنا أحد المحاضرين:"دعه للذئاب " ، والتى كان يحب أن ينطقها بالانجليزية:"let him to wolves ".وترمى الى اسكات الشخص المشاغب الميال دوما الى المعارضة والاحتجاج ولو بلا سند ، لمجرد اختلاق ضجة يعكر بها صفو المناقشة والحوار، وذلك بأن يطرح قائد الاجتماع مايثيره هذا الشخص من آراء معينة على الجماعة كلها بطريقة موحية، بحيث يهبون للتصدى له ومعارضته وإسكاته فى النهاية نيابة عن قائد الاجتماع ودون عناء من جانبه أو مزيد من التورط معه فى المناقشة.

كيف لى أن أطبق هذه النظرية العلمية المدروسة التى ثبت نجاحها فى العالم؟..كيف لى أن أدع أحدهم للذئاب ان كان هو الآخر ذئبا لايقل عنهم ضراوة وتوحشا؟ لو تركتهم لبعضهم البعض لافترس كل منهم الآخر..تناثرت الأقوال والانفعالات الحادة من المقاعد ، وانهالت التعليقات الصارخة:

- يجب أن تفصل سلوى من العمل
- المدير المالى اشترى لنفسه عربة جديدة بآلاف الجنيهات. يغطى أرض مكتبه بالسجاد الفاخر ويزين سقفه بالنجف الكريستال، ثم يحرم العمال من الوجبة الغذائية بدعوى ضغط الانفاق.
- من زمان ونحن نسمع عن قانون من أين لك هذا..المدير التجارى أصبح مليونيرا
- "العناصر المخربة" تملأ الشركة ولاتجد من يحاسبها
- لابد أن توقف الشركة تعاملها مع اللص حسين فتحى
- نشطبه من سجل الموردين
- المكان الطبيعى لمدير المشتريات هو السجن. لقد أمضى شهر النكسة بأكمله فى أروبا بحجة التعاقد على شراء آلات جديدة للشركة لم تصل حتى الآن، وبينما كان أولادنا يذبحون فى سيناء، كانت زوجته تقيم معه فى فنادق الخمسة نجوم على حساب دماء عمالنا المساكين.
- بل يجب أن نتخلص من هذا الجيل العفن بأكمله من رؤساء ومديرين
- ياعم الميّه لاتجرى فى العالى..أهم حاجة هى الدرجة
- ومن سمعك. عاوزين نربى عيالنا. بلا فلقة دماغ
- لاتتعبوا أنفسكم.لافائدة. نحن ننفخ فى قربة مقطوعة. الغلب مكتوب علينا الى يوم الدين

وقال الشاب الرزين:

- "اسمحوا لى بكلمة. لقد أثبتنا للأسف فشلنا بجدارة. حين كان الخواجة مانوليدس يملك المصنع ويديره بمفرده كان الانتاج ضعف الانتاج الحالى، وكانت سوقه رائجة نتيجة لجودته. لم تكن هناك أحقاد وصراعات. لم يكن هناك عشرات المديرين ومئات الموظفين. لم تكن البضاعة مكدسة فى المخازن بآلاف الأطنان لاتجد من يشتريها. هل أدلكم على سبب الانحدار المؤسف الذى وصلنا اليه بمصنعنا؟.. كلنا نفقد الاحساس الحقيقى الصادق بملكيتنا له ، ولا نفكر الا فى رواتبنا وحوافزنا. هذه هى مأساتنا ، وعوضنا على الله فى المستقبل ما لم نتغير".

- الله ينور عليك ياسطى
- جبت التايهة ، ومن الآخر
- لازم نشوف طريقة نعبر بها عن أنفسنا
- صلوا بنا على النبى. هذه الشكوى ليست من اختصاص الاتحاد الاشتراكى
- الله يفتح عليك. نحولها للنقابة ونريح دماغنا
- تمام. نحولها الى النقابة

ساعت ثلاث كاملة فى نقاش وصراخ، ثم انتهى الاجتماع – كالمعتاد – الى لاشىء. كل ما قيل كان كلاما.مجرد كلام. ألفاظ تتطاير فى الهواء ولا فعل. اتهامات لا تستند الى أدلة قاطعة، فاللصوص يتمتعون بذكاء يفوق ذكاء أعضاء الاتحاد الاشتراكى والنقابة مجتمعين.

****

وقد أعمتنى مشاعرى المتوهجة تجاه سلوى عن حقيقتها التى لم تعد غامضة ، فلابد من وقفة. الاجابة القاطعة عن تساؤلى المتشكك عن سر عملها بالشركة – وهى القادرة على الاستغناء عنه وعن غيره – أمست واضحة كل الوضوح. لاصداقة إذن ولا يحزنون. هى أكذوبة حقيرة تستند الى قسم وهمى بينى وبينها.." سأعلمكم أيها الأوغاد أنه ليس قدرا كتب علينا أن نعانى من ويلاته الى الأبد. ليس عدلا أن نظل ألعوبة فى أياديكم. اللعبة مزدوجة. العقل والعاطفة. عظيم جدا أن يطلق علينا لقب مجتمع الكادحين، لكن المهزلة أن تؤول ثمار كدحنا فى النهاية الى بطون وأمزجة مجموعة من الأفاقين. كما أنه ليس عدلا أن يعبر عن مطامحنا وآمالنا من يملكون المزارع والقصور والأطيان ومراعى الخيول"... تصفيق حاد!!!!

****

يكشف التحقيق عن براءة مرمارة. القاتل هو عرب ميزو وحده.الجريمة دافعها الغيرة والانتقام ، وليس التنافس على إحياء الأفراح كما أشيع.رفضت بربرة مطارحته الغرام. طعنته فى شرف امرأته مرمارة. لكن عرب ميزو يقول:

- لو خانت نساء الأرض ، لاتخوننى زوجتى

عرب ينهار..ثم يعترف لى أبى فى النهاية أن أنيسة الليل المتسللة يوم موت أمى لم تكن سوى مرمارة.

****

- مبروك يا أستاذ أحمد
- شكرا ياحسين بك

ألغيت الألقاب ، لكنها تحيا من جديد. الجميع ينادونه هكذا فكيف أناديه بغير البك؟. يا أستاذ حسين؟ ياحسين افندى؟ يا حسين حاف؟!

وقعت معه العقد. تضاعف مرتبى عدة مرات بين يوم وليلة. قال لى صاحب العمل:

- رفعت مرتبك تعبيرا عن سعادتى البالغة بذكرى طرد الخبراء الروس

آه ياكذاب ياضلالى. وطنيتك هى منفعتك. لعلك تتمنى إحلالهم بخبراء من لون آخر. ماهى تكية يا اولاد الكلب ما لها صاحب. الأيام بيننا.

صافحتنى سلوى مهنئة والفرحة تشع من عينيها. كل تمردى كان عبثا وهراء. فرحة لأن اللعبة قد نجحت بإبعادى عن الشركة بعد اكتشافى الحقيقة واعتبارى مصدر خطورة على

جيوبهم وكروشهم. أم هى لعبة الحب والصداقة والقسم إياه والأصابع المطلية أظافرها بطلاء مستورد؟..نعم. اللعبة مزدوجة.

- اعتبارا من باكر تتسلم عملك
- ان شاء الله
- افعل ما يجعلنى أثق بك

****

أتوجه بهدوء الى مطعم وبار "كاليثيا" بمحطة الرمل فى مواجهة الكورنيش مباشرة. أعب البيرة وآكل السبيت بلا وعى. ألعب مع بائع الفستق الصعيدى"جوز والا فرد"، وآكل الحبات التى أكسبها.نسمات الهواء القادمة من البحر رتداعب وجناتى. تدغدغنى. تنفذ فى نشوة الى صدرى. أتأمل من نافذة المطعم التقاء البحر بالسماء فى عناق أزلى أبدى جميل. الشمس تذوب فى الماء كما تذوب العاشقة فى أحضان حبيبها. بائع الجندوفلى ذو الطربوش الأحمر القانى المكوى يذكرنى بأبى فى شبابه. بعض الأجانب يجلسون على مائدة. يشتركون جميعا فى شرب زجاجتين فقط من البيرة.. ألم يرحل الروس بعد؟..

استقالتى من الشركة.خيبة أمل العمال فى. نصيحة أبى بالرجوع عما أنا مقدم عليه. تسهيل المديرين لإجراءات إخلاء طرفى من الشركة بسرعة البرق على غير العادة مع الجميع. رأسى تدور فلم أعتد تناول الكحوليات بكثرة، لكنى سعيد.

منذ ستة سنوات أو أكثر ، جلست متهالكا على نفس المقعد تقريبا. كنت أعانى من نزيف حاد بكرامتى. الجموع تجتاح الشوارع. تصرخ. تبكى.تتشنج. الظلام ورائحة القهر والهزيمة يغمران المدينة الحزينة. المحل نصف مغلق ، والويل للباحثين عن المتعة المحرمة فى ذلك اليوم. قال نصف مخمور وهو يأكل الجمبرى فى ركن قريب:

- هى وكسة وليست نكسة..البلد رائحتها دم

سنرى من يربح فى النهاية. لسنا جميعا أغبياء أيها الأغنياء. من حقى اليوم أن أتحرر من مفاهيمى القديمة للعدالة والقانون. أسرقكم وأظل شريفا."كيف يا مجنون؟"..أكشف عن أوراقكم السوداء.صداقة أخوية أم حب أم انتهازية واستغلال وضرب على القفا؟..مضاعفة الراتب بمناسبة طرد الخبراء السوفييت؟!..معك حق. هل جربت يا أخ مهانة الوقوف فى طابور الجمعية للحصول على سمك الشاخورة الرخيص أو اللحم الصومالى الذى نصفه دهن؟. هل جربت سلفة البنك التى تقسط عليك بفائدة على عامين لكساء الأولاد وإلحاقهم بالمدارس المجانية؟.. هل تعرف كيف تعيش أسرة شريفة بثلاثين جنيها فى الشهر؟.. هل سمعت عن عمال يقفون أمام آلاتهم طول الوردية دون أن يتناولوا طعام الافطار لسبب معلوم؟..العدالة تسمح لى أن أسرقك من أجل هؤلاء جميعا. قانونى أنا ولأحاسب عليه راضيا بحكمه. ولتنتظر أيها المنفوخ بالعظمة لعبتى المضادة والمزدوجة أيضا. قبلت العمل عندك وتركت شركتى التى أعشق كل طوبة رصت فى مبانيها. سأعمل على إفلاسك بكل ما أوتيت من حيلة. سأثرى على حسابك ولا خوف حينئذ من انفتاح او انغلاق ، ولتكن لى وقفة بعد ذلك مع أبناء البوابة وطوابير الشاخورة. سوف أكشف القناع بطريقتى عن مصاصى الدماء وبقايا مانوليدس من ذوى التطلعات الذين يتعاونون معك ويسهلون لك سرقتهم وابتزازهم. سأسرق قلب ابنتك أيضا ، وربما جسدها فلقد قبلت التحدى، فأنا فى أى الأحوال أرفض رأسماليتك الوطنية تلك ، ولا أعترف بها مهما أشادت بدورها المواثيق.

****

مجذوب البحـــــــر

****

●العربى بريمه:

عندما تملكنى عشق البحر عشقت معه كل مايتعلق بعالمه من الصيادين وحكاويهم ونضالهم القدرى مع الرزق، وعالمهم الملئ بالألغاز. ثم استهوانى عالم البنائين العظام صناع السفن على رمال شواطئ الانفوشى وراس التين وعند نهايه الميناء الشرقية، وفى الطريق الى قلعة قايتباى، حيث يتوارى شاطئ رملى صغير خلف بعض المبانى المنخفضة. كانت هذه المنطقة ولاتزال مسرحا لبناء وتصنيع بلانصات الصيد والفلايك والمراكب و اليخوت.

كنت فى حوالى العشرين من العمر عندما تعرفت بالمعلم "العربى بريمه" صاحب أكبر ورشة على هذا الشاطئ. قربنى منه عندما عرف عشقى للبحر، وكان بستقبلنى هاشا باشا ويجالسنى ويفضى لى بأسرار الصناعه.

تبدأ الحكاية باختيارجذوع الأشجار الجازورينا أو الكافور أو الجميز ، ويراعى أن تكون الجذوع مقوسة بدرجات متفاوت، فلكل منها استخدام معين. فى البداية ينصب حاملين متقابلين كل منهما على شكل حرف x يسمونها الحمار. يرفع فوقها جذع الشجرة الضخم بواسطة الجنازير والبكارة ، بحيث تكون تقويسة الجذع لأعلى ، ثم يعتلى صانع ماهر - يلقب بالنشار - أعلى الجذع وتحته على الارض نشار آخر. وباستخدام منشار معدنى يصل طوله الى أكثر من ثلاثة أمتار ، يمسك كل منهما بطرف منه، ثم يبدآن فى شق الجذع الى شرائح طولية تشكل العامود الفقرى للمركب. وباستخدام جذوع أصغر تشق الألواح التى تشكل القفص الصدرى للمركب.

بعد ذلك تبدأ مرحلة التنجير، وهى تجميع المركب حتى تبدو كالهيكل العظمى للانسان ، ثم مرحلة تغطية الهيكل بالألواح، ثم تصنيع باقى الأجزاء ككابينة أوقمرة القيادة ، ثم تبدأ مرحلة القلفطة ، وهى وضع حبال من الكتان بين العوارض لمنع تسرب المياه.

ويبتسم المعلم العربى بريمه وهو يقول:

- بعد ان عرفت سر الصنعة أمامك خياران: إما أن تعمل معنا، أو تفتح لك ورشة مستقلة بجانبنا.

وينفجر ضاحكا وهو يناولنى كوبا من الشاى صنعه لى على راكية النار المشتعلة، المعدة من بقايا الأخشاب .

لم أكتف بذلك وانما زحفت بعد ذاك الى ورش راس التين حيث تعرفت على عم ياقوت دكتور الفلايك.

****

● دكتور الفلايك:

المعلم ياقوت ، أو الدكتورياقوت كما يناديه الصيادين ، رجل قارب على الثمانين من العمر. قصير القامة. متغضن الملامح. يملك نظرات ثاقبة. يلف رأسه بلاسة حريرية زاهية الألوان. يرتدى دائما بلوفر صوف أزرق برقبة – لا يغيره - وعليه صديرى من سوق العقادين ، وأسفله السروال الأسود السكندرى الفضفاض (أبو لية) مابين قدميه .

ياقوت لايعترف بالزمن ويتحدى سنين عمره . يقف فى كشكه الخشبى الذى يحمل لافتة كبيرة مكتوب عليها (دكتور الفلايك) . يزاحم هذا الكشك ورش المعلمين الكبار صناع السفن والمراكب على شاطئ راس التين. حين تتعرض بعض الفلايك للتحطم على الصخور فى النوات أو تبلى عوارضها بفعل الزمن ، يقصد صاحب الفلوكة التى تحتاج لترميم كشك دكتور الفلايك ويتركها بين يدى عم ياقوت ، ليعود به فترة لاستلامها عروسا عفية زاهية الألوان،

عندما كنت أجالس الدكتور ، يقول لى وهو يعد لى أدوار الشاى على راكية نار يغذيها ببواقى الاخشاب:

- **عارف ياأستاذ.. كل المعلمين اللى قصادك دول كانوا صبيانى. منهم اللى جه من السيالة واللى من الانفوشى ومنهم من ادكو ورشيد ... كانوا صغيرين ميعرفوش الالف من كوز الذره .علمتهم الصنعه على أصولها وصاروا معلمين كبار يدارى البعض منهم وجهه منى.. أيووه على ده زمن ياأستاذ.**

وبعد كوب الشاى الثالث يسترسل ياقوت مع ذكرياته قائلا:

- **الخاصة الملكية بقصر راس التين استدعونى يوما لاصلاح لنش الملك فاروق الذى كان يفضله . كان قد استدعى له مهندسا ايطاليا لإصلاحه. بعد معاينته قال له المهندس انه لايصلح للاصلاح. وبعون الله وفى ظرف أسبوع قمت باصلاحه ليعود أحسن مما كان . قال لى أحد أفراد الخاصه:**
- **الملك بيقول لك براوه عليك يادكتور.**

توقف عم ياقوت ليشد أنفاس الجوزة، ويطلق دخانها من أنفه بغزارة غير عادية بعد وصلة كركرة عالية، ثم يواصل:

- **ماحدش دلوقت من العيال الصيع دول عاوز يتعلم الصنعه، والمعلمين لما تتعقد معاهم شغلانه يلجأون الى فى السر، وأنا طبعى لا أحب أن أكسف أى مخلوق.**

و فى آخر لقاء بيننا ،وعند هبوط المساء ودعنى الدكتور ياقوت وهو يقول مبتسما:

- **والله نفسى أعمل لك يخت صغير تمنجه به نفسك.... خلينا نشوفك يااستاذ.**

****

كلما أمر بهذه المنطقة التى تغيرت معالمها تماما ، أترحم على المعلمين القديرين ، وأقرأ على روحيهما الفاتحة.

****

- **<u>البلانص</u>:**

هو مركب صيد كبير الحجم مزود بموتور

- **<u>البراطيم والكواتر والدناجل</u>:**

هى أنواع مختلفة من المراكب لكل منها استخدامه الخاص عند أهل السواحل.

****

ليلـــى الاسكندرانـــى

****

تراجعات كثيرة حدثت فى حياتى بفعل القراءة المكثفة التى أعشقها ، لا لمجرد التثقف ، ولكن لتحويل الثقافة الى فعل وسلوك أكثر استنارة وتحضرا. اكتشفت أننى كنت أجهل من دابة. تبين لى أن تشددى مع حمدى راجع الى اعتناقى بعض الأفكار المتطرفة التى بثتها بعض المذاهب فى عقلى، فملأتها بالحقد على الأغنياء جميعا دون استثناء، الشرفاء منهم وغير الشرفاء. أعتقد أنه لايعيب المرء أن يغير رأيه فى أمر ما، وبالتالى يأخذ موقفا مخالفا دون أن يندم على ذلك. قرأت تاريخ المذاهب الفلسفية والاقتصادية والسياسية على قدر ما أتيح من الوقت والكتب والمال. قرأت باستفاضة أكثر تاريخ مدينتى الحبيبة اسكندرية.

عندما وجدت صعوبة فى استيعاب التفاصيل التاريخية لبلادى وللعالم أيضا ، رأيت أن أفضل السبل وأسهلها وأرخصها ، هو الرجوع الى الكتب المدرسية التى كانت مقررة على الطلبة فى المدارس الاعدادية والثانوية. أحضرتها من بيوت بعض الصديقات والجيران والتهمتها. كدت أحفظ كل ماجاء بها نظرا لسهولة عرض الأحداث فى ترتيب وتسلسل. أغرب ما فى هذا الأمر أن الذى كان يحضر لى معظم هذه الكتب القديمة هو أبى الذى كان يقرأ ويكتب بصعوبة. كنت أشرح له طبيعة الكتاب الذى أريده ، فيصحبنى الى شارع النبى دانيال حيث باعة الكتب المستخدمة ، والى شارع العطارين حيث العربات المتنقلة التى تحمل المئات من الكتب والمراجع التى خلفها المصريون - وبعض الأجانب - الذين هاجروا من مصر. بعض هذه الكتب كان شديد الأهمية ثمين القيمة، مما يؤكد أن أصحابها كانوا مضطرين الى بيعها سواء على انها روبابيكيا لدواعى العزال أو الهجرة، أو على أنها ميراث غير مرغوب فيه لآباء وأجداد رحلوا عن الحياة، ورأى الأبناء فيها مجرد كراكيب ينبغى التخلص منها حتى لاتزحم البيت.

عشقت البحر قبل أن أراه، ولكن من قراءتى لتاريخ منطقة كوم الشقافة التى كنا نسكنها قبل أن نأتى الى بحرى، يقفز الى ذهنى أمران مرتبطان بهذا المكان. الأول أن المنطقة الخلاء المهجورة خلف العامود كانت هى المقر الأساسى الذى يجتمع فيه أبى مساء كل يوم مع أصدقائه للسمر وتدخين الحشيش الجيد الذى كان يباع فى هذه المنطقة بأرخص الأسعار. الأمر الثانى هو اهتمامى الشديد بالتاريخ السكندرى المحيط بعامود الصوارى. ذلك العمود المقام فوق تل باب سدرة بين منطقة مدافن المسلمين المعروفة باسم العمود، وبين هضبة كوم الشقافة الأثرية. طول العمود سبعة وعشرون مترا صنع من الجرانيت الأحمر، وقد أقيم تخليدا للامبراطور الرونمانى دقليديانوس فى القرن الثالث الميلادى والذى يؤرخ عصر الشهداء من وقته بسبب شدة اضطهاده للمسيحيين المصريين. عرفت أن العرب قد أسموه عامود الصوارى نسبة الى صوارى السفن بسبب طوله الزائد.

أحب الجلوس بجوار التمثالين الشبيهين بأبى الهول واللذين يرجعان الى عصر بطليموس السادس، حيث يجتمع مع تاريخ الأسرة الفرعونية الثامنة عشر ، من خلال نقوش الملك حور محب عليهما.

فى مجلس حشيش معتبر أفتى السيد طلبة لأبى بفكرة الانتقال الى بحرى للعمل معه فى صناعة الفلايك التى يتسيدها فى المنطقة الريس عبد الاله والمعلم عربى بريمة والمعلم ياقوت. اعجبت الفكرة أبى المحب للتجديد والتغيير ، فانتقلنا الى رأس التين. بعد فترة من الزمن أحب أبى مهنة الصيد لطول مراقبته للصيادين وكثرة تواجده فى حلقة السمك بالسيالة. بعد ذلك أصبح أبى يجمع بين العملين بعد أن عشق البحر والسمك والشباك ونجارة الفلايك، رغم انه لم يرث هذه المهنة عن أحد من أسرته كمعظم الصيادين.

وكما جمع أبى بين ما تحت البحر وما فوقه ، كان بطليموس الأول قد جمع بين آلهة المصريين وآلهة البطالمة، فكان التزاوج بين"سيرابيس" و"إيزيس" اللذان أنجبا "هربوقراط" المعروف بإسم "حورس"..ذلك الثالوث الذى تطور فيما بعد الى الآب والإبن

والروح القدس. وعندما انتشرت المسيحية وأصبحت الدين الرسمى للدولة، دمرت كل المعابد الوثنية بما فيها "السيرابيوم"، وأقيمت على أنقاضه فيما بعد كنيسة تحمل اسم القديس يوحنا المعمدان ، ظلت قائمة حتى القرن العاشر. الأثر الوحيد الذى مازال قائما بالمنطقة حتى الآن هو ذلك العمود الجرانيتى الشهير بعامود الصوارى.

انتقلت غرزة الحشيش بعد ذلك الى المتحف البطلمى بحديقة رأس التين المواجهة لقصر الملك فاروق. ظاهرة غريبة تدهشنى. لماذا يفضل عواجيز بحرى التجمع والسهر والتدخين والتحشيش فى أروقة وجنبات معابد أجدادهم القديمة؟.. هناك نوع من التوحد التاريخى بين الأجداد القدامى والأحفاد المعاصرين عند أهل الاسكندرية منذ الاسكندر الأكبر ومعلمه أرسطو.

وأخيرا أهدانا الزمان مكتبة الاسكندرية، عوضا عن المكتبة القديمة التى اتهم العرب ظلما وعدوانا بحرقها، والتى أصبحت تغنينى اليوم عن أى مكتبة أخرى. بالإضافة الى ذلك فإنى أخذت حصصا معدودة فى الكمبيوتر، اعتمدت من بعدها على نفسى حتى صرت قادرة على استخدامه للحصول على المعلومة التى أبحث عنها.

أنا ليلى الاسكندرانى الجديدة. كانت ليلى الاسكندرانى القديمة مسكينة أصابها الفقر بالحقد والضغينة. لم أعد أمانع اليوم أن أقترن برجل يملك المال دون أن أظن به الظنون. احتل الحب حياتى فأصبحت أنظر الى الدنيا نظرة مختلفة أكثر موضوعية واعتدالا من نظرتى السابقة اليها. من هنا بدأت إعادة النظر فى حياتى ومستقبلى. الريس عبد الاله يحاول التقرب منى . يبذل الغالى والرخيص فى سبيل التقرب منى بأية وسيلة. يكاد يتسول حبى قابلا أن ألقى به اليه كصدقة. التحول الذى حدث لى جعلنى لم أعد أكرهه كما كان حالى من قبل ، بل اننى لم أعد أصده. من حين لآخر يراودنى تساؤل عما اذا كانت الثقافة تقدم للمرء مبررات مقنعة لخيانة مبادئه من أجل نفعه الخاص. الاجابة تكون دائما بنعم ، والأدلة أمامى عديدة من واقع حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية. الكثير من أثرياء بحرى الآن يخطبون ودى ويعبرون بطريقة أو بأخرى عن رغبتهم فى الاقتراب منى والاقتران بى. سبحان الله. حادث المنشر الذى أفقد حمدى جلامبو صوابه وتوقفت دنياه أمامه ، ولم تتحرك به ولم يتحرك بها خطوة واحدة، كان سببا جوهريا فى تغيير حياة الكثير من أصحاب المناشر. كلهم – رغم أنهم لايحملون مثله شهادات جامعية – قد نجحوا فى التحرر من الحقد والكراهية وانطلقوا فى الحياة بحثا عن فرص جديدة للرزق ، وقد نجحوا جميعا فى ذلك. منهم من أصبح تاجر أسماك كبيرا وصار يمتلك محلا ومحلين وثلاثة ، ومنهم من برع فى صناعة الفلايك والدناجل وتوسع فى ورش النجارة وفتح أبواب الرزق للكثير من النجارين والصيادين.

فى النهاية لم يستطع حمدى البقاء فى مصر. أصبح نموذجا حيا أمامى للمواطن الذى يكره وطنه ولا يطيق البقاء به، ولايعرف كيف يحب ناسه وأهله. هاجر حمدى بعد أن اختفى لفترة من الحى، ولم يعرف أحد إلى أى البلاد سافر، وأعتقد أنه لن يعود حتى آخر يوم فى حياته.

****

خرج حسن أبو جبل من السجن. أصبح ذلك أمرا معتادا مع جماعة الاخوان. يودعون السجون لفترة ثم يخرجون. هناك لعبة مستديمة بين السلطة وبين هذه الجماعة المزعجة التى لاتعرف النوايا الحسنة أبدا. منذ عصر الملك فؤاد ثم فاروق ثم محمد نجيب وعبد الناصر، ثم حسنى مبارك ، والمناورات لاتتوقف بين هذه الجماعة والسلطة. حاولوا اغتيال جمال عبد الناصر فى 26 أكتوبر عام 1954 بميدان المنشية، ونجحوا فى اغتيال السادات فى 6 أكتوبر عام1981 أثناء الاحتفال بنصر أكتوبر.

اذن فقد نجحوا فى غسيل مخ الدكتور حسن ابو جبل ابن صاحب المنشر بشاطىء الأنفوشى ، وشقيق المحامى حمدى أبو جبل ابن ابو جلامبو صاحب نفس المنشر. حمدى أعماه الحقد والغضب والتطلع. حسن ذهب فى اتجاه آخر كان – رغم وعورته وخطورته وعنفه – أكثر إيجابية الى حد ما. علاقتى بحسن علاقة محترمة. عودنى أبى فى حياته – وبعد مماته – أن أكون حرة فى لقاء الرجال والتحدث اليهم بثقة واطمئنان. كان دائما يقول لى:

- أنا لاأخاف عليك. انت بنت جدعة. بستين رجل

أحببت عبد الناصر لدرجة فوق الوصف. كنا جميعا نرى فيه نصير الفقراء والضعفاء والمساكين. مازال البعض يهاجمونه حتى الآن وينسبون تخلف مصر وفشلها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا الى عصره رغم أنه مات منذ عشرات الأعوام.

لولا جمال عبد الناصر ماتعلم أحمد السيد طلبة. لاهو ولا حمدى ولا حسن ، الذين بعد أن تخرجوا جميعا فى الجامعة راحوا يكيلون له السباب والاتهامات وينسبون اليه كل أخطاء الماضى والحاضر. الانتهازى الكبير حسنى مبارك هو الذى قنن العلاقة بجماعة الاخوان المسمين بالمسلمين. أسماهم"الجماعة المحظورة" ثم تركهم ينمون ويتوسعون وينتشرون على مرأى ومسمع منه ومن حاشيته بشكل شبه رسمى ، وذلك فى مقابل أن يسكتوا عليه حين يؤهل ابنه المتغطرس لحكم مصر بعد أن خربها خرابا لايعمر.

قبض على حسن فى عصر عبد الناصر وفى عصر السادات وسوف يقبض عليه أيضا فى عصر مبارك، لكنه لم يكف عن علاج الفقراء بالمجان ، والعمل فى المستشفيات الحكومية بأجر زهيد.

حين التقى حسن بعد خروجه من السجن بأخيه حمدى لم يكن هناك توافق بينهما ، فسار كل منهما فى طريقه. ظل حمدى يحسد حسن على انتمائه لجماعته – رغم كراهيته لها – طالما كان حسن قابعا بين جدران السجن. لكن عندما خرج والتقاه وجها لوجه، راح يسخر منه ومن انتمائه، ويصفه بالنفاق والانتهازية، ويشبهه بكلاب السلطة الذين يأكلون على كل الموائد بحثا عن فرصة يتسلقون بها الى منصب أعلى يقربهم من السلطة ، أو يحصلون منها على ثروة غير مشروعة.

أسرد الآن هذه الشريحة من الوقائع وأنا فى سن الشيخوخة، لكن أحداث حياتى الجوهرية التى رويتها من قبل قد وقعت فى الزمن الذى كانت تباع فيه البيضة بمليمين ، وأقة اللحم بعشرين قرشا.

... أعود الى المـــــاضى..

تاب الريس عبد الاله توبة نصوحا عن الاتجار فى المخدرات – أو هكذا يقول - وفتح مقهى كبيرا، لكن يبقى هناك سؤالان حائران:

الأول: هل تعتبر الإيرادات التى يجمعها من عماراته الأربع التى بناها من قبل ، أموالا حلال؟

الثانى: هل يستجيب لشروطى حين أحقق له حلمه بالزواج منى ، بعد أن أقسم لى أنه لاصلة بينه وبين مقتل أبى ، أو موته غرقا.

طلبت منه كتابة توكيل عام لى بكل أمواله وممتلكاته. كما طلبت منه بيع العمارات وتخصيص قيمتها لإنشاء مستشفى ومدرسة بحى الأنفوشى. لو كان هو قاتل أبى حقا فأنا لن أستطيع الثأر منه بقتله ، وإنما باستحلال كل أمواله وممتلكاته. هذا هو انتقامى الذى يرضينى ويشفى غليلى. أن أراه يعيش فقيرا معدما متحسرا على ماله. كنت أعلم أنه لن يقوى على أن يقوم بهذه المغامرة أو يجرؤ عليها لأجل خاطرى ، فربما دار بخاطره أننى أخدعه... لكنه – وياعجبى من جنون العشق - استجاب فوعد وأوفى بوعده.

لم يتبق أمامى إلا نفسى...

هذه هى فرصتى الأخيرة لحسم شكى فى هذا الرجل باعتباره قاتل أبى. لامفر من المواجهة:

- هل يكفى قسمه لك ببراءته حتى تصدقيه؟
- هل تغالطين نفسك طمعا فى حياة مرفهة – من حقك أن تتمتعى بها - تنسين فيها الماضى الذى لا نفع منه وتغسلين منه يديك؟
- هل أجمع الصيادون ونجارو الورش على التأكيد على صحة ادعائه؟
- هل زال الشك تماما من قلبك؟
- هل تقبلين به زوجا وأنت مازلت تشكين فى أنه السبب فى موت أبيك ،قانعة بتبريراتك الجدلية التى تعلمين أنها غير حقيقية كشأن معظم المثقفين الانتهازيين؟

- **هل يمكن أن يساعد زواجى منه فى إتاحة الفرصة لى للكشف عن حقيقته إن كان هو قاتل أبى أم لا؟**

كل هذه الأسئلة التى طرحتها على نفسى ، لم أستطع الإجابة عنها بصدق يتمشى مع احترامى لذاتى ولذكرى أبى. أما أفكارى البالية فقد تخليت عنها. إذن فمازالت الأمور معلقة، ولست أعرف كيف سيحسمها القدر وتكشف عن حقيقتها الأيام.

يؤكد لى مصطفى سبرتو أن عبد الاله كاذب ، وانه مازال يهرب المخدرات الى الشاطىء بمعاونة ضلعيه الأساسيين"أورمة" و"خرابة". مصطفى يأتينى بأخبار الأنفوشى بكامل تفاصيلها يوما بيوم. يأكل فى بيتى ويشرب كما لو كان فى عشته تماما. ولاؤه لى امتداد لولائه لأبى. ضغطت عليه كثيرا ليكشف لى عما يخفيه بشأن موت أبى ، لكنه كان يكتفى بالتلميح لا بالتصريح. ربما كان يريد الاحتفاظ بشعرة معاوية بينه وبين الريس عبد الاله الذى كان يعمل لمصطفى ألف حساب كما لو كان يخاف منه ، مما أزاد من شكوكى وجعلنى أعتقد أن مصطفى يبتزه بصفة مستديمة حتى لايفشى السر.

****

أحمـــد / ســـلوى

****

● **أحمـــد طلبه:**

مع أننى ارتديت الحلل الفاخرة وأربطة العنق المستوردة، الا أن السيد طلبة رفض أن يترك البوابة. لم ألح فى رجائى له أن ننتقل لنعيش على وجه الأرض لا فى باطنها. كنت أميل فى قرارة نفسى الى رفضه العنيد، وربما شعرت بسعادة خفية لقراره الحاسم:

ـ لن أترك البوابة الا الى القبر

أسفار عديدة خارج مصر لدواعى العمل عند حسين بك. هدايا لسلوى ولأم سلوى. عالم جديد جديد. يبتسم لى فيه كل شىء حتى الجماد."ياسبحان الله"! حفلات حسين فتحى الصاخبة تعقد من خلالها صفقات تجارية وأخرى جنسية. فى البداية كانوا علىّ غرباء ، ثم ماعادوا. أصبحت اليوم محسوبا عليهم. كان من الطبيعى خلال تلك الحفلات وعلى أنغام الموسيقا الأوروبية ان تتواجد حرم حسين فتحى مع أحد الوجهاء فى شرفة متطرفة يتبادلان الهمس ، بينما يحاول حسين بك فى نفس الوقت إقناع ذلك الوجيه عن طريق آخر أكثر سهولة وإغراء – مع زوجته – فى شرفة أخرى، وربما غرفة أكثر تطرفا من الأولى.

صفقاتى وتعاملاتى الناجحة مع مختلف الشركات العالمية دعمت من موقفى وأزادت فى قوة رسوخه عند حسين فتحى. بدأ يولينى ثقته مع الاحتفاظ بحذر رجال الأعمال فى معظم الأحيان. ازداد تعلق سلوى بى. هكذا حسبت، رغم أنى مازلت أذكر الخدعة. أنا لم أبتلع الطعم كله يا أولاد الأبالسة. انتدب الدكتور فريد للعمل بإحدى الهيئات الدولية بالخارج. هكذا تتهافت الوظائف الكبرى على أولاد الذوات وترتمى تحت أقدامهم وهم فى غنى عنها، بينما يظل خريج الجامعة المسكين من أبناء الأنفوشى عاطلا سنين عديدة حتى يعثر على عمل. أى عمل ، حتى لايبقى عالة على أبويه. معظم جارسونات نادى سموحة جامعيين. صار تواجد فريد بالاسكندرية نادرا. تفجر الصراع العاطفى فى صدر سلوى، لكنها لم تعترف لى حتى الآن بأنها تحبنى ذلك الحب المعروف بين المرأة والرجل. فى الوقت ذاته لم تعد تكرر أمامى حكاية الصداقة الأخوية اياها. يالحيرتك يابن السيد طلبة النجار صائد الجندوفلى وماسح العربات. حاستى الخفية التى ترعرعت فى حوارى الموازينى وزاوية الاعرج والأنفوشى، وشبت حدتها فى قبو مورو العتيد، كانت تدرك الحقيقة. حقيقة أنه ليست هناك حقيقة ، وليس هناك واقع. المسألة كلها ظنون لايملك الا الزمن تحويلها الى يقين.

لست أدرى ماذا تريد بى الأقدار. هاهو غريمى يموت قتيلا فى حادثة، وكأنما تريد لى أن تصبح سلوى حرة وأن تكون ملكا خالصا لى ، دون عذاب أو ندم أو تردد. كان يقود العربة بسرعة شديدة أدهشت محمد الجالس بجواره ، والذى طلب منه مرارا أن يخفض من سرعته ، لكن فريد لم يستجب له. لم يكن هناك داع لهذه العجلة ، لكنها مشيئة القدر. اصطدمت العربة بعمود إنارة. أصيب محمد ونقل الى المستشفى ، أما فريد فمات من فوره.

****

نجحت نجاحا ساحقا فى اختبار الثقة الذى وضعنى فيه حسين فتحى خلال تعاملى مع مدير إحدى الشركات الأجنبية التى تورد المعدات والكيماويات لشركته. أثناء تفاوضى مع هذا المدير على أسعار شراء قطع غيار ومعدات ، حاولت تخفيض المبلغ المطلوب. حينئذ عرض علىّ الرجل مبلغا يسيل له لعاب الجن الأزرق فى مقابل توقيعى بالموافقة على المبلغ المعروض دون تخفيض. هاتف داخلى قال لى اننى موضوع فى امتحان خبيث تحت ميكرسكوب الشيطان حسين فتحى ، الذى كانت علاقته بهذا الرجل قوية كما لاحظت من قبل.صدق حدسى عندما اتصل بى حسين يشكرنى على موقفى الذى تبين أن صديقه أطلعه عليه كاملا.

لم يكن أمامه بد من إطلاعى على معظم ما أخفاه عنى من أسرار الشركة. فى زمن قصير كنت أحتفظ فى شقتى الجديدة فى حى الرمل بكل المستندات والمكاتبات والوثائق التى تدين كل من يتعامل – من أساطين شركة النصر - مع هذا الرجل بأسلوب غير مشروع.

منذ استلمت شقتى الجديدة انقطع اتصالى نهائيا بالبوابة وبحرى وأبى ، وكل من له علاقة بهذا الماضى الكريه الذى خطوت أولى خطواتى نحو التخلص منه واجتثاث جذوره. أنا الآن أعد نفسى لحياة جديدة كلها عز ورفاهية. ستكون زوجتى هى ابنة أحد كبار رجال الأعمال فى المدينة. لم يكتف حسين بك بإعطائى هذه الشقة الفاخرة ، بل أهدانى عربة من أحدث الموديلات. كان من المفترض أن يسافر محمد الى ألمانيا لعقد أضخم صفقة لإتمام خطة التوسع التى يقوم حسين فتحى بتنفيذها على مراحل زمنية متتابعة. ابتسم لى الحظ فألزمه الحادث المستشفى. قرر حسين فتحى أن أسافر بدلا منه ، وسألتنى سلوى:

- متى تعود يا احمد؟

"تسألين موظفا ناجحا يعمل عند أبيك ، أم تسألين رجلا تشتهينه، أم انسانا تعلمين انه يحبك لكنه يخاف منك. تسألك وخلاص. لكن من أنت من بين هؤلاء؟..المهم أن تركز على هدفك القريب أيا كنت ، وإلا ضاع منك حلمك بالصعود والارتقاء".

- التساهيل على الله. فى حدود شهرين
- أنت معزوم على العشاء عندنا الليلة

ازداد التقارب والتفاهم بينى وبين المدير التجارى بشركة النصر بعد أن أصبحت مصالحنا مشتركة. هل أتعاون معه خوفا من حسين فتحى أم من سلوى أم لأسبابى الخاصة. ولماذا لا أغير انتمائى مثلما غيرته ليلى الاسكندرانى بقبولها لعبد الاله من بعد رفض ، ومثلما تغير قلب أبى فتحول من أمى الى مرمارة؟..

أنا الذى أبلّغت فى الخفاء عن عرب ميزو ومرمارة. انتهز أبى الفرصة للارتباط بمرمارة متعللا بأنه لايريد أن يكون مصيرها مثل مصير "عزيزة العمشة" التى انحرفت بعد أن سجن زوجها. لكن تبين لى فى النهاية أن عرب ميزو ، هو الذى طلب بنفسه من أبى أن يتزوجها ليحميها ويسترها. ثار حودة تمنتاشر ثورة عارمة على هذه الزيجة المنتظرة عندما بلغه النبأ، وهدد أبى بالقتل لو تزوج من زوجة قاتل زوجته بربرة. لهؤلاء الناس قيم ومفاهيم عجيبة لا أستطيع أن أستوعبها. رغم ذلك فأنا لم أر أحدا منهم ثابتا على مبادئه وأفكاره رافضا تغييرها أو استبدال مبادىء أخرى بها ، عدا خالد العزيزى ، صديقى المقرب.

يلعب خالد دورا كبيرا فى خدمة أبناء الحى والأحياء المجاورة لوجه الله لا لغرض فى نفسه. عندما استجابت ماجده لرغبتى فى أن تتلقى العلم على يده ، كان ذلك رغبة منها فى طاعتى أكثر من رغبتها فى تلقى العلم. لكن لا يمكن لأحد أن يتنبأ بكل ما تخفيه الأيام، فها هو خالد الرزين الرصين المثقف العاقل يقع فى حب ماجده هو الآخر. ولأنه انسان مباشر لايعرف الالتفاف فقد صارحها بحبه و أبلغنى بذلك.

ماجدة يحركها جسدها قبل أن يحركها قلبها. كنت أحسب أن قلبها فى يدى، لكنها باعتنى وسلمته لخالد. قد تثبت الأيام سوء ظنى تجاهها، لكنى أعتقد أن هذا ماحدث بالفعل ، ولو أنى أشك فى أن يستجيب خالد يوما لنزعاتها الجنسية الصارخة التى لاتعبر عن حبها الا من خلالها ولا تستطيع كبح جماحها.

يقود خالد حملة منتظمة بحماس شديد لمحو أمية أكبر عدد ممكن من رجال الحى ونسائه ، وينجح فى ذلك. يعقد خالد صداقة قوية مع حودة تمنتاشر لإقناعه بالكف عن السرقة ويدبر له عملا شريفا بميناء الاسكندرية. لكنه لا يستطيع أن يخفف من غلواء غضبه على السيد طلبة بسبب نيته الزواج من مرمارة.

خالد يحول عزيزة العمشة الى مساعدة لأم الشحتوف فى ادارة المقهى الذى أنشأته ، وضم اليهما أم الشحات محاولا إبعادها عن غرزة المتحف.

خالد يعين ماجده كعاملة بشركة النصر للكساء الشعبى بمساعدة صديقهالمدير الادارى للشركة، فتترك كشك السجائر الذى أنشأته للشحتوف الصغير.

بينما يتوغل خالد فى الانصهار مع أبناء بحرى ، أتوغل أنا بالتدريج فى محاولة التحالف مع من كانوا فى يوم من الأيام خصومى نفسيا وفكريا. رغم نجاحى فى اكتساب ثقة حسين فتحى ، الا أن ضميرى ظل يضمر له العداء من منطلق دونى أكثر من كونه منطلقا فكريا.

هأنا أركب الطائرة من جديد. بفلوس حسين أرى الدنيا من فوق. يراودنى احساس خرافى بالارتفاع والعلو، وأنا سابح فى فضاء بلون الجليد. لم أكن أحلم بزيارة بلاد العلم والتقدم والحضارة المنتصرة فى هذا الزمان ، بدلا من المرة مرات ومرات.

حسناء صارخة الجمال تمضغ اللبان، تقود التاكسى الذى يمر أمامى فى بطء. كدت أندفع لأركبه لولا أن رأيت شابا يقف أمامى رافعا لافتة كتب عليها اسمى . توجهت اليه. اصطحبنى فى عربة خاصة الى الفندق. الوجوه كلها بيضاء والمبانى رائعة التنسيق. الفارق بين أوروبا وأفريقيا رهيب. حضارة السبعة آلاف عام لم تشفع لى فى التحرر من الشعور بالدونية من جديد ، لا من مصرى ثرى ، ولكن من وطن متحضر.

تعلمت شرب النبيذ الروزيه فى الطائرة. أدخن السجائر لأول مرة فى حياتى. أحمل فى حافظتى مئات الدولارات لأول مرة فى حياتى أيضا . مضيفة جميلة تقدم لى الطعام والمشروبات وتنحنى أمامى بابتسامة كلها سحر وعذوبة. قلة خبرتى بالسفر تجعلنى أعتقد أن هذه الابتسامة حقيقية ، قبل أن تعلمنى الأيام أنها مصنوعة لدواعى أصول العمل بهذه المهنة. المهم أننى الآن فى السماء. أرى الدنيا جميلة تقول لى دعك ياهذا من أفكارك الخائبة وتمتع بحياتك واحفظ الجميل للرجل الذى جاء بك الى هنا. أنت تعلم أن كلا ميسر لما خلق له. لاتترك الغيرة تنهشك من خالد لما يفعله ولا تفعله أنت مع أهل حيك. هو ميسر لذلك. أنت ميسر للهندسة وأوانى الضغط والطلمبات التى تقاوم الصدأ. لولا براعتك فى تخصصك من تصميم وتخطيط ودفع لعجلة الانتاج لما كنت الآن فى هذه الطائرة، ولما وطئت أرض الحضارة والتقدم التى أنت بسبيل النزول اليها الآن.

ياربى..متى أنجح فى التحرر من استمراء شعورى الحقير بالدونية؟!...

أنا الآن انسان آخر. لامعنى لاجترار أيام أحمد طلبة القديم. انهيار فى جدار الزمن يشطر حياتى الى نصفين أحدهما فى الأرض والآخر فى السماء.

فى غرفتى المكيفة بالفندق الرهيب ، لم أكن أريد أن أصدق أننى أعيش واقعا لا حلما ملونا. هكذا صور لى حنينى القديم الى رؤية ما قرأته عن هؤلاء القوم. كنت أنظر فى شاطىء الأنفوشى الى خط التقاء الأفق بالبحر على أبعد مدى ، فتهيم روحى وراء ذلك الخط الوهمى الذى يفصل بين عالمين مختلفين تمام الاختلاف فى كل شىء. هناك شمس الجنوب وهنا صقيع الشمال. هناك رأس التين والأنفوشى والسيالة وبوابة مورو ومقام الصبا والكورديللى حجاز كار على أوتار عود عجوز مسطول. هنا أينشتاين وسارتر وشكسبير. المطار. الجمارك. الاجراءات. كل هذا حدث كالحلم. الناس هنا كلهم عى درجة عالية من الجمال. نساء ورجال. لست أدرى لماذا ميزهم الله علينا فى كل شىء. تعاملهم معى – ومع غيرى – فى منتهى الرقة والتحضر. هأنا أخرج من المطار. يا الهى! ماهذا الصقيع الذى لم أعرفه من قبل؟. أغلقت أزرة معطفى وأحكمت وضع الكاب فوق رأسى حتى لا يقتلنى هذا البرد فدرجة الحرارة تحت الصفر. العربة تسير على الأرض بين لونين: الأبيض جليد والأخضر حدائق وأشجار ، والسماء من فوقها ذات لون رمادى ساحر يوحى بالشجن. أما تلك البرودة الرائعة فهى تشحن المرء بالأمل وحب الحياة والرغبة المخلصة فى السعى لتحقيق التقدم والنجاح.

كل الوجوه مبتسمة متفائلة رغم مايبدو عليها من جدية وصرامة. لا أحد يمشى فى الشارع بلا هدف. المواصلات العامة متعددة. عربات الأوتوبيس تكاد تكون فارغة. اشارات المرور تعمل أوتوماتيكيا. السائقون يتوقفون لدى عبور عجوز للشارع. ممر خاص لركاب البيسكليت وهو كثيرون. الشوارع خالية من زحام العربات تماما. ما أتعس أبناء العالم الثالث حين تنشغل

أدمغتهم بالدين والجنس. عالم الغيب يتحكم فى مصيرهم ويدفع بهم الى الوراء لسوء فهمهم لمعنى الله والإيمان بقدرته. النصف الأسفل من أجسامهم أهم بكثير من الدماغ. وليمة هؤلاء البؤساء النفسية أعدها لهم كارل ماركس وسيجموند فرويد. لانصيب فيها لأينشتين أو أحمد زويل أو مصطفى مشرفة.

ما أجمل الشوارع والمحلات وماكينات التليفون وماكينات المشروبات الساخنة والباردة ، والورود على مشارف النوافذ والحدائق بطول الشوارع وعرضها. لماذا حرمتنا من هذا الجمال فى بلادنا يارب، أم نحن الذين لانعرف كيف نصنعه مثلما صنعه هؤلاء الذين يسميهم حسن أبو جبل بالكفار؟..

زرت المصانع العديدة والتقيت بمديريها وأصحابها حتى وقع اختيارى على شركة معينة. الساحة أمامى الآن مفتوحة على اتساعها. لن يتمكن حسين فتحى أن يجرى على اختبار ثقة مرة أخرى ، فأوراق اللعبة كلها بيدى اليوم ، وأستطيع أن أجنى من المال ما أريد دون أن يشعر بى.

أكبرت فى هؤلاء القوم تقديسهم للعمل كما لو كان عبادة بحق.أنا اليوم صاحب توقيع رسمى مسئول ومعتمد ، يعقب وضعه على الأوراق تحرك معدات وبضائع من قارة الى أخرى ، وإيداع آلاف من الدولارات فى البنوك وفى جيبى أيضا واللعنة على النقيضين اللذين عذبانى كثيرا: صعاليك الأنفوشى والبوابة البؤساء ، ولصوص الرأسمالية الوطنية الانتهازيين.." يجب أن تتصرف بحرص وحذر يابن الفوطة الصفراء والجندوفلى والبوابة والخشب والشباك والدناجل"..

قبضت العمولة التى طلبتها بلا أدنى حياء. فرصة العمر فلا معنى لأن تضيع. مبلغ لا يجرؤ من هو مثلى على أن يحلم بعشره يوما. المال مالى. حصلت عليه بفكرى وجهدى وعملى. اذا اعتبر أحد أننى سرقته ، فقد سرقته من لصوص عالميين هنا وهناك. من حقى أن أنعم به وحدى أو أفيض ببعض منه على طوفان التائهين فى أزقتنا بحثا عن الرغيف وعن ضرورة أخرى يسمونها بالعدالة الاجتماعية.

غدا تفهم الحياة على حقيقتها ياخالد، فقد تعاظمت الذئاب وطغى عواؤها على مأمآتك المتفائلة الصابرة. محتاج أنا الى بعض منك كما أنك محتاج الى بعض منى. لكن كان يجب أن يتحرك أحدنا أولا. أنت ميئوس منك. انسان استاتيكى فاقد للطموح. لذلك لم يكن هناك مفر من أن أتحرك أنا وليكن ما يكون. ان شئت أن تعدل أو تواصل فأنت حر. أما أن تثابر على صمت الأموات ، فهذه خيبة قوية من جانبك.يخرب بيت الفقر. يلعن دينه. تركت لك ماجدة وسوف ألقى بثقلى كله للفوز بسلوى.

فى لحظة حدث الانشطار المرتقب. احتدم الصراع الوحشى الشرس على ساحة نفسى المنقسمة بين النصفين الأرضى والسماوى. لست أتصور فى يسر كيف يتأتى لى بعد أن عبرت اللحظة حاجزها الزمانى المخيف ، أن أحقق توازنا عاطفيا بين طبيعة احمد طلبة الجديد وتلقائية أهلى وناسى الفوضويين الجامحة التى أكرهها. لم يعد بمقدورى أن أتعامل بوجهى الجديد مع عامل أعرف أنه يقف لسبع ساعات متواصلة – وربما تكون معدته فارغة - أمام ماكينة يملكها غيره ويتمتع وحده بعائد انتاجها، فى ذات الوقت الذى ترقد فيه زوجة هذا العامل بالمستشفى الأميرى على نصف سرير بمشاركة مريضة أخرى ، ويستدعى ابنه الأكبر الذى يشاركه عبء الانفاق على الأسرة للخدمة العسكرية، وتهرع ابنته هى الأخرى الى بيته غاضبة باكية مستجيرة به من ظلم زوجها وفقره وطول يده..ومن..ومن..ومن..بينما لاتشكل كل هذه الكوارث خطورة بائنة على سلوكه اليومى ، إذ يرمى حموله على الله ويواصل الكدح فى صمت. تلك هى حياتهم التى اعتادوها. سنوات متصلة من العذاب اليومى لاتنتهى الا بالراحة الأبدية. لذلك فقد أصبح الأمر مألوفا لديهم. لنفس الأسباب أيضا أراهم يضحكون من قلوبهم ويقهقهون ويحششون ويتقاذفون بذىء القول بأصوات منكرة تطغى على ضجيج الآلات. هم عباقرة فى التعايش مع حالة اليأس المستقرة التى استسلموا لها. يقولون:"ضربوا الأعور على عينه قال

ماهى خسرانة خسرانة".."ياعم خليها على الله".. "اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب".. المقتدرون منهم نسبيا – بل وحتى المعدمين فى بعض الأحيان - يمضون معظم أيامهم غائبين عن الوعى بفعل المخدرات والكحوليات الرخيصة والبرشام. يتندرون تارة على أنفسهم ، فيحمدون ربهم على نعمة الستر ، وعلى الأغنياء تارة فيسمونهم بالناس المبسوطين. لما سأل أحدهم عن مدلول الكلمة أجابه آخر وهو يسعل من شدة الضحك وتأثير الجوزة قائلا:

- يعنى طول النهار "قاعدين يضحكوا"

كيف يتأتى لى أن أحقق هذا التوازن؟. أحيانا أتصور أن الجنين فى بطن أمه يحمل معه سلوكه المذهبى والدينى قبل ولادته. هذا يولد اشتراكيا ، وذاك يولد فوضويا ، والآخر يولد ملحدا ، وما على سنوات العمر القصيرة بمفاجآتها العشوائية الغريبة إلا أن تتكفل بتهيئة الظروف لتحقيق النبوءة. ما أظن أننى خلقت لكى أستأثر بامتلاك شىء أستأجر من أجله بضعة آدميين حتى يحافظوا لى على ملكيته. حتى لو كنت خلقت لذلك فلن أكون قادرا عليه.

ماجده يا بنت عبد القوى ، لم تعودى لائقة بى اليوم. خالد مناسب لك. متولى يابن السيد رجب، أعطيك آلاف الجنيهات لتصلح من حالك وحال شقيقتى البائسة التى ابتليت بالزواج منك. أنت كائن طفيلى هامشى لاحكمة ترجى من وراء وجودك على قيد الحياة. الله يخرب بيت أهلك.

" ياعزيزة ياعزيزة ياعزيزة/ كلنا ..... ببريزة"!! على وزن أغنية لفريد الأطرش اسمها ياحليوة.. ايه يامجالس الأنس الفقيرة الرائعة التى لا تتكرر.لن أدفع لك"بريزة" فقط ياعزيزة. سأدفع لك ما تطلبين بلا مقابل من جسدك المنتهك الذى بلى من كثرة الاستخدام. سأحترم قسمات وجهك الطيب التعس. آن الأوان يابنت حواء وآدم كى تريحى جسدك من عذابه. لن يلتهمك مجموعة من المساطيل والسكارى يغنون على عود مخمور ، وكل فى انتظار دوره.

سوف أتعلم الاسكواش. سأقضى الصيف فى أفخم فنادق مرسى مطروح، والشتاء فى نيوكاتاراكت. لا. أولد كاتاراكت أكثر شاعرية ورومانسية. من حقى أن أنعم بهذا كله. معذرة يا خالد ، فعلى صعاليكك أن يعملوا ويكفوا عن التواكل. من يجهد ذهنه ويفكر ويخطط ويسعى وينفذ ، يحق له أن يكسب ويكسب ويعيش كما يريد. أما من يطالب بالمساواة وتوزيع الدخل القومى وهو جالس الى المقهى يلعب بالورق فاغسل يديك منه.

كل أخبارالبوابة والأنفوشى كانت تصلنى أولا بأول طوال فترة بقائى بألمانيا، فقد تعلمت من حسين فتحى أهمية أن يكون لى أتباع يمدوننى بما أطلب من معلومات بعد أن ملأت أفواههم وكسرت عيونهم.

خلال تفاوضى مع الخواجات ، حدثت مفاجأة سخيفة غير متوقعة. قرار معين طلبوا أن يوقعه صاحب الشركة شخصيا وهنا فى مقر الشركة الألمانية. حاول حسين فتحى انهاء المسألة دون حضوره لكنه لم يوفق فجاء. أصبحنا ننام معا فى فندق واحد. دعانى لتناول الافطار معه فى الصباح. كان مضطرا الى السفر فورا لأمر هام بمصر. كنت فى حالة رعب شديد منذ لحظة وصوله. دمر الخوف كل أحلامى وأطاح بلحظات السعادة التى عشتها. اعتقدت أن أصحاب الشركة سيخبرونه بالعمولة التى تقاضيتها منهم. لم أستطع النوم. توقعت أن يقتحم علىّ غرفتى بين لحظة وأخرى ليواجهنى بفضيحتى ثم يفصلنى من العمل. لم تهدأ أعصابى ويستريح خاطرى إلا على مائدة الافطار. كان مبتسما منشرح الصدر بما لايوحى بأى كدر. هنأنى على براعتى فى إنجاز هذه الصفقة بسعر رآه مناسبا. لست أدرى من أين جاءتنى شحنة الثقة المفرطة الفجائية التى جعلتنى أسأله عن سلوى ، وأعبر له عن اهتمامى بها تمهيدا لمفاتحته فيما بعد فى أمر خطبتها حين تكون الفرصة سانحة. رأيت أن أؤجل تلك الشطحة الى وقت آخر حتى تسمح الظروف. قبل مغادرته فتح حافظته وأعطانى مبلغا كبيرا من الدولارات وقال لى:

- لقد أنجزت عملا رائعا. من حقك الآن أن تحجز فى رحلة سياحية قبل أن تعود الى مصر

بالفعل حجزت فى رحلة سياحية ضاعفت من انبهارى بعالم الغرب. لحسن حظى جلست بجوارى فى العربة فتاة جميلة تعمل بإحدى الشركات السياحية. تبادلنا الحوار حول العلاقة بين الشرق والغرب وصراع الحضارات. تبين لى كم أنا ضئيل ثقافيا بالمقارنة بها. الأهم من هذا

كله انها قالت لى انها معجبة بى. كدت أطير من الفرح والدهشة ، لكن قيود الأنفوشى والفوطة الصفراء جعلتنى أتهيب أن أطلب منها موعدا. لاحظت ترددى فشجعتنى على ذلك بقولها انها تدعونى لتناول العشاء معها بشقتها المتواضعة!

فى المساء ذهبت اليها طائرا ، متحررا من خجلى وخوفى وترددى قدر المستطاع ، لكن نجاحى فى هذا الأمر لم يتحقق الا بعد أن شربت كمية كبيرة من الويسكى. حينئذ انطلق عقلى الباطن مفجرا كل ما بنفسى من هواجس ورغبات وشهوات.

المرة الأولى فى حياتى التى أنام فيها مع امرأة بهذا الجمال الخرافى وبهذه الرائحة المبهجة. كانت وديعة معى للغاية رغم أنها كانت أكثر منى تمرسا فى فنون الجنس. أمتعتنى متعة لم أذق مثلها من قبل. صباح اليوم التالى ودعتنى بقبلة وكلانا يعلم أننا لن نلتقى مرة ثانية أبدا.. هذه هى الدنيا!.

****

فى تكتم شديد وصلت الى الاسكندرية. لم يعلم أحد بموعد عودتى. كنت فى اشتياق الى رؤية أبى. توجهت الى عالمى السحرى الغامض. الى البحر معشوقى ونديمى. احتجزت غرفة بفندق البوريفاج. حقا انه شاطىء جميل. نزلت الى البحر. اندفعت مخترقا أمواجه المتدافعة فى رفق لأمارس هوايتى المفضلة، وهى الاستحمام عاريا كما ولدتنى أمى. تمكنت فى لحظات من التخلص من إحساسى من الخوف وسرعة الدوران الرهيبة التى تشدنى الى مركز عجلة الحياة، وأبدا ما تكف عن الدوران. أسبح وأتوغل الى الداخل. أضحك وأسمع نفسى قهقهاتى بصوت عال. اللعنة على العالم أجمع ، وكم حلوة هى الحياة.

جلست الى المائدة بصدر منشرح ممتلىء بنسيم الحرية والحياة السعيدة. أمامى طبق السبيت المفضل، وطبق آخر من السلمون المدخن ، وثالث من الجمبرى الجامبو. أعمل ايه ياناس؟..محدث نعمة وفجر.شعرت – بعد بضعة كؤوس من النبيذ - أننى قد امتلكت الدنيا.

سعدت بإغفاءة قصيرة فى حديقة الفندق، تخللتها لحظات يقظة متقطعة كنت أرقب من خلالها مجىء العشاق وذهابهم، فالمكان رومانسى حالم. نافورة صغيرة فى منتصف الحديقة تحيط بها مصابيح كهربائية ملونة ذات ضوء خافت ، وشجيرات نادرة ذات طابع خاص. من حولها تتناثر المقاعد والموائد فى نظام بديع وسط أشجار اخرى عالية تحيط بالمكان ، باسطة ظلالها على نعيم المحبين فى رفق وهدوء، لتشهد أوراقها المتجددة كل ربيع قصصا خالدة تؤكد على استمرار الحياة ، ثم نمت.

تناولت كوبا من الشاى ثم أخذت حماما دافئا. رتبت أوراقى وحزمت حقائبى استعدادا للانتقال الى منزلى فى المساء. أغلقت باب غرفتى معاودا التأكيد على ذلك. لست أدرى لماذا. غادرت الفندق واتجهت على مهل الى رصيف الشاطىء. كان قرص الشمس عند الأفق البعيد على وشك السقوط فى البحر، وقد اصطبغت السماء بغلالة من ألوان عجيبة يعجز أساطين الفنانين عن تصويرها أو تقليدها. راح اللون القرمزى يتزايد حتى اختفى القرص نهائيا.

لم أستطع مقاومة إغراء ذلك القرص الفضى اللعين الذى أعطانى حودة تمنتاشر بعضا منه قبل السفر قائلا:

- متع نفسك وادع لى بعد كل قرص
- لم ياحودة؟
- ستعرف فى حينه

كانت أكلة الأسماك الفاخرة ، ثم النومة الواثقة التى أعقبتها ن قد بعثتا فى نفسى شعورا راسخا بالطمأنينة، وفى جسدى شعورا فائقا بالنشاط والحيوية. واصلت السير على الكورنيش وقد بدأت لعبة الاحلال الكونية تكرر نفسها فى وقار مهيب. الظلام يطغى بجحافله فى اختراق تدريجى غير محسوس للنور. بدأت أشعر بنشوة إضافية من فعل القرص. ابتلعت قرصا آخر طمعا فى المزيد من النشوة التحليق فى عالم خيالى ساحر. واصلت المشى. المياه فى لون البنفسج الداكن. الأمواج ساكنة. الصخور بارزة لاتبدى اعتراضا على روعة الوجود وهمس

الطبيعة. سيمفونية متناغمة تعزف أنشودة الكون. المساكن أسطورية هابطة. تتعانق فى فوضى منظمة محببة.النوافذ كلها مغلقة. أضواء الصمت والسعادة تخترق زجاجها باعثت بأشعة من حنان القمر، تغمر الطريق الى هناك.."الى أين؟".. لامخلوق تختلط الأمور فى ذهنه مثلى الآن. مصابيح الشارع عمدها خشبية عتيقة. موسيقا حالمة ناعسة لا أعرف من أين تاتى الى مسامعى. الوحدة غير موحشة. الحب والسلام ينتظران مولد لقاء حبيبين. ياطيور الأمل غردى معى انها لحظة حياة. أصبحت الأمواج لا لون لها. المياه تغلى فجأة.هكذا رأيتها. الصخور تتحرك. السماء اكفهر محياها. ايقاع الزمن يضطرب. المساكن كثيرة مزدحمة بالبشر. نوافذها الآن نصف مغلقة. تفتح أو تغلق لايهمنى ، فالظلام مضيء والضياء ظلام...ودائما تسقط لعبة السعادة على الأرض أينما تريد. وداعا للتائهين فى لحظة وجود غائب. لاشعر ولا موسيقا ولا أغان، بل زمن وموقف وحساب ربح وخسارة.

- فنجان قهوة سادة دوبل من فضلك

****

خطواتى الى سلوى تهيج فى نفسى ذكرى تجربتى الأولى مع المرأة. تقذف بها الى مجال الشعور بكل دقائقها ونبضاتها. المنزل خال تماما الا منى. أبى فى القاهرة مع فرقته المسرحية. أمى سافرت الى "السنطة" بصحبة شقيقتي لزيارة شقيقتها المريضة. الحوارى تموج بالحركة كعادتها. فتحت شباك النافذة الجانبية المطلة على زاوية الاعرج. شبح امرأة لا أعرفها يعبر البوابة. نظرة خاطفة تسقط فى تركيز متقن على صدرها المتأرجح المكتنز أشعلت فى صدرى جحيما من النيران. امرأة أخرى تمرق. طويل شعرها. بحاسة كلب بوليسى أتقن تدريبه تشممت رائحته رغم أنها تبعد عن موقعى بعشرات الأمتار. تضرجت أذناى بدم ساخن يبحث عن ثغرة ينبثق منها. كنت قائما لتوى من النوم بعد أن تناولت غدائى بمفردى. اخطبوط بحرى متوسط الحجم اصطدته بحربة من شاطىء الأنفوشى. طهيته بنفسى على بابور الغاز. استغرق زمنا طويلا جدا حتى ينضج. أضفت اليه من التوابل ما يزيد عن حد الاعتدال.

فى سرعة أكبر من سرعة البرق راحت خلايا مخى تعمل فى إلحاح لخدمة الرغبة الصارخة التى تملكت كيانى. كنت أنتفض من شدة ذلك الالحاح. الحمى تنتاب عضلى الثائر. عيناى زائغتان. قلقتان. يمين شمال. فوق تحت. انهيار لكل مبررات المقاومة والتريث. لاعقل ولا حكمة ولا صبر، وانما حاجة جنونية الى امرأة!

طرقات سريعة على الباب. سعاد. الأرمل الساهمة النظرات تبحث عن دجاجة ضالة. الدجاج هنا والآدميون يسكنون معا فى سلام. هذه الأرمل الصامتة دائما ، غريبة الملامح ،العزوفة عن الاختلاط بالجيران، تقف أمامى وجها لوجه. حائرة من أجل رأسمالها. تبيع بيض دجاجها للبقال. دجاجة ضالة.هه!..بيض. نقود.فقر. أكل. جنس. زفت. خيانة.لاشىء. موازين القيم حساسة معقدة التركيب. لاتعطى جميعها نفس الدلالات...

دموع الندم. آهات اللذة والحرمان. تاوهات الألم المحبوب. تداخلات العظام واللحوم والغضاريف. أصوات عضلات راكدة ضامرة لقلة الاستخدام، تتمزق أنسجتها ، فتصدر طرقعة خفيفة تصطك لها ضروسى فى نشوة جنونية مرتعشة. همسات الاستسلام مصحوبة بأنفاس لاهثة متلاحقة..والموازين حساسة معقدة التكوين ، لاتعطى جميعها نفس الدلالات.

وتابعت طريقى الى سلوى..

لماذا ستستسلمين لى؟.."أمتأكد أنت من ذلك؟". أتستهوينك فحولتى الطاغية الى هذا الحد؟. أتسمح لى الأقدار أن امارس فنون العشق الملتهب مع أرملة أخرى ثرية فى ريعان شبابها بإيحاء من رغبتها وترغيبها على فراش ملون ناعم ساحر الليونة والطراوة؟.. الأرملة الأولى كانت فى الأربعينات. سلوى فى نهاية العشرينات. صدقينى اننى أود أن أبادل أفكارك الحب. أمارسه معها. أعانقها وأرتخى فى جوارها على ذلك الفراش بعد انتهاء الحوار ، مثلما أود أن أحتوى جسدك الرقيق بين ذراعى. أقبل عينيك العسليتين. أتحسس وجنتيك الثائرتين. تتسلل أناملى فى رفق بين خصلات شعرك الأسود الفاحم. أهمس فى أذنيك بكلمات عن الحب والحياة.

أستمد شهيقى من زفيرك وتستمدين شهيقك من زفيرى. نسكر من شهد رضابنا فنفنى فى عالم أثيرى حالم. تصمتين ولا تتكلمين ، فلست أرغب الآن فى سماع كلمات ، لكنى أرغب فى التهام أحاسيس واحتواء مشاعر وتفاعل انفعالات. أرغب فى اندماج نهائى أغيب فيه معك عن العالم بكل ما يحتويه من مخاليق. أغيب وأغيب. ثم أفيق وأناملى تتحسس أظافر قدميك اللذيذة. تتحسس الكعبين المستديرين فى شموخ، ثم ألقى برأسى على صدرك لأغيب مرة أخرى وقد أسكرنى عطره الفواح وأشبعنى عطاؤه المخلد.

معذرة يا سيد يا طلبة يا أبى. ما كان ينبغى أن أطرق بابك فى تلك الليلة فأكدر صفوك وأعكر مزاجك. من يسكنون تحت الأرض يعرفون لذتها أضعاف مايعرفها من يسكنون فوقها ، فجذور اللذة مرتبطة بالأرض، وهم فى باطنها. الطين. الانسان!!!

" كن حذرا من اللعبة. لاتنس من أنت ومن هم، وأن هناك خداع متبادل، والصدق غائب عند الجانبين.

- **أوحشتنى بحق يا احمد**
- **ما عدت مفاجأة الا لأحظى بهذه الخلوة**

ضغطت على زر جهاز. انبعثت موسيقا حالمة محلقة.

- **ترقص؟**
- **لنحتفل معا بتحطيم كل الحواجز**

تعزف الموسيقا على أوتار قلبى المتأجج. رداؤها الوردى الرقيق يهفهف فى هارمنية متناسقة مع اللحن المنساب كالحلم بين أرجاء الغرفة.

- **أين حسين بك؟**
- **فى القاهرة مع مامى**
- **ومتى يعود؟**
- **بعد ثلاثة أيام**
- **كيف تسير حياتك بعد أن أصبحت وحيدة؟**
- **يمكنك القول اننى أعيش والسلام**
- **أما أنا فينقصنى سلام النفس فى غيابك**
- **حدثنى قلبى بقرب قدومك**
- **وما غابت صورتك عن عينى**
- **أخاف من عينيك**
- **أنت لاتعرفين الخوف**

حلم لم يكتمل. أفقت من غيبوبة القبلة الساخنة على أحضان أبى بمقهى البوابة.

- **لم تبكى يا أبى؟**
- **أهانونى فى غيابك**
- **من هم؟**
- **الكلاب الذين أخشى أن تصبح واحدا منهم مع الأيام**
- **خبرنى بما حدث**

****

● **<u>سلوى حســـين</u>:**

كان لدينا حفل استقبال ضخم بالفيلا على شرف مسئول كبير جدا بالحكومة. فوجئنا جميعا برجل عجوز يرتدى زيا شعبيا بسيطا ويضع لاثة عريضة على كتفيه. كان يصطحب معه امرأة جميلة ذات جاذبية غير عادية ملتفة فى ملاءة سكندرية سوداء وعلى فمها ابتسامة طفولية ساذجة. كان الذهول باديا على وجهيهما وهما فى مواجهة عالم مختلف يجهلانه تماما. لما أفصحا للبهوات عن هويتهما لم يصدقهما أحد، وعلى رأسهم أبى الذى لم يكن يتصور أبدا أن يكون

هذا الرجل البدائى هو أبو أحمد، وأن المرأة الملتفة بالملاءة السكندرية الشهيرة هى من ستكون زوجته مرمارة.

وقفا وسط الموائد وباقات الورد وزجاجات الويسكى، وقد اقتحما المكان فى جرأة نادرة وبساطة وحسن نية أكثر ندرة. جاءا يسألان عن احمد السيد. اكتشف السادة الكبار مادة للدعابة والسخرية لمجلسهم، ازدادت حمية بفعل الخمر والاستعلاء.

- انا جئت لأسأل عن ابنى. اختفى ولم نعد نراه فى البوابة

سارعت بإنقاذ الموقف بأن طيبت خاطر الرجل. لم أعبأ بالمرأة ، وهى الأخرى تجاهلتنى بخبرة امرأة تتقن كيد النساء.

قدر الرجل موقفى بامتنان رغم استيائه الشديد مما حدث. لهفته كانت بالغة على ابنه:

- أحمد لم يعد يبيت معى منذ أكثر من شهر
- أعتقد انه يعيش الآن فى شقته الجديدة
- شقته الجديدة؟..ولا أعلم؟!!
- أكتب لك عنوانها حالا
- لا.. لا أريده

وانصرف غاضبا بصحبة رفيقته

****

● أحمد طلبه:

قلت لأبـــى:

- سأمحو من ذاكرتك هذا المشهد خلال أيام قليلة

مال على بهدوء وقال بنبرة فيها رجاء :

- ابنته انسانة طيبة. أرجو ألا تمسها بسوء

سبق أن اعتقدت أن فى هذه المرأة شيئا منا. هه؟!..والوثائق والمستندات؟..لكم دينكم ولى دين.مدانة هى بالقطع ، فهى شريكة فعلية فى جرائم أبيها سارق مال الشعب."ألست مدانا أنت الآخر وقد سرقت مال أبيها؟"..احذر فالمال دينهم، والاستغلال نبيهم المرسل. لن تستطيع ان تكسر شوكة حسين فتحى الا حين تنام سلوى وتلين عظامها وتستكين بين فتوة أحضانك. أما زلت تحبها؟..والملايين المسروقة من تعساء بحرى والبوابة؟..

****

أدركت ماجدة بفطرتها أنها لم تعد لى. أصبحت طوع بنان خالد. لكنى أعرف مفاتيحها التى تكشف لى عن مغاليق فكرها واحساسها وجسدها. بمجهود قليل تمكنت من اغرائها واثارة جنونها الجنسى.فاجاتنى بالقول:

- أنت لم تعد تحبنى. أنت تشتهينى فقط

أصبحت متمرسا على الخداع بعد استسلامى لأعدائى وأعداء قومى. قلت لها:

- سنتزوج
- أحـّه. كفاك خداعا. لن تنالنى بعد اليوم.. أنسيت المرة الماضية؟

قبيل سفرى بأيام كادت تقع الكارثة كما يراها المجتمع. صرخة محذرة هى التى اوقفتنى عن إتمام الفعل، ونبهتنى الى مجهولية مستقبلها معى. هاهى تعاليم خالد الحنفى العزيزى تؤتى بنتائجها فتفسد على متعتى. ما من شك فى أن هذا المثالى المأفون سيعيد تشكيل عقلها ووجدانها طبقا لمفاهيمه الخاصة عن الحب والحياة. سوف تستجيب له بلا شك. أنا أرحب بذلك، فأعظم ظنى أن الطريق الذى جمعنى بها ، والذى بدأ بقراءة الفاتحة بين اثنين من المساطيل، قد بدأ يتحول الى طريقين ينبثقان فى البداية من نبع واحد، ثم يتفرعان بعد ذلك الى طريقين متوازيين أبدا لا يلتقيان.

قبلت يا خالد أن تضع الحمل على كاهلك. التركة ثقيلة. اذهب الى حظيرة "غواصة" وتشمم مع رائحة الخيل ومخلفاتها رائحة البلد من بعد حروب ثلاثة متعاقبة خلال سبعة عشر عاما.

فتش فى رئتيك وفى معدة ماجدة وفى قلب السيد طلبة وفى غريزتى الحيوانية. فتش فى عقلى وفى معدتك وفى قلب ماجده وفى غريزة السيد طلبه. استمر فى لعبة التباديل والتوافيق. أنا واثق أنك ستنتهى الى نتائج خطيرة. هنيئا لك بماجدة التى لم تكن فى الماضى تبالى بمؤخرتها التى مازالت تهز الحارة هزا.

****

●سلوى حسين:

مازلت اعانى من الشعور بالذنب منذ حادث التصادم البشع. المؤكد أنه كان يقود عربته بسرعة شديدة دون وعى ، وأنا السبب. كان قد سألنى باهتمام شديد فاجأنى:

- سلوى. هل تحبيننى؟
- مامعنى هذا السؤال؟
- معناه واضح
- ولماذا خطر على بالك الآن أن تسأله؟
- لأننى بدأت أيأس منك
- كيف؟
- لاتظنى أننى انسان غر ساذج. أنا فقط رجل طيب. لكنك تخلطين بين الأمرين
- ماذا تقصد؟
- أقصد أن قلبك ليس معى ، وحتى جسدك تعطينه لى بالكاد لمجرد تأدية واجبك
- أنا لاأسمح لك بهذه الإهانة
- لايهم أن تسمحى أو لاتسمحى. أنا بدأت أكرهك
- ماذا تقول؟ هل جننت؟
- بالعكس لقد استعدت عقلى

خرج مسرعا وأغلق الباب خلفه فى عنف. كان على موعد عمل مع محمد استعدادا للسفر معا. عندما ذهبت الى أبى أشكو له من فريد، تجاهل الأمر كلية وكأنه لايعنيه فى شىء ، وحول مجرى الحديث بافتعال واضح الى أحمد السيد. قال:

- الولد أحمد ولد ممتاز. أنت لاتقعين الا واقفة ولا تسقطين الا على هدفك. أنت أقصيتيه عن شركته وأنا عرفت كيف أفيد من طاقته العبقرية فى خدمتى

آه لو يعلم أحمد كم يقدره أبى.. هذا الشاب القوى الطموح الذى لايعرف الهدوء أو الراحة. أعشق قلقه وتوتره والكهرباء الزائدة فى مخه الذى لايتوقف عن التفكير. ملىء هو بشحنات متفجرة من الأفكار والانفعالات. ما بيننا من علاقة شىء غير مفهوم ولا واضح حتى الآن. لم أستطع أن أصل فيه الى نتيجة أو يقين.

****

●أحمد طلبه:

- أين أبى ؟
- ذهب الى المأذون ليعقد على مرمارة

أتخبط كسمانة دائخة. كيف أفكر فى مصاهرة حسين فتحى وأسلط – فى الوقت ذاته – بعض الصعاليك ليحرقوا له مصنعه؟.. كيف انحدرت الى هذا الدرك المنحط من الحضيض ، وماذا أبقيت للجهلاء الذين أسخر منهم وأتعالى عليهم؟.. هل أنتقم لأبى وأنا من تجاهلته هو وأهلى وناسى منذ انسلاخى من البوابة؟.. هل أنتقم لصعاليك الأنفوشى والسيالة والموازينى وزاوية الاعرج من الرأسمالى اللص؟..

لا أعرف..

اللعنة على هذه الأقراص المخدرة التى لحست عقلى ودفعتنى الى هذه الجريمة البشعة التى يمكن أن تكون سببا فى أن أخسر كل شىء ابتداء من سلوى وانتهاء بوظيفتى.. وأخيرا حريتى التى ستقيد بالطبع بين جدران زنزانة حقيرة.

- المعلم حودة..الحاج حودة؟؟؟
- لا أعرف . لم أره منذ الأمس
- أين أجده؟؟
- لم يقل

هناك حلقة مفقودة كتلك التى يبحثون عنها فى علم الوراثة هى التى أوقعنى فى هذا التخبط. كيف حططت بنفسى فى هذه المصيبة ولماذا ، وأنا من كنت أعيب على أبى جرما أقل خطورة؟.. يجب أن أمنع وقوع الكارثة أولا ، ثم أعاود التفكير من جديد فى من أكون وأين يقع مركز الفساد والتلوث والمرض فى رأسى.

- أين الرجال ياغواصة؟؟
- قالوا انهم مسافرون
- من بقى منهم هنا؟؟
- لايوجد فى الاسطبل الا هذا الحصان المريض وأنا

لم يبق الا اثنين. أحدهما يسكن فى كوم الناضورة والثانى فى سيدى العدوى. قال الأول:

- خيرا فعلت. الطيب أحسن ياسعادة البيه

اصطحبنى الى زقاق تفوح رائحته بالعطن. نزل الركن الخطير من أركان المؤامرة. مساعد الحاج حودة وساعده الأيمن. عندما أبلغته بتراجعى نظر الى فى اشمئزاز شديد وقال بقرف:

- جرى ايه يابيه؟..رجعنا فى كلامنا والا ايه؟
- اعمل معروف.. الحقنى. الوقت ليس فى صالحى
- هو كلام عيال والا ايه؟.أيووووه ياجدعان.مدد يامرسى يابو العباس
- أبوس يدك الحقنى
- خلاص . ماشى.. لكن ما اتفقنا عليه شغال
- شغال وزيادة . لاتقلق

وهكذا ساندتنى العناية الالهية ولم تقع الكارثة. أكثر مرة تذكرت فيها الله وحمدته هى هذه المرة. ربما كانت الأولى أيضا فى حياتى.

تنفست الصعداء وحانت لحظة المواجهة مع نفسى المكدودة المهزومة. لم كل هذا الحقد؟. كلهم أعطوك الكثير. أهلك وحسين فتحى. عد الى روحك. عد الى الله. اذكره ولو مرة واحدة فى السنة. ألم تتأثر بالقرآن الذى تعلمته فى صغرك؟. ألا تتذكر تلاوة الشيخ رزق التى كانت تبهرك وتسحرك؟. ألا تصلى؟. ألا تزكى؟. ألا تتصدق؟.الى من تنظر وحول من تتمحورغير احمد السيد طلبة؟.

طريق العودة طريق صعب...

بالمخاطر محفوف. كيف أنسى المخلاة المصنوعة من العبك؟.أحملها قاصدا عم على بائع المكرونة الكسر قبل سنوات وسنوات من سؤاله عن مغزى فقد ابنه فى بلاد اليمن البعيدة. طفلا كنت أخشى واجهة المحلات الأنيقة المنمقة. لا أقدم على شراء احتياجات البيت الا من العربات الجوالة أو الأكشاك القديمة. عم على يبيع مكرونته بأربعة قروش للأقة. فى الدكاكين تباع بسبعة، وهذا بعيد عن طاقة الاحتمال.

طريق العودة طريق مؤلم. مزروع بالصبار..

الشوك يدمى الأيادى.قال لى ناظر مدرسة أبى شوشة الأولية لتحفيظ القرآن:

- لاتعد الى المدرسة قبل أن يشترى لك أبوك طربوشا

نقلت الرسالة الى أبى فمنحنى شخرة سكندرية منغمة أعقبها بأحّة غليظة ثم بضحكة ساخرة ، مع سب حضرة الناظر وأم حضرة الناظر، وطلب منى إبلاغه بذلك. ذهبت الى المدرسة بلا طربوش وكل الصبية يرتدون طرابيشهم. انتقانى الناظر من بينهم. أشار لى بسبابته فى احتقار الى الباب. طردت على الملأ منكسا رأسى فى حزن عميق.

آه منك أيها الطريق الوعرة...

مرارة العلقم لها طعم الشهد اذا ماقيست بطعم أيامك الغبراء..
فى مرحلة الدراسة الثانوية كان الاحساس بالألم أكثر قسوة وعنفا، وقد أنضجت سنوات الصبا من مرارته.
- من لم يحضر معه المصروفات يرفع يده
وأكون أول الرافعين..
- معك شهادة فقر؟
ستلازمنى مهانة السؤال حتى القبر ، رغم أنى حصلت على الثانوية والبكالوريوس. لكن ماذا بعد؟.. أعتقد أنه لامبرر لكل هذه اللعنات التى صببتها على طريق العودة ، فلولا صعوبته ومرارته لما واصلته بتصميم وعناد. الأمر المنطقى أن أتفاءل بالمستقبل بعد ذلك ،وأتفاخر بأنى خالقه من عدم.
ألقيت ببقية الأقراص الفضية فى القمامة وتوجهت الى المتحف البطلمى برأس التين. لم أجد أبى.لاشك أنه غاضب منى منذ علم أننى أمتلك شقة خاصة فى الرمل ولم أخبره. بحثت عنه فى كل الأماكن التى يرتادها.عثرت عليه فى المسجد. كان يصلى على غير عادته بخشوع شديد. جلست من خلفه وانتظرته حتى أنهى صلاته.
- حرما ياعم الحاج
- جمعا يابنى ان شاء الله
لم أستطع إخفاء دهشتى وسخريتى.
- ربنا يجعلنا من بركاتك ياسيد يا طلبة
فاجأنى برده الجاف:
- اتكل على الله . شوف مصلحتك. انت فى حالك وانا فى حالى
كان غضبه منى شديدا. ظللت أعتذر له وأحايله بكل السبل حتى يرد على كلامى ، لكنه التزم الصمت، وهو يرمينى بنظرات ساخطة ، كما لو كنت عدوا له. عندما تحول رجائى الى مايشبه التوسل مع تقبيل يديه وكتفه ، تخلى عن غضبه وانقلب فجأة عائدا الى أبى الحنون الذى عرفته طول عمرى. احتضننى بشدة ، رغم أنه لم يستطع اخفاء دهشته من قلة أصلى على حد تعبيره. منعه كبرياؤه من عتابى على انسلاخى واختفائى ولو بكلمة صريحة واحدة. اكتفى بغسيلى بعينين حزينتين لائمتين.
- هل صحيح ماسمعته يابا؟
- سمعت ايه؟
- حكاية مرمارة!
بحسم واضح تجاهل رأيى تماما ووضعنى أمام أمر لا جدال فيه. كان يظن اننى سأعترض على هذه الزيجة
- فرحى عليها بكره ان شاء الله
لم يكن أمامى الا أن أهنئه ، كما لم يكن لدى أى اعتراض على حقه فى ممارسة حياته كما يريد.
- ألف مبروك يا والدى
فى البياصة الكبيرة بالأنفوشى رشت الرمال ورصت المقاعد ، وجىء بفرقة موسيقا حسب الله الشهيرة، ودارت الجوزة وزجاجات البيرة بين المعازيم.وانطلقت الأغانى ولعلعت فى المنطقة بفعل الميكروفونات العديدة التى تم تركيبها على أسطح كل البيوت المحيطة بالبياصة.

اقروا الفاتحة لابو العباس/ يا اسكندرية يا أجدع ناس
والفاتحة التانية لابو الدردار/ واللى يعادينا يولع نار
والفاتحة الثالثة لسيدى ياقوت/ واللى يعادينا يطق يموت
والفاتحة الرابعة لسيدى بشر / واللى يعادينا يلم القشر يلم القشر
والفاتحة الخامسه لسيدى جابر/ واسكندرية بلد الاكابر بلد الاكابر
والفاتحة السادسة مانعرفهاش/ واللى عارفها مايقولهاش مايقولهاش

والفاتحة السابعة برضومانعرفهاش/ واللى عارفها برضو مايقولهاش
وصلى صلى ..صلى ..على النبى صلى ..صلى
واللى مايصلى ..صلى
أمه يهوديه ..صلى
وأبوه أرمنى ...صلى
والفرخة واقفة/ على الجدار
والديك قاطرها /على الجدار
واحنا شايفينه /على الجدار
ومطنشينه/على الجدار

جلس العريس بجوارالعروسة فى حنطور مزين بالورود . كشابين صغيرين كانا مبتهجين يصفقان على رقص "سيد حلال عليه" بمطواته الشهيرة، وعلى رقص" سعيد مباحث" بالكرسى المثبت بين فكيه. أجمل رقصة أعجبتنى كانت رقصة أبى بالعصا . أبدع فى الرقص حتى أغوانى بمشاركته فقمت من فورى الى الحلبة ولم أتوقف عن الرقص ، حتى بعد أن توقف أبى. كنت بحاجة ماسة الى تفريغ كل ما بنفسى من انفعالات وقلق وتوتر وخوف من المجهول. وجدتها فرصة لاتعوض. كان حماسى فى الرقص هستيريا أثار دهشة أبى وصحبه. بدأت أعرق وأنهج ، حتى سحبنى أبى وأجلسنى بين أصدقائه كيما أستريح.

كان لابد من بعد ذلك أن تسير الزفة على الكورنيش حتى تزور العروس احدى المناطق الاثرية ويؤخذ لها الصور التذكارية فى منطقة السلسلة أو القلعة أو الكورنيش أو سيدى المرسى أبو العباس.

اختلفت آراء أصدقاء العريس حول أولوية المكان الذى ينبغى التوجه اليه. فى تلك الأثناء اقتحم حودة تمنتاشر الفرح وهو مخمور. جاء ينفذ تهديده ، وبالفعل أطلق الرصاص على أبى وسط ذهول الجميع، وسارع بالفرار. جاءت الرصاصة فى كتف أبى ، فكانت الاصابة بسيطة.

أمام وكيل النيابة أنكر أبى أن حودة هو الذى أطلق عليه النار. قال انها رصاصة مجاملة طائشة من بندقية أحد المعازيم أثناء مشاركته الاحتفال بالزفاف.

****

هاجمتنى سلوى بقسوة:

- **الى متى تظل خائفا مترددا معدوم الثقة بالنفس؟**
- **ماهو المطلوب منى؟**
- **اطلبنى من أبى**
- **وإن خذلنى ورفض؟**
- **اطمئن. لن أسمح له بالرفض!**

فى الصالون الفخم أتانى حسين فتحى متعاظما كعادته ، والسيجار فى فمه. كانت سلوى قد أفهمتنى أنها ستمهد لى الطريق . لكنى لم أكن أعرف – حتى لحظة حضورى – أنه رفضنى رفضا قاطعا. لست أعرف لماذا لم تخبرنى سلوى بذلك قبل أن أحضر. ربما انتظرت من أبيها أن يغير رأيه حين أتقدم لها رسميا. قال لها بهدوء:

- **تعالى هنا ياسلوى لتسمعى بأذنيك ما سأقول**

راح يذبحنى بسكين بارد وهو فى ذروة السعادة. وجه حديثه الى:

- **يابنى أنا لايمكن أن أتهمك بالجنون فأنت عاقل وشديد الذكاء. لكن كيف جرؤت على التفكير فى مصاهرتى؟. ألا تعرف من أنت ، وابن من أنت. أنا رأيت أباك، فهل أمكنك للحظة تصور أن يكون هذا الرجل نسيبى الذى أصافحه وأقرأ معه الفاتحة ، لتصبح ثروتى بين يدى ابنه الذى يعمل أجيرا عندى ، ولولاى لظل حبيس الحوارى والأزقة ومصنع الكساء الشعبى والأفكار البالية ومشاعر الحقد والرغبة فى الانتقام من الأغنياء؟..**

طعناته قتلتنى.حاولت أن أقول لـه أننـى وسـلوى متحابـان ومتفقـان علـى الـزواج ، لكنـى لـم أستطع. لم أجرؤ. تحولت الى خرقة بالية. لكن سلوى انفجرت ثائرة بصوت جريح:

- كفى يا أبى..كفى

ثم انهارت باكية، واندفعت خارجة من الصالون. أما أنا فانصرفت فى هدوء أجر أذيـال خيبتـى وتخاذلى وحسرتى وندمى.

****

نحن أناس قد اعتدنا الحرمان بجدارة. لم يعد إحساسنا به يشكل رصيدا إضافيا علـى مخـزون همومنا وآلامنا.."مع الشكر"..

- أنا أحمد السيد طلبة. كيمائى سابق بشركة النصر للكساء الشعبى
- أى خدمة؟
- لدى أقوال ومستندات هامة أرغب فى تقديمها اليكم تتعلق بنهب أموال الدولة

ليتنى تركتهم يحرقون مصنعه!

ابتداء من السيد طلبة وطيطة ومصطفى سبرتو وخميس فلفـل وألمـاظ وابـو جلامبـو وحـودة تمنتاشـر وراغـب الكـك و..و.. وانتهـاء بأعضـاء الاتحـاد الاشـتراكى الأفاضـل. اسـمحوا لـى أن أخطب فيكم مـن منبـر أم الشـحات المسـتقل. منبـر الخـلاص والمـلاذ. أعـرف أن الخطـب فقـدت تأثيرها فى هذا الزمان. إذن فلأجتر أفكارى مع نفسى ، ولاداعى للخطب.

طالما نصحنى الشيخ عبد القوى – وهو حى يرزق – بمداومة الصلاة. مازلت عاجزا عن ذلك حتى اليوم. أيها الناس أنا لا أساوى شيئا بـدونكم. أحـبكم رغـم أننـى أكرهكم.هـأنتم تتهامسـون بجبن وعفونة فى أروقة المصنع وكأن الأمر يحدث فى مكان آخر و لايعنيكم فى كثير أو قليل:

- النيابة تحقق مع مدير عام الشركة
- مدام سلوى موقوفة عن العمل
- يقولون انها ستفصل
- وايه يعنى؟..هل هذا يهمها فى شىء؟
- المدير التجارى خلاص. راح فى داهية
- يقولون انهم وجدوا فى بيته نصف مليون جنيه
- أس الفساد هو حسين فتحى ..منه لله
- أكيد سيطلع منها مثل الشعرة من العجينة
- الله يخرب بيوتهم كلهم ويخلصنا منهم على خير

****

●<u>سلوى حســـين:</u>

زعقت عن عمد فى وجه أحمد السيد:

- هل نويت أخيرا أن تكون رجلا أم مازلت خائفا مترددا؟!
- ماذا تقصدين بعد كل ماحدث؟
- تذهب معى الآن الى المأذون
- معقول!..وأبوك؟!
- لا شأن لك بـه..هاه..قلت ايه؟!

●<u>أحمد طلبه:</u>

وكأن نصف عمرى قـد ارتـد الىّ.هـاهى أمنيتـى تتحقـق. مهمـا كـان مـن أمـرى وأمـر نوايـاى تجاهكم أيها ال... فسوف لا أتراجع. لن أتردد للمرة الأولى فى حياتى.

تزوجنا فى الشقة التى أعطانيها أبوها ، وركبنا العربة التى أعطانيها أبوها. ونمت مع سلوى رغما عن أبيها. رغم ذلك فما زلت أسيرا له. لا أستطيع أن أكون نظيـرا أو أميـرا حسـب مقولـة سيدنا على. أنا فى الحقيقة أسير فقط.

لم يدم أسرى طويلا ، فبعد أيام معدودة من زواجنا طردنى حسين من الشركة والشقة وسحب منى العربة. لم تتراجع سلوى عن تحديها لأبيها بل ازدادت عنادا له وظلت بجانبى. لم يبق الا أنا وهى والبوابة وأبى الذى كنت قد هجرته من قبل لمجرد توهمى أننى ارتقيت سلما أو سلمين فى درج الارتقاء الطبقى. سألتها:

- هل نستأجر شقة مفروشة أم نذهب عند أبى فى البوابة؟

قالت بشهامة نادرة خجلت لها:

- لا يهمنى الا أن نبقى معا فتكون سندا قويا لى ولاتهتز

البحر مرة أخرى بلا عقاقير. ميدان محطة الرمل، وتمثال سعد زغلول يقف موليا ظهره للاسكندرية متجها ببصره الى البحر الأبيض المتوسط. يبدو الكورنيش ممتدا من رأس التين الى السلسلة فى شكل قوس كبير يحتضن مياه البحر الزرقاء. على البعد فى مواجهة الشاطىء تظهر بيوت اسكندرية القديمة تتوسطها فى الشرق مئذنة"المرسى أبو العباس" شامخة فى جلال. رجلان فقط أبوح لهما بسرى ولو لمجرد البوح فقط ، فلن يستطيع أحدهما أن يفعل لى شيئا. السيد طلبة وخالد الحنفي العزيزى.

أمضيت مايقرب من الساعة بين مشى وتوقف وتأمل حتى وصلت الى ميدان أبى العباس. صورة سلوى لاتفارقنى وأنا لا أعرف مصيرها بعد أن طردنا زبانية حسين فتحى وفتواته من الشقة بملابسنا. قالت إنها ستذهب الى أبيها فى محاولة مستميتة لاثنائه عن عزمه بالفصل بيننا ، لكنها لم تعد. لاتدرى سلوى – وربما لا أدرى أنا الآخر – أننى أحبها ولكنى أريد أن أنتقم من أبيها بكل ما أوتيت من ارادة وعزيمة وغل.

انحرفت يمينا ثم الى أقصى يسار الساحة التى يتوسطها مقام"السبعة حكماء" فى طريقى الى منزل خالد.أموت وأعرف ماقيمة الزمن عند هؤلاء القوم الجالسين حول الساحة وعلى أطرافها. يأكلون الخبز الجاف والذرة المشوى ويشربون الشاى الأسود ويدخنون المعسل. المذهل أن هؤلاء الناس فى مجموعهم يوحون الى بالهدوء والاستقرار وسكينة البال. برسوخ الأيام والأزمنة. أشعر بطمأنينة غريبة لرؤياهم فى جلوسهم المتكاسل على الدكك والكراسى المهشمة والأرصفة المتهالكة المتآكلة التى يحتلها بائعو البخور والسبح والطواقى ومعدات الصيد ولوازم المطابخ الفقيرة والقلل والطواجن والأوانى الفخارية. يشربون من الأزيار والقلل الموضوعة أمام الأضرحة ماء محلى بماء الورد. تشاركهم فى مجالسهم نسوة يرتدين البياض من قماش العبك الرخيص. يكحلن أعينهن بكحل ثقيل ويرسلن الى الغادى والرائح بنظرات جوفاء خالية من المعنى.

على الطوار يجلس بعض المتسولين مستندين بظهورهم الى الحائط. أمام بعضهم صناديق صغيرة قديمة تحوى علبا من الكبريت وأكياس من إبر وطرابيش لمواقد الكيروسين العتيقة وبعض أعواد البخور من أصناف مختلفة. هم نيام فى جلستهم وقد أعطوا ظهورهم للدنيا عن رضا وقناعة. لفت نظرى واحد منهم يجلس القرفصاء محتضنا ركبتيه بذراعيه.وجهه للحائط. ظهره للطريق. ثابت فى انحناءته لايتحرك كمحترفى اليوجا. اقتربت منه متفحصا وجهه المتوارى بين يديه.عرفت فيه"راغب الككّ". آه يازمن. تذكرت ما كان يحكى فى البوابة عن أيام سطوته وجبروته حين أثرى من الاتجار فى عربات الجيش الانجليزى المسروقة من معسكراتهم خلال الحرب العالمية الثانية. تاجر أيضا فى الزيتون وفى ختام سيرته اتجر فى النساء. استبد بجيرانه وأصدقائه وارتكب عدة جنايات أودت به الى السجن لسنوات طويلة. خرج منه بلا مأوى ولا رفيق.

- كيف حالك ياعم راغب؟

قذفنى بنظرة عدوانية متوجسة وسألنى:

- ايه يا أخينا!! تعرفنى؟
- ومن لايعرفك يا عم راغب
- ابن من أنت؟

- أنا ابن السيد طلبة النجار
- لا أذكره. عاوز ايه؟
- أنا الذى أسألك. عاوز ايه؟

اعتدل فى مجلسه و نظر الى متفحصا معالم وجهى وملابسى فى فضول شديد، ثم بدا عليه التراجع عن أسلوبه الهجومى فقال:

- هات سيجارة

أشعلت له سيجارة وأخرى لى. جلست أرقب مشهد المولد الذى تصادف أن بدىء فى الاعداد له. لعله كان مولد أحد الحكماء السبعة الذين لم أكن أعرف أسماءهم من قبل، بينما يعرفهم كل أبناء بحرى.

- تأكل معى ياعم راغب؟
- معك أكل؟
- نحضر ما تريد. أطلب
- آكل كفتة

على الفور بدأت حلقة الذكر. دائرة تشمل الرجال والنساء والأطفال يتمايلون يمينا ويسارا وهم يزومون بكلمات تتخللها"الله"..."الله"". يتبادلون فيما بينهم كلمات عاجلة هامسة حين تلتقى وجوههم خلال الذكر. المنشد يمسك بمسبحة فى يده. ينشد فى لذة قوامها الخبرة والتجلى والايمان الشديد بصحة ما يقول . من حوله بعض السنيدة يرددون وراءه الشطر الثانى المكرر:

كان النبى فى لذيذ النوم/ آها آها
نزلت دموع الصدّيق عوم/ آها آها
قال له مالك ياصديق/ آها آها
شايفك بتبكى حصل لك ضيق/ الله هالله
قا له ثعبان فى الوكر عتيق / قرصنى يارسول الله
آها آها آها آها آه

اقتربت من عربة الكفتة. يقف صاحبها بعين واحدة والأخرى عليها عصابة سوداء. يمتص دخان سيجارته بشغف وشراهة. يمسك بمروحة من ريش الدجاج يهوّى بها على الفحم المشتعل فتتصاعد الأبخرة محملة برائحة الشواء والبهارات. كانت أصابع الكفتة التى تكسو الأسياخ الحديدية داكنة اللون مشكوك فى أمر مصدرها الحقيقى الذى قيل مرة انه الكلاب ومرة الحمير. لكن الحق أن طعمها كان شهيا للغاية. الذباب يتهافت حول برميل الطرشى وقروانة السلطة. لاتقلق يا عم راغب من وحدتك. قريبا يلحق بك الحاج حودة ، فالمصير واحد. ستكوّنان ثنائيا مأساويا رائعا.

ويواصل زعيم الحلقة إنشاده:

صلاة الله على المختار/ لنور الله هادينا
شربنا من الكأس لنسقى/ وساقى الحى ساقينا

دعوت عجوزا كان يجلس بجوار راغب.

- تفضل معنا يابا الحاج

قفز منضما الينا قبل أن أكمل جملتى. فاقت شراهته كل تصوراتى لمعنى الجوع المصحوب بالتشرد الذى أشاركه اياه الآن. ازداد التنافس بينه وبين راغب عندما اقتربت من المائدة امرأة عرجاء تلف رأسها بعصابة بيضاء، فشاركتهما الطعام دون أن يدعوها أحد. أكلت معهم لقمتين او ثلاث بلا تكلف ، حتى بدأ راغب يأنس الىّ ويتخلى عن تحفظه واستنفاره. انفردت به أسأله عن أسباب ما آل عليه حاله:

- الفلوس يابنى هى السبب
- كيف ياعم راغب؟
- الواحد منا نفسه وحشة. أول ما ربنا يعطيه يتغير ويفترى على الخلق

- أى واحد؟
- أى بنى آدم حتى لو كان أبوه من أولياء الله
- لكن أصابع اليد ليست متشابهة
- هذا الكلام صحيح لما يكون ما فى حيلتك حاجة. لكن وانت غنى تبقى أصابعك العشرة كلها شبه بعضها. يعنى تنسى ربك ولاتفكر فيه.لا تفكر الا فى نفسك. انت الاله وأنت الكل فى الكل. وبقية المخاليق تكون ساعتها تحت أمرك ورهن اشارتك
- ياسلام!!
- والعجيب انك كلما أشقيتهم أكثر خافوك أكثر وكسبت أكثر وأكثر. حتى الحكومة ستعمل لك ألف حساب

كنت مستمتعا بحوارى مع هذا العجوز المخضرم وكأننى خال من الهموم. كأننى لست طريد الشركة والشقة والعربة والزوجة والحياة. وددت لو استمرت بيننا المناقشة لولا أن تكهرب الجو فجأة ولاح نذير كدر فى الأفق. تشتت شمل المولد وتفرقت حلقة الذكر. البعض يجرى مختفيا داخل المقام. البعض يمسك بالعصى والكراسى. الضرب يتناثر فى كل اتجاه ، ويزداد عند حاملى أعلام المتصوفة الخضراء ذوى الذقون.سبب المعركة غير معلوم لأحد. لكن المنشد يردد بمعزل عن الجميع:

يا رسول البرايا / ويا كنز العطايا
أنا مذ عرفتك / أحبك أحبك

عندما اقتربت من منزل خالد ، لمحت ماجده تغادر مسكنه ممسكة فى يدها بكتابين. لم تلحظنى ولم أجعلها ترانى.

جلست فى الغرفة المتواضعة أنتظر دخول خالد. طالعنى بوجهه الهادىء الملامح الذابل الوجنات. مسح بعينيه الثاقبتين أعماقى فى لحظة وهو يستقبلنى بابتسامة لاتبرأ من التفكير والتأمل الفضولى. ما من مرة ألتقى به وأنظر الى قامته المديدة ونظراته الثاقبة، الا وتعبر خيالى صورة جمل عملاق يسير فى صحراء قاحلة حاملا على ظهره أثقالا ينوء بها. تزوم من حوله الرياح وتزمجر العواصف، فيزوم هو الآخر مواصلا سيره فى صمت وصبر. لن أسهم فى تكرار تلك القصة السخيفة. الفقر. الغنى. عبادة الصنم. الانخلاع من الجذر.التحول السرطانى غير المرئى.الموت فى عداد الأحياء.الحياة فى عداد الموتى. إسكات البؤساء بالفتات.. يا أبناء البوابة كفوا عن التواكل واعملوا.. وقال خالد:

- هات ما عندك فقلبى يحدثنى بكثير تخفيه

راح يستمع فى صمت الى هلوساتى المحمومة، وأنا أحكى له ما حدث لى، وعيناه تتنقلان من حائط الى حائط ، وتثبتان أحيانا على الأرض.ألمح صرصورا أسود اللون باهت الحمرة يتلصص فى حذر على الحائط ذى الطلاء المشقق. بقع من رطوبة الشتاء مازالت تاركة بصماتها على الجدران. صورة باهتة لأمه معلقة على مسمار صدىء بارز. صورة أخرى لمجموعة من الصيادين يتقاسمون صيدهم أمام مركب ترسو على الشاطىء.

قال خالد:

- احترس فبراكين الحقد قد تدمرك قبل أن تدمر خصمك

دارت بيننا مناقشة غير مثمرة. انسان متجمد. لم لا أحقد على جلادينا أيها المتبلد؟ الجمبرى والاستاكوزا والفواكه البحرية والبرية التى تجهل أسماءها محرمة عليك. سنواتك فى التجنيد وأنت تنام فى الصحراء مع العقارب والذئاب أمضوها هم فى المتعة والسهر والموسيقا والخمر والنساء. متعتك الوحيدة هى التدخين. كم مرة قررت يامعلم الأجيال أن تقلع عنه متعللا بالحرص على صحتك بينما السبب الحقيقى هو الفقر والافلاس. ثم كم مرة عاودته بعد حصولك على بضعة قروش من الحصص الإضافية؟.. ميزانيتك الشهرية يعجز وزير الاقتصاد عن تخطيط متقن لانفاقها الصحيح. لم أنت متوقف عن الحركة؟. أنت تذكرنى بأبناء أبى جبل. بأحمد السيد طلبة القديم الذى أتمنى أن يكون قد مات ودفن.

****

● **سلوى حســـين:**

قال لى الطبيب:

- **صدمة عصبية شديدة قد تكون عاقبتها وخيمة اذا لم ينقل الى المستشفى على الفور.**

● **أحـــمد طلبه:**

شل الرجل عندما تزوجنا رغما عنه. اختنق الجبروت وتضاءل فصار صاحبه مرتبطا بالفراش الى أجل غير مسمى.."هذا الخطاب لايعتبر ارتباطا من جانبنا"..

●**ســـلوى حســـين:**

أحمد يتركنى لمصيرى ويذهب الى عشيرته فى البوابة.لم يدم زواجنا سوى يومين طردنا من بعدهما الى الشارع فلم أجد مكانا محترما يؤوينى غير بيت أبى الذى صار يشيح بوجهه عنى كلما اقتربت منه، لكنه لم يعد يستطيع أن يتكلم. ملامح وجهه الحزينة الغاضبة هى وحدها التى تعبر عن سخطه الشديد علىّ وعلى فعلت. أين انت يا أحمد؟. ألن تتغير أبدا؟!

● **أحـــمد طلبه:**

نهضت مسرعا للبحث عن العريس الجديد. ابتهاجه بمرمارة لم يؤثر على استمرار غضبه منى رغم ابدائه بعض التسامح تجاهى. حكيت له ما حدث. مصمص بشفتيه وقال:

- **تقرا زابورك لمين ياداوود؟..غلبتنى معك يابنى**

أحزنه تجاهلى له بعد التغير الذى حدث لحياتى والذى ظننت أنه سيضعنى فى مصاف السعداء. قال لى:

- **انتما لاتتفقان الا فى شىء واحد ، هو نسبكما الى آدم وحواء. دعها يابنى تذهب لحالها وابحث لنفسك عن طريق من جديد. لاتنس أنك أصبحت الآن يامولاى كما خلقتنى. توكل على الله وابدأ من جديد.**

انتقل أبى وزوجته الى بيت صغير فى الأنفوشى. لم يبق لى الا البوابة أعيش فيها الى أجل غير مسمى. لم تنس مرمارة أن تقوم بواجبها تجاهى ، فأعدت لى طعاما يكفينى عدة أيام قبل انصرافهما.

المفاجأة غير المنتظرة هى حضور حودة تمنتاشر لتحيتى بعد أن تصالح مع أبى عقب رفضه الوشاية به للشرطة بعد أن أطلق النار عليه. كان حودة قد تاب وأناب منذ عودته من الأراضى الحجازية. أصبح الآن متفرغا لادارة كشك ماجدة بعد أن التحقت للعمل بشركة الكساء وأصبح شريكا لها فى رأس المال.

لا أستطيع أن أنكر أننى أشفقت على سلوى مما تعانيه الان. فكرت أن ألقاها بعيدا عن أبيها. اتصلت بها هاتفيا:

- **أين أنت يا احمد؟!**
- **أنا فى البوابة**
- **ماذا تعمل هناك؟**
- **أعيش فى جذورى ومنبتى**
- **وأنا!!**
- **لا أعرف كيف نعيش معا بعد ما حدث**
- **كنت واثقة من تخاذلك. أنا التى أستحق كل ماحدث لى**

بالفراق تنبأت منذ البداية. لاجدوى من التمادى فى محاولة مكتوب عليها الفشل. قالت لى انه من المستحيل أن نفترق بعد أن مهد لنا القدر الطريق للحياة معا فى طمأنينة. قلت لها ان الزمن أقوى منا. آه لو خلقنا بلا عواطف. آدميتنا المخلوقة من التراب تحملنا وزرا لاطاقة لنا باحتماله. ذرات عظامنا وشعيرات أنسجتنا وأعصابنا بدقائقها المجهرية تتحكم فى انسانيتنا. لا تعبأ بعقولنا ولا بعواطفنا. تذهب بنا وتجىء. تصعد وتهبط. تفعل بنا ما تشاء كأنما لاوجود لنا.نقف مكتوفى الأيدى أمام مسميات لفظية تعارف الناس عليها. صامتين. تاركين الدفة فى

ذهول ليديرها لنا غيرنا وسط خضم متصارع من أمواج تلك المسميات. مهزلة ياسلوى أن تتحكم فينا كلمات ابتدعناها وكتبناها نحن، ثم صرنا أسرى لمدلولاتها السخيفة. بات من المستحيل أن تلتحم أفكارنا وعواطفنا وأجسادنا. مستحيل!

ها هى الأيام تكشف عنى وعنك النقاب ، لتضع كلا منا فى اتجاه معاكس لاتجاه الآخر. أنت حياة وأنا حياة مخالفة. أنت تكوين وأنا تكوين مناقض، وكما يقول أبى نحن لانتفق الا فى نسبنا المشترك لآدم وحواء.

امضى فى طريقك ياسلوى ، وهو معلوم..

ودعينى أمضى فى طريقى المجهول.. ولترعاك آلهة الحب رغم أنها فرقت بيننا الى الأبد.

وسط كراكيب عم السيد وأخشابه المتناثرة التى تركها فى فوضى بعد مغادرته البوابة، ألقيت بجسدى على كنبته المفضلة ورحت فى نوم عميق. أذكر أنه قال لى انه لن يفارق البوابة الا الى القبر. الكل يغير رأيه ومبدأه!

الاجهاد العصبى هو الذى جعلنى أستغرق فى النوم على عكس بقية المخاليق ، لأستيقظ فى حالة صفاء ذهنى وراحة نفسية مابعدها راحة، وكأن كوابيس الدنيا قد رفعت عن كاهلى المرهق. عموما فمسكنه الجديد لا يبعد كثيرا عن البوابة. من المؤكد أن لن يكف عن زيارتى لمجرد أن يعيش لحظات فى البوابة. يا الهى ماذا فعل هذا القبو العتيق بنا جميعا؟. خالد يصفع ماجدة بعنف على وجهها عندما حاولت اغراءه ليشبع نزواتها التى لاتنتهى. هى التى قالت لى ذلك وليس هو. أصحاب المناشر أصبحوا جميعا فى حال غير الحال. الدنيا كلها تغيرت بفعل هذا القبو العتيق. لا أستطيع أن أنكر أننى دمرت حياة انسان بلا طائل. أشك فى أن استمرار الحياة متوقف على ضربات انتقامية يكيلها البعض للآخر. وداعا يابنت حسين بك.لاتحتمل الحياة فى القرن العشرين حبا بلا أمل.

يا أهل البوابة. ياعشيرتى البائسة. لاتتهامسوا علىّ فقد عدت اليكم. لاتحقدوا على كما حقدت على حسين فتحى، فما أملكه الآن لا يستحق الحقد. سوف أعيش بينكم حتى لو لم أكن مضطرا. سأدفن نفسى حين أموت مع البطالمة فى أرض رأس التين ، لا فى أوروبا التى أبهرتنى وعشقت جمالها وتمنيت من قبل أن أعيش وأموت بها. أنتم تذكروننى دائما بقصة جحا وحماره، لكنى لن أحمل الحمار كى أرضيكم. ابحثوا معى عن مائدة خشبية كبيرة من صنع السيد طلبة النجار يجلس حولها خمسون مليونا ليبحثوا عن صيغة جديدة بعيدة عن القوانين والكلمات المصبوبة.صيغة محبة للإنسانية فحسب. كفوا عن الكلام واهجروا ثقافة اللفظ. اصنعوا أى شىء.

مازلت أخطب من منبر ام الشحات المستقل الذى لاهو يمين ولا يسار ولا وسط ، لكن لا أحد يسمعنى. حتى أنا لا أسمع نفسى. هل أكفر لو طلبت منكم أن تهدموا البوابة والقبو وتشيدوا صرحا جديدا ولو احتاج الأمر منكم أن تتحالفوا مع الشيطان؟...

يبدو أننى نمت أثناء الخطبة ، حتى أننى رأيت حمامة بيضاء تحوم من حولى وتقف على حافة الباب العلوية تبادلنى النظرات. رمقتنى فى خوف كطفل يستنجد بأمه من مكروه يوشك أن يقع به. ألقيت عليها بعينى تحية السلام الذى أفتقده. مالبثت أن خافت منى وطارت الى بعيد.

صور لى حلم يقظة عاجل –أثناء القائى الخطبة أيضا – سربا هائلا من نفس فصيلة تلك الحمامة يحوم حول القبو فى طمانينة كالحمام الذى يحوم حول الكعبة . يستقر بعضه على الأرض وبعضه على كتفى وفوق رأسى وبين قدمى.

فوجئت بأبى يدخل علىّ وحده وفى عينيه كلام كثير. قال انه لم يشعر بالراحة أو السعادة فى سكنه الجديد. رجانى أن أبادل معه السكن فآخذ أنا شقته ويعود هو الى قبوه. لم أتردد فى القبول ، فأنا أعرف مدى ارتباطه بالبوابة.

تم الاستبدال فى زمن قياسى ، وعاد سيد طلبة ومعه مرمارة الى عشقه الأبدى الكائن بالموازينى، المحروس بالقبو، الراسخ بالقدم والأصالة.

بعد عدة أيام شعرت بالحنين الى أبى والبوابة معا. أنا الآخر لم أحب المكان الجديد ، لست أعرف لماذا ، رغم موقعه القريب من البحر.

كان السكون مخيما على الحارة على غير المعتاد. انتفض قلبى وأنا أحنى قامتى لأعبر القبو الداخلى.."سامحنى يا احمد يابنى".. كنت أسمع صوت صخب شديد يعتمل فى نفسى كلما توجست من ذلك الصمت غير العادى. هبطت الدرجات المتكسرة. مرمارة غير موجودة. الباب نصف مفتوح أو نصف مغلق كما جرت العادة، فهو مفتوح حتى لو أقفل. الاثنان هنا سيان..وعبرت جدار الصمت الأبدى.

اكتظت الجنازة بالمعزين. جاءوا من شركة النصر ومن شركة حسين فتحى ومن الموازينى وزاوية الاعرج ورأس التين والأنفوشى والسيالة، ليشاركوا لأبناء البوابة فى عزاء أبى. فى الأيام الأخيرة كان متعلقا بقراءة القرآن. مات وبجواره مصحف مفتوح.

اخترقت الجنازة زاوية الاعرج بعرباتها وحوانيتها وزحامها متجهة الى مدافن العمود بكرموز. ووريت جثته التراب وبكيت فى ذهول من خارجى وداخلى. بكيت فى موته كل الماضى والحاضر.

****

هائم على وجهى تلفحنى نسمات البحر الرطيبة. خطواتى تتلاحق فى اصرار.الأمواج فى سباق أزلى. تشرق الشمس عليها ثم تغرب ثم تشرق ثم تغرب.أبدا لايتوقف السباق والتكرار. لعبة عتيقة لاجدوى منها. ما الفائدة إذن؟. لم هذا الجهد الخرافى والسعى المجهد مادام القرص سيسقط فى البحر فى النهاية؟.. لم هذه العجلة الملتهبة وصراع البشر الأشد عنفا من صراع الأمواج. فيم القلق والحيرة والخوف من المستقبل وعليه؟..وداعا يا أبى ولن أنسى كلماتك. عشت أيامك سعيدا بكل مافعلت وقلت. تساوى عندك الشروق والغروب. الفقر والغنى. لم تعان الاحساس بعذاب الكدح لأنك مدرك لاجدواه ، قانع راض بما قسم لك. أدركت بفطرتك ذلك العبث فسحقته بمفهومك الخاص عن عالم الروح. أنهيت أيامك فى سلام داخلى مهيب. لقد حلت بينى وبين السقوط من قمة الجبل الى سفحه حاملا معى صخور آمالى العفوية.."يجب أن تتعلم كيف تحمد الله".. ألقيت بصخورى من على ظهرى وعاودت دورة النزول فى هدوء بلا حمل. ينبغى أن أبحث عن مستقر فى بطن الجبل تدفئنى فيه الطمأنينة ويغمرنى فيه الحب والسلام. لاشك أن عم راغب ، وقد التف الآن بغطاء مهترىء مفترشا أرض الحكماء السبعة، قد توصل من قبل الى هذه النتيجة ووضعها موضع التنفيذ. اما امرأة الشحتوف وأم الشحات وقد كتب عليهما مواصلة السعى ، فهما غير مطالبتان بالفهم على أى الأحوال ، لأن الفهم لن يفيدهما بشىء.

****

ليلى الاسكندرانى

****

معركة المناشر غيرت خريطة بحرى بأكملها. المعلم"طيطة" أصبح تاجر سيارت كبيرا. المعلم"عرفة الدوكش" أصبح مقاولا معروفا. حودة تمنتاشر وأم الشحات وامرأة الشحتوف تولى أمرهم خالد الحنفى العزيزى الغارق فى الانتماء الى البوابة حتى النخاع. الوحيد الذى لم تتغير خريطة حياته الى الأفضل هو حمدى. كان اليأس اختياره فدفع الثمن غاليا. مشكلته الجوهرية أنه كان أسير اعتقاد خطير ، آمن به لحد العقيدة ، حتى من قبل واقعة المناشر. كان يؤكد دائما أنه لا أحد يمكنه النجاح فى هذا المجتمع مالم يكن يتمتع بالسلطة أو الثروة أو بالاثنين معا، وأنه مالم يحقق – على الأقل - أحد الشرطين فى حياته بأى وسيلة فمن الأفضل له أن يموت. آخر فرصة أتيحت له كى يعثر على أرض يقف عليها وانتماء يتشبث به هو صديقه وابن حارته شمس الدين عبد السلام، لكنه أضاعها مثلما أضاع فرصته مع حامد المنتمى الى المقاومة الفلسطينية.

ظروف شمس الدين الاجتماعية والاقتصادية تكاد تتطابق تماما مع ظروفه. لكنه يختلف كثيرا فى ميوله واتجاهاته عن حمدى. شمس شاب متعطش لبناء مستقبل جديد قائم على فكرة مؤداها أن الانسان خلق ليكون أكثر من كونه خلق ليملك. وتتمثل هذه الكينونة فى أن يحقق ذاته فى عمل غير تقليدى بعيدا عن الوظائف والمكاتب ، يعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع والفائدة . دعاه شمس للتوجه معه الى سيناء للمساهمة فى تخضيرها بالعمل فى المشروعات الزراعية الجديدة بها، وفى خلق مجتمع جديد تتحقق فيه طموحات الأفراد من جهة، ويعم فيه الخير على المجتمع من جهة أخرى. نجح شمس وتحقق ، بينما ألقى حمدى بنفسه الى الضياع.

على عكس حمدى ، كانت مشاعرى تجاه أخيه حسن إيجابية للغاية. لم يخف عنى حبه لى وإن فعل ذلك بأدب وتعفف. كنت على وشك التعلق به لولا أن لاحظت عليه تحولا خطيرا فى فكره. لقد اعتنق المبادىء التى تتبنى العنف ، وحول نفسه الى اله يحكم على الناس بالايمان والكفر، فانغلق عقله على مفاهيم خاطئة مدمرة جعلت منه إنسانا لايطاق. حتى عندما قررت أن أتمهل فى قرارى بالابتعاد عنه ، بعثت الظروف اليه بفتاة منقبة اسمها"ألفت". كانت زميلته بالكلية. شاءت الظروف أن يعرفنى بها. لم تمض دقائق معدودة حتى انتهيت من قراءة أفكارها ومشاعرها ، فعرفت أنها من طينته ، بل إنها تفوقت عليه فى الغباء الشديد. بذلك يكون قد اجتمع المتعوس مع خائب الرجاء. ابتعدت عنه وقلت له فى نفسى هنيئا لك يادكتور بالمرأة التى تناسبك. أما أنا فلا!!

فى منطقة راقية برمل الاسكندرية عثرت على ضالتى. سمعت عن هذه المكتبة الضخمة الجديدة. كنت أبحث عن كتاب معين، لم أجده فى معظم المكتبات. فوجئت بإعلان صغير معلق بواجهة المكتبة عن وجود وظيفة لأمينة مكتبة ، ويتوقف التعيين على المقابلة بغض النظر عن المؤهل الدراسى. لحسن حظى كان مدير المكتبة منواجدا فى ذلك الوقت فقدمت اليه نفسى:

- أنا ليلى الاسكندرانى. تركت كلية الآداب من نهاية السنة الثالثة لظروف عائلية
- وما علاقتك بعالم المكتبات؟
- الكتب عالمى ، وأنا ممن يسمونهم "فأرة " قراءة!

بعد مناقشة رائعة لم يكن الرجل يرغب فى إنهائها ، منحنى الوظيفة وكان راتبها فوق مستوى حلمى . حمدت الله وانتظمت فى عملى وأبدعت فيه. عاد الى توازنى النفسى وأصبحت أفكر فى الأمور بأسلوب أكثر نضجا وواقعية.

أخيرا حسمت موقفى وأجبت لنفسى الحائرة عن الأسئلة العديدة المعلقة. قررت الزواج من الريس عبد الاله وليكن مايكون : قاتل أبى. تاجر مخدرات. معدوم الثقافة فقير الفكر. قررت الزواج منه ولأكن أنا الأخرى من أكون: كاذبة. انتهازية. بائعة لجسدها وروحها. هناك أشياء تحدث فى حياة المرء لاتفهم ولايمكن تبريرها بوضوح. زواجى من الريس عبد الاله شىء من

هذه الأشياء. أحيانا تتوارى الثقافة العامة أمام الأمثلة الشعبية من نوع:"تزوجى من يحبك لا من تحبيه". هذا الرجل لم يمل من ارسال المراسيل والوسطاء لى حتى أوافق على ارتباطه بى. هذا الرجل بذل المستحيل مع أبى عليه رحمة الله كى يوافق على زواجى منه. أبى كان يرفض نيابة عنى – رغم أنه سألنى مرة من باب الاحتياط ورفضت – لأنه كان على دراية بكل مايدور بعقلى ، وما يميل اليه قلبى.

لم يصدق عبد الاله نفسه أن حلمه قد تحقق فجأة حين أعلنته بموافقتى. على طول المسافة بالكورنيش من المنتزه وحتى رأس التين ، علق عبد الاله مطبوعة بصورتى محاطة بالورد معلنا فيها نبأ الزفاف. وزع الهدايا والهبات والشربات على حى بحرى بأكمله. لم تتوقف فرق الموسيقا عن العزف فى كل البياصات الشعبية لمدة أسبوع كامل.

أشار اليه المقربون منه ألا يتم الفرح فى أحد الفنادق الكبرى كما كان ينوى ، لأن معظم أهالى الحى سيحجمون عن دخول الفندق خوفا ورهبة. لذلك أقيم الفرح فى كل ساحات بحرى ، واختار بياصة الأنفوشى لتكون مركزا لكل هذه الأفراح ، وليجلس فيها بجوارى على الكوشة.

كان فرحا اسكندرانيا بمعنى الكلمة. كل الطقوس الشعبية من رقص وغناء وشرب مورست فى هذه الليلة.

فجأة ،اقتحم مصطفى سبرتو الفرح وهو مخمور يبكى. صاح وسط الناس بأعلى صوته – موجها كلامه لى - أن الريس عبد الاله هو الذى قتل أبى. هجم عليه زبانية عبد الاله وقذفوا به بعيدا عن المكان بعد أن أشبعوه ضربا.

يهيم مصطفى فى الحوارى والأزقة مرددا عبارة بعينها:

- ياعالم .ياهووه. صدقونى.عبد الاله هو اللى قتل الاسكندرانى

لست أدرى كيف طاوعنى جسدى أن أمتهنه ليكون ملكا حلالا لهذا الرجل. لكن هذا ماكان والسلام. عشت معذبة لفترة ليست بالهينة ، لكنى كرست طاقاتى عوضا عن ذلك فى خدمة أبناء حيى. أنشأت لخميس فلفل مقهى أصر هو على تسميته بنادى الشباب العربى. أنشأت له مكتبة للشباب بداخل هذا النادى الذى أصبح مكانا رائعا لتجمع الأجيال الجديدة من شباب بحرى المتعلمين. أوفى عبد الاله بوعده – ولو مضطرا – بانشاء المستشفى والمدرسة. كنت أمضى معظم وقتى فى متابعة الإنشاءات ووضع المؤسستين موضع التحقق والتنفيذ. ساعدت أم الشحات وامرأة الشحتوف وماجدة وغيرهم حتى يعيشوا حياة كريمة.

كنت أتوقع أن تستمر بى الحياة على هذا النحو وأنا مطمئنة أن أموال زوجى كلها تحت رحمتى. لكن قدرتى على احتمال هذا الرجل تعطلت تماما. كانت الفجوة الفكرية بيننا عميقة للغاية. كان فظا فى تعامله مع جسدى كما لو كان ثورا مسعورا. كان يعيرنى بأنى لم أنجب له الولد الذى ينتظره ليصبح خليفته والذى أسماه مقدما "ملك البحر والبر".

دب الخلاف فجأة بين "أورمة" وخرابة" على غنيمة مالية كبيرة من وراء معلمهم فى صفقة من صفقاته المشبوهة. وشى الأول بالثانى لدى عبد الاله، الذى استأجر بلطجيا ليقتل خرابة. نجا خرابة من القتل بمعونة مصطفى سبرتو ، عدو عبد الاله اللدود . هجم على عبد الاله فى كابينته. أغرق المكان بالكيروسين وأشعل فيه النار وقد أغلق الباب على عبد الاله.

ليس هناك ما هو أقوى من الانتقام الالهى. هأنا الآن حرة متحررة من أى مشاعر نفسية موجعة أحاطت بى من بعد الزواج ، وكأننى كنت أتوقع – دون أن أدرى – أن الله سينصفنى من عذاب الفقر والذل والقهر، وسيرفع عن كاهلى الشعور بالعار والذنب.

****

حمدى / حســن

****

●<u>حمدى أبو جبل:</u>
لست نادما على ماحدث. لست نادما على شىء. أصر على ذلك مهما كان مصيرى.اعدمونى أو القوا بى الى غياهب المعتقلات. لم يكن أمامى الا أن أفعل مافعلت.

●<u>حسن أبو جبل:</u>
- ووطنيتك ياحمدى؟
- سلنى عن انسانيتى أولا
- وهل ما كنت تنوى ارتكابه ضد وطنك يعد عملا انسانيا؟
- أنا طريد الوطن
- أنت طريد ذاتك

****

● <u>حمدى أبو جبل:</u>
كذاب. أفاق. ينكر الوطنية من الأصل. يتجاوزها الى مهزلة يعتقد فيها بغباء ، يسمونها الأمة الاسلامية. لاطال وطنية ولا اسلامية. كل المسلمين يتقاتلون ويتناحرون، وبعضهم يستعين بالدول التى يعتبرونها كافرة فى صراعهم ضد دولة اسلامية أخرى.. أنا لم أستطع تجاوز محطة انتمائى لذاتى الى محطة أخرى أكثر شمولية – كالانتماء الى الوطن – لأن مشهد أبى وهو يسحل على الأرض وتسيل دماؤه ، قطع على الطريق الى أى قيمة انسانية نبيلة أنتمى اليها من قيم الحق والعدل والخير، فتخبطتنى تيارات الحياة بلا رحمة ، وطحنتنى صراعاتها العاتية.ثلاثة أشهر قضيتها فى الجحيم عينه.النوم على الأرصفة. تسول الطعام من الهيبيز. الهرب من مطاردة البوليس. معاشرة الشواذ من الرجال من أجل بضعة فرنكات أو دولارات. حتى غسيل الأطباق فى أقذر المطاعم لم أوفق فيه. ألقيت بشهادتى الجامعية ممزقة فى سلة مهملات على الطريق. لم أتلق مساعدة من أحد ممن يسمونهم الوطنيين أو القوميين.صراع انتحارى من أجل المال. الدقيقة الواحدة باهظة الثمن. لامجال لعطف أو تعاطف.النظام صارم. النظافة حادة.العمل مقدس. الابتسامة لها سعر. اقتل لتعيش. اهدم لتبنى.حطم لتصعد.آلام المعدة هنا أقوى وأشد بكثير من آلامها هناك حيث يمكن أن يشاركنى فى الشعور بها مئات وآلاف. أهو الحنين الى الوطن؟. قلت الهجرة أو الموت.أنا اذن بانتظار الموت على أرض لايعرفنى فيها أحد. هذا أشرف عندى من العودة خائبا مفلسا محطما ذليلا.

****

- لست أخى .اننى أكرهكم جميعا
- انما تكره نفسك
- أما زلت بعد فيلسوفا حتى بعد خروجك من السجن؟
- دخولى الى السجن أو خروجى منه لايغير من حقيقتى
- أنت انسان غبى
- واضح!!

****

حين يعلن أحدنا فى مجلس الشاردين عن حصوله على عمل – مهما بلغت حقارته – تجد من يسأل عن الأجر ثم يستأذن فى الانصراف لسبب أو لآخر. نعلم بعد ذلك أنه توجه الى صاحب العمل المذكور يعرض نفسه عليه بأجر يقل عن الذى سمعه من صاحبه فى المجلس، وأنه التحق على الفور بهذا العمل واختطف الفرصة من صاحبها الحقيقى.

****

●<u>حسن أبو جبل:</u>

حين سافر حمدى لم يستشر أحدا. فوجئنا جميعا باختفائه. ماحدث لأبينا كشف لديه الشعور بالدونية والاغتراب داخل مايسمونه الوطن وهو مجرد حفنة من تراب عفن . لكنه شاء أن يضيف الى اغترابه الداخلى اغترابا خارج وطنه، ليشعر بالمزيد من الدونية فى بلاد تعانى من شدة التقدم، وينظر أصحابها اليه كما ينظرون الى خادم ذليل. من المؤكد أنه مارس أحقر المهن حتى يستطيع أن يحصل على قوت يومه ، فعندهم من لايعمل لايأكل. لو كان خبيرا أو متخصصا فى فرع من فروع العلم لتخاطفوه واحترموه ونافقوه حتى يفيدوا من علمه وخبرته. لكنه لاشىء. كبيره غسيل الصحون والأطباق، ومهما أذلوه أو أهانوه هنا فلسوف يحتمل الذل والاهانة، لا لسبب الا لأن أحدا من أهل البوابة لن يشهد مهانته.

- **كيف أخرجوك من السجن؟كان ينبغى أن تظل معتقلا الى الأبد. لم علمتنى؟**
- **فيم تضيرك حريتى يا أخى؟**
- **لأنى لست أريد أن أراك أنت أو غيرك**
- **صلة الرحم أقوى منى ومنك**
- **لست أعترف بهذه الترهات. لم أخرجوك من السجن؟**
- **تولى الحكم رجل جديد**
- **ياسلام!**
- **ألا تصدقنى؟**
- **بلى ، فكلكم مجموعة من المنافقين، ولعلى لا أدهش لو علمت أنك أصبحت من كبار المسئولين فى النظام الجديد**

****

● **<u>حمدى أبو جبل:</u>**

على وابور الأسفلت تنقلت من مدينة الى أخرى.عملى الجديد. أرش الأسفلت على الطريق. كنا نتوقف فى الأرياف أمام مساكن تشبه القصور لنستريح قليلا. نساء كالحور كن يقدمن لنا الحلوى والشراب والابتسامة الساحرة الرقيقة.. من خلال القطران الأسود الذى أقذف به الى الطريق سنحت لى بارقة أمل.امتلأ جيبى لأول مرة بمئات الفرنكات. عرفت معنى العمل وتعلمت كيف أمضى عطلة نهاية الأسبوع. اشتريت سترة جديدة وجهازا للتسجيل. أقمت فى منزل جميل مع أسرة صغيرة مكونة من رجل وزوجته وابنة فى العشرين وصبى فى الثامنة. الزوج يسافر خمسة أيام فى الأسبوع. يعمل فى مدينة بعيدة. هكذا شاء قدرى.

- **وليلى؟**
- **تزوجت من الريس عبد الله**
- **هاهاها...هاهاها**
- **ماذا دهاك؟**
- **بركاتك ياشيخة ناهد. ينصر دينك**
- **لم يكن أمامها خيار**
- **والحبيب المسجون؟نسيته بهذه البساطة؟. ألم تكن تحبها يا أباعلى. قرأت ذلك فى مذكراتك الشبيهة بلعبة السلم والثعبان**
- **أحبها؟..الحب والتشرد لايجتمعان ياحضرة المحامى السابق، ولو كنت مكانها لما ترددت فيما فعلت**
- **اذا كنت أخى حقا – مع أنى أشك فى جدوى هذه الروابط الاجبارية – فأرجو أن تسألها من التى قالت يوما انها لن تحصل على سعادتها الا بين ذراعى تعس لايستطيع أن يكسب أكثر من قوت يومه.**
- **من تقصد؟**
- **سلها تجبك.لم تنجب رأس التين عبقرية مثل عبقرية ناهد**
- **ماهذا الهراء يابنى؟**

****

بعد عامين كاملين من العمل فى القطران أو كما يسمونه"الزفت المسيح"طالعت فى جريدة سياسية نبأ مقتل حامد – ضمن من قتلوا – فى عملية انتحارية راح ضحيتها الكثير من النساء والأطفال. شعرت بسعادة لهذا النبأ. كنت قد بدأت أستوعب لغة القوم الذين أعاشرهم. قال لى أحدهم وأنا اتأمل صورة حامد ملطخة بالدماء محاطة بالدمار والأشلاء:

- **أنتم قوم متخلفون مخربون ارهابيون**
- **ماذا تقصد بأنتم؟**
- **أنتم يا عرب**
- **أنا مصرى**
- **وتقولون ان بلادكم مهد الحضارة؟**
- **التاريخ هو الذى يقول**
- **لكن...**
- **لاشأن لى بما حدث..دعك منى**

لكى أكون منصفا فإن شعورى بالسعادة لمقتل حامد كان مشوبا بقلق غامض ومشاعر دفينة تعج بالتناقض. قلت لنفسى لماذا أسعد لمقتله أو لماذا أحزن؟..حامد بعينيه الثاقبتين انسان محدد الأبعاد. واضح الفكر. اختار مصيره عن رضا واقتناع. ما شأنى اذن؟..

ما أعظم حرية الانسان فى اختيار مصيره. حتى النسوة الجاهلات كن يحددن مصائرهن فى كلمة أو كلمتين على شاطىء الأنفوشى. كان مسعد افندى وكيل المحامى ذو الشهرة يجلس تحت مظلته فى الصيف يتلقى شكاواهن الحائرة من أزواجهن. سمعته مرة يقول لاحداهن بثقة تامة:

- **الكلمة كلمتك. قولى لأ ومن الليلة لن تبيتى فى حضنه. هاه . قلتى ايه؟.**

وتقول المرأة كلمتها واضحة قاطعة، ليبدأ مسعد افندى من بعدها فى اتخاذ اجراءاته المصيرية. النساء اذن يستطعن اتخاذ القرارات، فليس عجيبا أن يكون قرار حامد هو الموت دفاعا عن قضية يؤمن بها. أما العجيب فعلا فهو اننى لم أكن راضيا عما صرت اليه من حال رغم حصولى على كل ما حرمت منه فى وطنى. العمل. الحب. المال. الجنس. معاشرة أهل التحضر. متعة مشاهدة الطبيعة الخلابة الآخذة بالألباب. حقيقة أننى لم أكن أشعر بتكافؤ عادل بين مؤهلى وعملى، لكن أحضان الزوجة السويسرية كانت تغمرنى بفيض هائل من سحر الحياة لايقاوم. أبدا لايقاوم.ينسينى منبتى وحياتى ومآلى. يعوضنى عن حرمان طالما عذبنى وشوش أفكارى ومعتقداتى. حتى يوم أن فاجأتنى أقبل ابنتها وهى جالسة على فخذى ، ابتسمت ولم تعاتبنى. كانت ابنتها تحبنى وتعطينى كل ما أطلب هى الأخرى.

تحول الانسان فى الى وحش ضار. لم أكن مسلحا بأى مقاومة لسحر الانتقام من عذابات الفشل والكبت والتعاسة الى أن قادتنى حيوانيتى ذات يوم الى الصبى الصغير ذى الثمانى سنوات. كان جميلا بحق. أجمل من أمه وأخته. لست أدرى كيف حدث ماحدث. الى أن فوجئت بأمه ذات يوم:

- **اسمع يا أنت.ابنتى ولم أعترض. أما الصبى فلا. أنت أحقر انسان أعتقد فى وجوده على وجه الأرض. ليس لك مكان بيننا اعتبارا من هذه اللحظة.**

****

- **<u>حسن أبو جبل</u>:**
- **أما زال عبد الاله مطلق السراح ؟**
- **وماذا يحول دون ذلك؟**
- **يوزع الأطنان من المخدرات منذ سنتين ولم يقع حتى الآن !**
- **علمت أنه كان قد تاب عن احتراف هذه المهنة واكتفى بإدارة مقهاه الكبير وجمع ايرادات عماراته الأربعة**

- **ياصلاة النبى**
- **كان هذا هو شرط ليلى للزواج منه**
- **يعنى سرح بالحكومة وضحك علينا كلنا، وطبعا ينام الآن فى اطمئنان على نعمته وعلى ليلى أيضا**
- **وكان يوزع الصدقات على فقراء الحى ويحيى أياما قرآنية لوجه الله وكل الحى يحبه ويحترمه**
- **هزلت! أين أنت ياناهد؟ أقدس عبقريتك رغم أننى أكرهك**
- **عبقريتك تتسول الآن لقمة الخبز بعد أن مات ابنها جوعا**
- **ناهد تتسول؟ غير معقول. لا أصدقك**
- **هذا ماحدث**
- **ناهد تمتلك عمارتين**
- **أنفقتهما على الأفيون وعلى ابنها المدلل**
- **نشأت؟**
- **لقد أشبعها الولد ضربا ولكما وابتزازا. أنهكها الفقر وإدمان الأفيون حتى بلغت هذه النهاية**
- **خسارة وألف خسارة. سقطت عبقرية رأس التين فى الوحل**
- **لكنك لاتعرف ما الذى حدث لعبد الإله بعد ذلك**
- **ماذا حدث؟ حج لبيت الله أم بنى مسجدا؟**
- **قتل !!..قتله خرابة**
- **كيف؟**
- **حين تأكد أن عبد الاله مصر على أن يتخلص منه ، توجه الى"بعليصة"بائع عصير القصب المخمر- حيث اختفى الكحول الأحمر من السوق – وتناول عنده عدة أكواب معتقة، ثم توجه الى كابينة عبد الاله الفاخرة. أغلق عليه باب مكتبه فجأة. سكب صفيحة من الكيروسين على أرضها وأثاثها ثم أشعل النار ومات عبد الاله محترقا. ظل خرابة يطلق ضحكات هستيرية اختلطت بصراخ عبد الاله وأصوات عربات المطافىء وجمهرة أهل السيالة حتى أخرجت الجثة وهى متفحمة تماما.**
- **عظيم جدا..قليلا ما تأخذ العدالة مجراها فى هذه الحياة الملوثة**

****

● **<u>حمدى أبو جبل:</u>**

يامصيرى الأسود بلون عملى. أعود اليك من جديد هائما فى الطرقات، غريبا عن عالمى. غريب عالمى علىّ. أسميه قدرا أم ماذا أسميه؟ سمعتهم يتحدثون دائما فى يقين عن اللوح المحفوظ. أى لعنة كتبت لى ياترى فى هذا اللوح؟. لو سألنى أحدهم هل تلد العصافير أم تبيض لما وجد عندى اجابة واثقة. لم يبق لى سوى العمل مع ذلك السائل الأسود اللزج الكريه. أمضيت عاما ثالثا فى نفس العمل.لم أحاول أن أبحث له عن بديل ، وأعتقد أننى أحببته.كريه كريه لكنى أحببته. وجدت فيه لون حياتى ورائحتها. أحسست أنه يشاركنى تفاهتها ولاجدواها حين يسقط على الأرض لزجا ساخنا لايلبث أن يتجمد حتى تدوس عليه الأقدام.

جمعت الكثير من المال وأحببته هو الآخر. عرفت الكثير من النساء ووددت لو عرفت أكثر وأكثر.حصلت على كل شىء ولم أحصل على شىء.

فى خلال تلك الفترة الضائعة من حياتى عرفته. صار نديمى وطبيبى النفسانى. عرف هذا الرجل بمقدرة فائقة كيف يتغلغل فى أعماق نفسى المظلمة الكالحة السواد، المليئة بالسراديب الموحلة والدروب المجهولة. فى بادئ الأمر ادعى أنه موظف باحدى الشركات التجارية

وعرض على وظيفة ادارية بها رفضتها لتعلقى الشديد بالقطران..ولما ازدادت ثقتنا فى التبادل أفهمنى حقيقته.

- **وأمى ؟؟**
- **هأنت أخيرا تسأل عن أمك**
- **بخير؟**
- **البقية فى حياتك. كانت تتمنى أن تراك**

****

عملت معهم عامين كاملين وعرفت لأول مرة فى حياتى كيف أتعامل بالشيكات. ذقت طعم السعادة التى تغمر محروما حين يمسك بيده آلافا من الجنيهات وهو متأكد تماما انها ملكه وحده وأنه حصل عليها لقاء أى عمل. نزلت فى أفخم فنادق العالم بصحبة أجمل النساء، من كل جنس ولون ورائحة ومذاق.

لن أنسى يوم قضيت ليلة عاجلة فى شيراتون الجزيرة بصحبة امرأة ايطالية تعمل معنا فى نفس الشبكة. لم أفكر ليلتها فى الاسكندرية أو رأس التين ولو لثانية واحدة. شعرت أننى فى أى مكان من العالم الا مصر. اننى لم أرها من قبل أبدا بهذا السحر وأنا ضائع منكسر، أو كأننى انسان آخر غير الذى ولد على أرضها فى أزقة الحرمان والتعاسة فغيروا اسمه.كانت مصر غريبة علىّ كما كان العالم كله غريبا.كنت أستطلع الدنيا بأكملها لأول مرة خلال أسفارى وتجوالى منبهرا بحياة التنعم والنعومة والنعيم. منبهرا الى درجة العمى. بل عميت حقيقة من شدة الانبهار.

****

- **وخالتى ثريا؟ ألم تمت هى الأخرى؟**
- **ربنا يخليها لنا**
- **هاها..ياسبحان الله. يخليها لنا نعمل بيها ايه؟**
- **استغفر الله**
- **لماذا لم تمت؟مفاجأة من مفاجآت اللو ح المحفوظ؟**
- **لو أعرف سببا واحدا يدعو الى بقائها على قيد الحياة**

فى لحظة حاسمة تحددت نهاية مؤكدة لحياتى. نهاية مريحة.لعلها الحقيقة الوحيدة التى عرفتها منذ مولدى، فقد تم القبض على بواسطة المخابرات المصرية.

****

- **حدثنى عن لولا وابنتيها فمازال فى وقت الزيارة متسع**
- **انى أعجب لأمرك. ألا تفكر فيما ينتظرك من مصير مظلم ، وتشغل نفسك بأناس لايهموننا فى قليل أو كثير**
- **هه!! لماذا لم تقل هذا الكلام لحامد قبل أن يقتل**
- **من حامد؟**
- **مجنون مثلك. ألا تدعنى أمارس بعضا من جنونكم؟..قل لى ما أخبار لولا**
- **لولا عادت الى زوجها القديم**
- **وعم مرسى ؟؟؟**
- **مازال مقيما معها فى نفس المنزل**
- **متزوجة من اثنين وفى بيت واحد؟**
- **زوجها الرسمى هو مرسى**
- **وهل قبلت الشيخة نادية بذلك؟**
- **نادية تركتهم جميعا بعد تخرجها فى الجامعة واستقرت فى السعودية وانقطعت أخبارها**
- **وشادية؟**
- **اغتصبها نشأت قبل وفاته ونجحت أمها فى تزويجها من كهل سافر بها الى بلاده**

****

ايه..ايه يا أيام الصبا ويا أيام الشباب.يايوم مولدى الكئيب.ويايوم مماتى الذى تحكموا فيه ليحددونه بمعرفتهم بعد أن حالوا بينى وبين الانتحار.ويا أبى الميت ويا أمى الميتة..الى أى شىء انتمى ياعالم الوحل والمتناقضات. حياتى قبر صغير دفنت فيه كل المعانى والآمال. كلهم ينتمون الى أشياء فيما عداى. قبر مغطى بالقار.ترابه دنس ورذيلة.حشائشه الشيطانية تضرب بجذورها العفنة فى أعماق البؤس والتعاسة..ويعزف القدر لحنه الجنائزى الصامت. ترقص عليه أشباح سوداء تنتمى الى عالم مجهول.عالم فسيح..فسيح..فيه متسع للجميع.

ومن خلف القضباب اللعينة يحدثنى أخى – من الأب والأم – بعد خروجه من المعتقل لسبب مجهول..وأسمع صوت خنزير ضخم يتحسس شاربه الطويل فى غباء يقول له:

- الزيارة انتهت يا أستاذ!

****

مجذوب البحـــــــر

****

•شخصيات سكندرية لاأنساها:

• المعلم حبشى المنياوى ومعنى الرجولة:

كان المقهى الصغير المتوارى فى أحد أزقة الأنفوشى هو المحل المختار والمكان الأثير للمعلم حبشـــــى المنيـــــاوى، أســـــطورة الأنفوشـــــى وحـــــى بحـــــرى كلـــــه. كانت شهرته تملأ الآفاق ، وسيرته تتداولها ألسنة الصغار والكبار . كنت أسمع عنه ولم أره. دلنى عليه أحد أصدقائى الصيادين وأخذنى لمقهاه المفضل وعرفه بى قائلا:

- واحد من أحبابك ياسيدنا سمع عنك وتمنى رؤيتك.

أجلســـنى المنيـــاوى بجانبـــه وطلـــب لـــى فنجانـــا مـــن القهـــوة وشيشـــة. جلست قباله أتأمله بإمعان .أحاول جاهدا أن أقرأ خريطة وجهه المتغضن بخطوط الزمن وعينيه الخابيتين اللتين لاتزالا تحتفظان ببريق ملغز.. طويل القامه مفرود الظهر عريض الصدر، له لحية مهيبة وحضور طاغ يتحدى عمره الذى تجاوز المائة عام بعامين. أكبر أبنائه تجاوز الثمانين .

المعلم حبشى المنياوى حكاء من الطراز الاول اذا بدأ فى الحكى سيطر على عقول وقلوب الحاضرين.. كان من أكبر المعلمين أصحاب أسطول عربات الكارو التى كانت تعمل فى الميناء فى الشحن والتفريغ، وكان يملك مايربو على ثلاثين عربة، واسطبل كبير بجوار صالون الحاج محمد المطاهر الذى يحمل له كل رجال بحرى ذكرى ختانهم. وقد خصص المنياوى الاسطبل لخيوله وحميره التى تجر عرباته فقط .

أصبحت مدمنا له ولحكاياته. كانت أولى تلك الحكايات التى سمعتها منه عن قرش ضخم اقتنصه صيادو احدى البلانصات، حين تجمع عليه أكثر من أربعين صيادا لينقلوه الى الاسواق لتهيئته الى شرائح وبيعه. غير أن محاولاتهم قد باءت بالفشل لأنه كان لايزال حيا، فتصدى له المعلم المنياوى مع اثنين من أبنائه ، وباستخدام ماسورة حديدية كبيرة هوى المنياوى على رأس القرش بضربات متلاحقة حتى خمدت حركته. وباستخدام عربة كارو طويلة تم تحميل القرش بمعاونة حبال وبكارة فوق العربة التى افترشها بالكامل، وتدلى ذيله من آخرها مقتربا من الارض .

كانت أجمل حكايات المنياوى عن الاسكندرية منذ سبعين عاما ... وكان متزوجا من نساء ثلاثة . يحكى عن قيامه بمهمة احضار خزين كل بيت من المواد الغذائية كالسكر والسمن البلدى والدقيق والأرز والحبوب وسمك البكالاه المجفف والزبده والقشطه واللحوم والدواجن. كانت ميزانية كل بيت من بيوته خمسة ريالات فضية، يتوجه بها الى سوق راتب فوق عربة كبيرة من عرباته، فيكدسها بالمشتريات ويعود بها ليفرغها أبناؤه الذين تعدى عددهم العشرين، أغلبهم من الذكور فى منازلهم .

عندما يحكى عن الميناء نكتشف أن المعلم الأمى يجيد أكثر من عشرة لغات ، بما فيها الصينية ، وأنه كان صديقا حميما لكل قباطنة السفن الاجنبية التى كانت تتردد على ميناء الاسكندريه بانتظام .. وفى احدى المرات سألنى قائلا:

- عارف ياأستاذ رجولة يعنى ايه؟

سكت منتظرا سماع الاجابة منه. بعد أن سكت طويلا حتى ظننت أنه شرد منا ، قال:

- الرجوله يعنى الأمانة فى القول والعمل ياأستاذ..

وصفق بيديه مستدعيا صبى المقهى قائلا: هات قهوة مضبوطه للأستاذ بسرعه ياحوده، وغير له مية الشيشة.

• التمن العربجى وسبحان مغير الأحوال:

كانت العاصفة على أشدها، والبحر مهتاج على شاطئ الانفوشى . جباله تعلو وتهبط مستجيبة لاحدى نوات شهر طوبة العفية ، عندما علا الصراخ والشجار بين التمن العربجى وهو ممسك بحماره الهزيل قرقر ، وبين مجموعة من الصيادين .التمن مصر أن ينزل بقرقر بين الأمواج ليمنحه حمامه الأسبوعى، والصيادون يحاولون منعه من خوض الأمواج، لأنه سيغرق حتما ومعه قرقر .

اعتاد أهل بحرى أن يطلقوا تسمية "النّص" على كل رجل قصير هزيل، لأنه فى اعتقادهم لم يبلغ مبلغ الواحد الصحيح من الرجال . لكنهم وقفوا حائرين أمام مسعود العربجى القصير الهزيل الخائر القوى،الذى يعانى من سوء التغذيه هو و حماره معا.اختاروا له اسم التمن(بضم التاء) امعانا فى التحقير.

كان التمن صعلوكا أصيلا من صعاليك الأنفوشى . حاز هذا اللقب بجدارة بسبب فقره وهزاله وحالته المزرية. من العجيب أنه اختار لحماره الذى لايقل عنه هزالا اسم قرقر على سبيل التدليل . كان مسرح عمليات التمن أمام باب حلقه السمك. يقف منتظرا بعربته المتهالكة وحماره الهزيل حتى ينتهى مزاد الاسماك داخل الحلقة ، ليقوم بنقل طوايل الأسماك التى فاز بها المعلمين الى الاسواق المختلفة بالاسكندرية. كان يرضى بأجر بخس مع حفنات من الأسماك كهبة من المعلم ، ثم يعود الى الحلقة ليعاود الكرة ، وفى نهاية اليوم تتجمع معه تشكيلة من الأسماك يقف بها أمام الحلقة ليبيعها للنسوة الفقيرات.

فى المساء يفك قرقر من العربة، ويضع أمامه كومة من البرسيم أوحفنات من التبن، بينما يقوم بإعداد الجوزة والمعسل ، ويجلس ليشد الأنفاس فى كركرة متلاحقة وسعادة الدنيا والآخرة تشمله. لم يتزوج التمن لأنه لايقوى على الزواج جسديا وماديا ، ولأنه كان يعول أمه العجوز . يردد دائما:

- كفايه على أصرف على روحين .

مضت به الأيام على هذا الحال ،الى أن أتاه ذات يوم "حوده جراد" ، أحدالصيادين الذين تحوم حولهم الشبهات ، وعرض عليه أن يدس له داخل طوايل السمك لفافات تحتوى على المخدرات على أن يوصلها الى زبائن جراد لتضليل مكتب المخدرات الذى لن يشك يوما فى التمن. وتحت ضغط العوز والفاقة وإلحاح جراد ، قبل التمن أخيرا بالمهمة بعفوية وبراءة لاتثير الشكوك .

تبدل حال التمن تماما ، وجرت فى يديه النقود. قام بتغيير عربته المتهالكة ، لكنه احتفظ بقرقر ولم يتخل عنه. ثم تزوج أخيرا من بنت عزيزة العمشه داخل حجرتين فى بيت قديم بالسيالة .

أصبحت قعدة التمن المفضلة لديه فى قهوة الصيادين ، مرتديا جلابية سكروتة ملونة ، طارحا فوق عنقه لاسة حريرية ، واضعا ساقا فوق ساق . ينادى صبى المقهى الذى يلبى النداء وهو يصيح عن عمد بصوت عال :

- وعندك قهوه مظبوطه وشسيشه عجمى للمعلم التمن

يبتسم التمن بسعادة ، ويمنحه نصف ريال فضة على سبيل البقشيش.

****

●<u>الحاج محمد المطاهر والاستعداد للرجولة:</u>

فى مواجهة ورش بناء السفن على شاطئ راس التين تقع أشهر حارة من حوارى الانفوشى. على يمينها صالون الحاج محمد حلاق الصحة ، الذى يحمل له جيل الخمسينات والستينات من رجال بحرى ذكرى أليمة ومخيفة. مازالت تحمر وجوههم جزعا اذا مروا صدفة أمام المحل. صالون حلاقة عتيق ببابين .على اليمين كرسى الحلاقة وأمامه مرآة قديمة وبضع كراسى متهالكة. بينما يتوسط الصالون ترابيزة خشبية بيضاء طويلة ، مغطاة بملاءة تزينها بقع الدم وصبغة اليود .

على هذه المائدة سيق قصرا أغلب أطفال بحرى للختان ، ليبدأوا خطواتهم الأولى نحو الرجولة. من النادر اذا مر أحد صباحا - وحتى الظهر- أمام الصالون ولم يسمع صرخات الفزع والخوف والقهر من الأطفال ، تدوى داخل محيط الحارة، مختلطة بصوت الأمهات المطمئنة والمواسية لأطفالهن وهم ينتظرون دورهم فى الختان.
وأمام مائدة العمليات يقف الحاج محمد بسنواته التى تعدت السبعين، مرتدبا بالطو أبيض وعلى رأسه طربوش أحمر قصير، وبجواره مساعده الحاج جابر زوج ابنته، الذى يكبل الأطفال ويشل حركتهم حتى ينتهى الحاج محمد من مهمته. لم تكن العملية الجراحية تستغرق من الحاج محمد أكثر من دقائق معدودة، مستخدما أحد أمواس الحلاقه بعد أن يعقمها بالسبرتو وبدون بنج .
يبدأ الأمر بأن يساق الطفل الى الصالون بعد أن تشترى له أمه حلوى فى الطريق لاغرائه على السير بهدوء وهو لايدرى شيئا ، وما أن يقترب الطفل من المكان ويتناهى الى سمعه صراخ أقرانه من الأطفال، حتى يبدأ فى الصراخ هو الآخر ، وهو يتملص من يدى أمه، وقد يطلق ساقيه للريح هاربا فى بعض الأحيان ، لكنه يحمل فى النهايه فوق المائدة ليبدأ الحاج محمد فى تهدئته قائلا:
- "ماتخافش ياحبيبى احنا النهارده حنقيس بس ومش حنعمل حاجه"..
وهى عبارة اشتهر بها الرجل، وان كان الجميع لايعرفون ماذا كان يقصد بكلمة القياس حتى اليوم.
بعد أن ينتهى الحاج محمد من مهمته، يعقم الجرح بصبغة اليود ويلفه بالقطن والشاش وينصح الأم قائلا:
- بعد ثلاثة أيام نزّلى الولد البحر وخليه يلعب ويستحم حتى يدبل الجرح.
وفى المساء يخلو الصالون الا من زبائن الحاج محمد الذين يحضرون لحلاقة رؤوسهم أو ذقونهم ويتبادلون معه الحديث عن أحوال الدنيا .

****

● ● **مسك الختام:**

● **اللهم ارزقنى الدهشة ، فيوم أن تتخلى عنى ، سوف تتشابه كل الأشياء ، وأفقد براءتى.**

****

●أفنيت عمرى فى عشق البحر، ومازلت أحلم بموجه وغيمه ومده وجزره. موجه يحمل أحلامى ويعلو، وغيمه يظلل أوهامى ويخفى، ومده يصل بى الى شطآن الحقيقة ، وجزره ينحسربى الى جزر المجهول.

... الآن والرحلة تقترب من نهايتها ، سيظل فى أعماقى سرا ليس يقال، ولغزا لايحل، ورحمة كنت أرجوها، وبرهانا، وسر وجود!!
... ومازلت أحلق فى الملكوت ، حتى يأتينى اليقين...

****

سعيد سالم
الاسكندرية فى 2017/4/12

تعريف بالكاتب "سعيد سالم"

سعيد محمود سالم- من مواليد الاسكندرية 1943... face book:saeed salem
- عضو اتحاد كتاب مصر و عضو اتحاد الكتاب العرب و عضو هيئة الفنون و الآداب و عضو أتيليه الفنانين و الكتاب وعضو لجنة النصوص الدرامية باذاعة و تليفزيون الاسكندرية سابقا .
- حاصل على ماجيستير الهندسة الكيميائية من جامعة الاسكندرية 1968 .
- رئيس قطاع سابق بشركة الورق الأهلية بالاسكندرية وحاليا على المعاش.
- عنوان المنزل : 5 شارع على باشا ذو الفقار – شقة 10 – مصطفى كامل / الاسكندرية .
- تليفون منزل : 5462869 (03)محمول 4390259 / saidsalem62@yahoo.0122

أولا:الروايات (21 رواية)

"جلامبو" جماعة أدباء الاسكندرية 1976 – "بوابة مورو" جماعة أدباء الاسكندرية – "عمالقة أكتوبر" هيئة الكتاب ، مصر 1979—"آلهة من طين" (طبعة أولى) هيئة الكتاب ، مصر 1985 / (طبعة ثانية) دار الجليل ، دمشق 1986 – "عاليها أسفلها" (طبعة أولى) وزارة الثقافة ، دمشق/سوريا 1985 – "الشرخ" دار طلاس ، دمشق/سوريا 1988" – "الأزمنة" روايات الهلال 1992 – "عاليها واطيها" (طبعة ثانية) دار المستقبل مصر 1992 – "الفلوس" دار المستقبل ، مصر 1993 – "عاليها أسفلها" (طبعة ثالثة) هيئة الكتاب ، مصر 1995 – "الكيلو 101 الوجه و القناع" طبعة خاصة 1997 و طبعة عن هيئة الكتاب 1999.- "حالة مستعصية" دار الهلال 2002 – " كف مريم".طبعة أولى اتحاد الكتاب 2001، (طبعة ثانية)2017 مركز الحضارة العربية2017-"الشيء الآخر".دار ومطابع المستقبل 2004- الحب والزمن.(نشرت مسلسلة بجريدة الدستور على 13 حلقة)عام 2007 ثم بروايات الهلال عام2011.. المقلب- المجلس الأعلى للثقافة(2009)- الفصل والوصل2016 هيئة الكتاب2016 – استرسال(.مطبوعات الرافد بالشارقة عدد ديسمبر2016)- "قصة حب مصرية"(روايات الهلال تحت النشر)- مذكرات فتاة لم تعثر على عريس(دار المعارف)-صعاليك الأنفوشى(تحت النشر)-"هذيان"تحت النشر بدار المعارف- "أعيش"..تحت النشر بدار الهلال.

ثانيا:المجموعات القصصية :(11 مجموعة قصصية)

"قبلة الملكة" مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1987 – "رجل مختلف" هيئة الكتاب ، مصر 1995 – "الموظفون" مطبوعات اتحاد الكتاب العرب 1991 – "الجائزة" دار قايتباى للطباعة و النشر ، مصر 1994 – "الممنوع و المسموح " مختارات فصول.مصر 2002.- "أقاصيص من السويد"الهيئة المصرية العامة للكتاب2005– "قانون الحب"سلسلة الكتاب الفضى.مصر2006 ،هوى الخمسين(نهضة مصر)2011، الكشف.(هيئة الكتاب2013)- رحيق الروح(المجلس الاعلى للثقافة2016)و المعضلة الكبرى.(هيئة قصور الثقافة)

ثالثا:كتب أخرى:

1- كتاب نقدى بعنوان:"الاسكندرية قبل25 يناير فيض من الابداع المتألق".مكتبة اسكندرية2015
....2-كتاب آخربعنوان:"نجيب محفوظ الانسان" سلسلة نجيب محفوظ.هيئة الكتاب 2011
القصص القصيرة: نشر المئات من القصص القصيرة بالجرائد والمجلات المصرية والعربية .
رابعا:*المسرح :*(الجبلاية) كوميدية.مجلةأدب ونقد فبراير2016 –(الدكتور مخالف) أو (عاليها واطيها) .كوميدية.مجلةأدب ونقد ابريل 2017
خامسا: *الدراما الاذاعيةوالتلفزيونية :*
عشرات المسلسلات الاذاعية الشهرية باذاعتى الاسكندرية و القاهرة ، فضلا عن العديد من السهرات الكوميدية وبرنامج عالم القصة..والمسلسل الكوميدى التلفزيونى" عاليها واطيها انتاج " صوت القاهرة 2008 ..والمسلسل التلفزيونى الدرامى"المقلب" ..تحت التنفيذ.
***فى النقد الأدبى :* مجموعة مقالات نقدية منشورةعن أعمال بعض الكتاب العرب .**
أهم الجوائز :

1- **الجائزة الأولى عن رواية "الأزمنة" فى مسابقة احسان عبدالقدوس للرواية 1990 .**
2- **جائزة الدولة التشجيعية فى القصة لعام 1994 عن مجموعة (الموظفون) دمشق 1991 اتحاد الكتاب العرب**
3- **جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام 2001 عن رواية "كف مريم".**
4- **جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام 2010 عن رواية المقلب.**
5- **جائزة الدولة التقديرية فى الآداب لعام2012**
6- **وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى عام2013**
7- **رشح لجائزة النيـــــــــل 2017**